المُوَارَاةُ

والجُنُوحُ للصَّوابِ عَنِ الخَطَأِ

تَأْلِيفُ ومُذَاكَرَة

مُحَمَّد بنُ سَعْدِ بنِ عَبدالرَّحمَنِ

الطَّبْعَةُ الأُولَى - ١٤٣٥هـ
المملكة العربية السعودية
مكة المكرمة

مكتبة العبيكان

ⓒ محمد بن سعد بن عبدالرحمن آل سعود، ١٤٣٥هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
آل سعود، محمد بن سعد بن عبدالرحمن
المواراة، والجنوح للصواب عن الخطأ./ محمد بن سعد بن عبدالرحمن آل سعود.- االطائف، ١٤٣٥هـ
١٥٤ ص، ١٤× ٢١ سم
ردمك: ٢-٤٣٤١-٠١-٦٠٣-٩٧٨
١-الوعظ والإرشاد أ. العنوان
ديوي ٢١٣ ١٤٣٥/٢٠٩١

رقم الإيداع: ١٤٣٥/٢٠٩١
ردمك: ٢-٤٣٤١-٠١-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

امتياز التوزيع
مكتبة العبيكان
المملكة العربية السعودية - الرياض
المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول
هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ ١ ٠٠٩٦٦ - فاكس: ٤٨٨٩٠٢٣ ١ ٠٠٩٦٦
ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

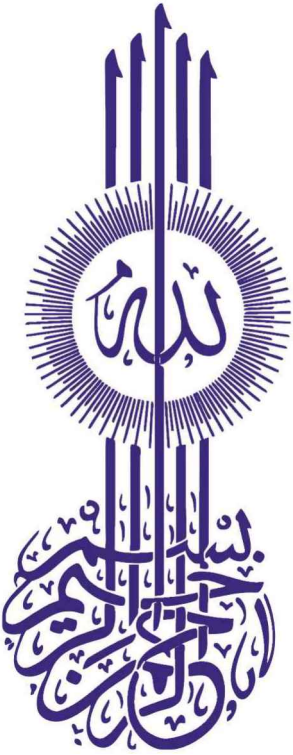
بسم الله الرحمن الرحيم

مُحْتَوَيَاتُ الكِتَابِ

الموضوع — الصفحة

التَّمهِيدُ.. ٩

المُقَدِّمَةُ ١٥

الموَارَاة وأدَواتهَا ٢١

تَوْضِيحُ مَعْنَى (المُوَارَاةِ).. ٢٣

ضَوابِطُ تَحْقِيق الفَائِدَةِ مِنْ (المُوَاراةِ).. ٢٤

المَحْسُوبِيَّةُ تَتَضَاءَلُ مَعَ (الموَارَاةِ).. ٢٧

مِن أسْبَابِ الجُنُوحِ عَن الصَّوَابِ ٢٩

آلِيَّةٌ تُسَاعِدُ (المُتَوَارِي) عَلَى تَنْفِيذِ أَعْمَالِهِ.. ٣٥

(المُوارَاةُ) بِوَصْفِها طَوْق نَجَاةٍ آمِنًا ٤٠

بَعْضُ الفَوَائِدِ المَرْجُوَّةِ مِنَ (المُوَارَاةِ) فِي السِّلْمِ.. ٤٢

إِسَاءَةُ (التَّوَارِي) بوَصْفِه وَسِيلةً فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ.. ٤٦

الخَوفُ مِنَ المَجْهُولِ (المُتَوَارِي).. ٤٩

خَوْفُ المُؤْمِنِ (المُتَوارِي) حِفْظٌ لَهُ عَنْ الابْتِذَالِ ٥٢

الرَّغْبَةُ والرَّهْبَةُ مِنَ (الـمُتَوَارِي) ٥٦
(مُوَارَاةُ) قَدْرِ الثَّوَابِ لِفِعْلِ الطَّاعَاتِ ٦٣
إِسَاءَةُ فَهْم (المُوَارَاةِ) عِنْدَ البَعْضِ ٦٦
(المُوَارَاةُ) مُعِيْنُ خَيْرٍ لِفِعْلِ الطَّاعَاتِ ٧١
(المُوَارَاةُ) لَا تَعْفي صَاحِبَهَا مِنَ المَسْؤولِيَّةِ الفَرْدِيَّةِ أَو الجَمَاعِيةِ..... ٧٦
(التَّوارِي) حِيلَةً وتَرَبُّصًا بالآخَرِينَ لَيْسَ مِنَ المُروءَةِ ٧٩
المُتَكَلِّفُ فَوْقَ الحَقِيقَةِ (مُتَوَارٍ) فَقَدَ مِصْدَاقِيَّتَهُ ٨٣
(المُتَوَارَي) وقَاعِدَةُ الجَزَاءِ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ ٩١
(المُتَوَارِي) خَلْفَ الصِّدْقِ، حِيلَةً وَرِيَاءً لِتَحْقِيقِ أَغْرَاضِهِ الدَّنِيْئَةِ ٩٦
صَاحِبُ البِدْعَةِ ظَاهِرٌ وإِنْ (تَوَارَى) ١٠٥
فَشَلُ (المُتَوَارَي) خَلْفَ الغَيْرَةِ المُفْتَعَلَةِ ١٢٥
مُرْتَزَقَةٌ بِالمُوَارَاةِ..... ١٣٥
التَّسْوِيفُ مُعْضِلَةٌ مَعَ (المُوَارَاةِ)..... ١٥٩
لَيْسَ مِن (المُوَارَاةِ) مَا يُبَرِّرُ مُجَاوَزَةَ الحُدُودِ وَالمِسَاسِ بِالثَّوَابِتِ.....١٦٧
التَّشْخِيصُ والتَّقْوِيمُ ١٩١

دَوْرُ (المُوَارَاةِ) فِي إِعَادَةِ الانْسِجَامُ بَيْنَ المُتَنَافِرِينَ..... ١٩٥
المُتَوَارِي يَحْذَرُ، وَيَحْتَاطُ..... ٢١٠
أَمَلُ المُتَوَارِي يَغْلِبُ يَأْسَهُ..... ٢١١
التَّكَلُّفُ لَيْسَ مَعْنِيًّا فِي (التَوَارِي) ٢١٩

التَّمهِيدُ

الحَمْــدُ للهِ القَائِــل: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ – ٣].

والصَّلَاة والسَّــلَام عَلَى المَبعوثِ رَحْمَــة لِلعَالَمينَ، القَائِــل: «**الدِّين النَّصِيحَةُ: للــهِ، ولِكِتَابِهِ، ولنَبِيِّــهِ، ولأَئِمَّةِ المُسلِمينَ، وعَامَّتِهِم**». وقَد نَصَحَ لأُمَّتِهِ، الَّذِينَ قَالَ لَهم ﷺ: «**أُوصِيكُمْ بتَقْوَى اللهِ، والسَّمعِ والطَّاعَةِ وإن أَمَّرَ عَلَيكُمُ عَبدٌ حَبَشِــيٌّ، فَإِنَّه مَن يَعِش مِنكُم فَسَيَرَى اختِلافًا كَثِيرًا، فَعَلَيكُم بسُنَّتِي، وسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِــدِين، المَهدِيِّينَ، عَضُوا عَلَيهَا بالنَّوَاجِذِ، وإِيَّاكُم ومُحدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**».

والقَائِلُ ﷺ للإِنسَــانِيَّة: «**ابْنَ آدَمَ! اغتَنِم خَمْسًــا قَبْل خَمس: شَــبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِــكَ، وصِحَّتَكَ قَبْلَ سَــقَمِكَ، وفَرَاغَكَ قَبْلَ شُــغْلِكَ، وحَيَاتَكَ قَبْلَ موتِــكَ، وغِنَاكَ قَبْلَ فَقرِكَ**» عَلَيه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فَقَدْ:

أَفَــادَ، فَجَـــادَ، وَسَـــادَ، فَزَادَ
وَفَــادَ، فَــذَادَ، وَعَــادَ، فَأَفضَلَ

وَعَلَى آلِهِ الشُّرَفَاءِ، وأصحَابِهِ الفقَهَاءِ، الأجِلَّاءِ، الذِينَ مِنهُم مَن قَالَ: «نَحنُ قَوْمٌ أعَزَّنَا اللهُ بالإسـلاَمِ، فَإن ابتَغينَا العِزَّةَ من غَيرِهِ أذَلَّنَا اللهُ».

وَالذينَ زَكَّى النَّبِيَ ﷺ مِنهم الشيخَينِ، بِقَوْلِهِ: «إِنْ يُطِعِ النَّاسُ أبَا بَكر، وَعُمَر يَرْشُدُوا».

أَمَّا بَعْــدُ: فَحَقِيقٌ عَلَى كُلِّ مؤمِنٍ ألا يَقــولَ عَلَى اللهِ - عَالِمِ الغَيبِ، والشِّـهَادَةِ - إِلَّا الحَــقَّ، وحَقِيقٌ عَليهِ أن يُخْلِصَ لله النيَّةَ في القَولِ، والعَمَلِ، عَالمِ السِّرِ، وأَخْفَى.

وحَقيقٌ عَلَيْــهِ أن يُنَاصِحَ أمَّتَهُ بِقَدرِ مَــا أنعَمَ اللهُ عَلَيهِ منَ العِلمِ والمَعرِفَةِ، مستَرشِــدًا هَدْيَ نَبِيهِ، القَائِلِ: «**بَلِّغُوا عنِّي وَلَو آيَة**». وبِفِعلِ الصَّالِحِينَ منَ السَّــلَفِ، بَادئًا بنَفسِهِ نَاصِحًا، ولأَهْلِه مُرْشِــدًا ومُقَوِّمًا. وحَقِيــقٌ عَليهِ ألا يُزَكِّي

نَفسَهُ، وأَن لا يَثِقَ بكَلامِهِ برَأي نَفسِهِ، فَإنهُ من استَقل برَأيهِ فَلَا يَتَدَاوى، ولا يزَكِّي أحَدًا عَلَى اللهِ، ظَانًّا بالجَمِيعِ خَيْرًا، ومُوكِلًا أمرَ السرَائِرِ إلى اللهِ، عَلَّام الغُيُوب، وأن يدَعَ قَول الزُّورِ، والعَمَلَ بهِ، والغيبَةَ والنَّمِيمَةَ، وأَنْ يَلتَزِمَ بتَوجيهِ رَبِّه لَهُ عِنـــدَ نُصحِهِ غَيرَهُ، حينَ قَالُ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥].

فَيَكُونُ مِمَّن أرَادَ اللهُ بهِ خَيرًا، فَفَقَّهَهُ في الدينِ، فَعَلِم، وعَلَّمَ. وَصَدقَ، وَصَدَّق، يَسلَمُ من الندَمِ عندَ فَوَاتِ الأَوَانِ عَلَى نَحوِ ما قَالَ الشَّاعِرُ:

أَلَا كُلُّ نَفْسٍ لا تُسَدِّدُ نَادِمَةٌ.

هَـــذَا، فَقَد أَرَدتُ هُنَا جَمعَ بَعضِ مَسَـــائلَ مُختَلفَةٍ من أَقْوَالٍ وأَفْعَالٍ، شَـــرْعيَّةٍ واجتِمَاعيَّةٍ، في الأَخْلاَقِ والقِيَمِ، والمُـــروءَةِ للمُذَاكَـــرَةِ والتَّذكيرِ، عايَشْـــتُ بَعْضَها مَعَ مَنْ

عَرَفتُ، ومِمَّا سَــمِعْتُ، أو قَرَأْتُ وشَــاهَدْتُ عَلَى أَرْضِ الوَاقِعِ، أَحْدَاثًا تتفَاعَلُ عَلَى أَكْثَرِ منْ صَعِيدٍ.

وتحَرِّيًا مِنِّي لطَلَبِ الخَيريَّــةِ الَّتِي جَاءَ ذِكرُهَا في قَولِهِ تَعَالَــى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

تَتَبَّعتُ فِيهَا أَنْمَاطًــا مُخْتَلِفَةً مِن الأَخْلَاق، والعَادَاتِ، والمُعتَقَــداتِ، يَغلْبُ عَلَــى مُعظَمِهَا مَا هُــو غَيْرُ مأْلُوفٍ، فــي المُجتَمَعــاتِ المُسْــلِمَةِ، المُحَافِظَةِ، بَل قَــد يَكُونُ بَعضُهَا مُنَاقِضًــا لِثَوَابِتِ الدِّينِ أحْيَاناً كَثِيــرَةً، بِتَأثِير قَوِيٍّ، ومُرَكز مِــنْ أَدْعِيَاء الحَضَارَات الأُخْرَى غَيْرَ الإِسْــلامِيَّةِ، مِنَ المُسْــتَعْمِرِينَ، الذِينَ حَرِصُوا عَلَى غَرسِــهَا فِي عُقولِ أَكْثَرِ أَبْنَاء الشُّعوب المُســلِمَةِ، التِي وقَعَتْ أَوطَانُها تَحْتَ سَيْطَرتِهِم المُبَاشِرة، في مُحَاوَلة مِنهُم إِيجَاد أَجيَالٍ مُسَالِمةٍ لَهُم، مَبهُــورةٍ بزُخْــرفِ حَضَارَتِهِم المُجَوَّفَــةِ، وتُحَاكِي ثَقَافَاتِهِم المَادِيَّةَ، الإِبَاحِيَّة، ليَكونُوا لَهُم أذْنابًا، ودُعَاة.!!

فَعِندَمَا حَاوَلْتُ طَرْحَ أفْكَارِي، للجُنُوحِ إلى الصَّوابِ عَنِ الخَطَأ قُمْتُ بالرَّبْطِ بَيْنَهَا فِي وِحْدَةٍ مَوضُوعِيَّةٍ، فَلَجَأْتُ عِنْدَ جَمْعِهَا، وتَقْوِيمِهَا إِلَى مَصَادِرِ التَّشْرِيعِ الإِسْلَامِي المُوَثَّقَةِ، اسْتِنْبَاطًا، واسْتِئْنَاسًا، بأَدِلَّةٍ لا يُنْكِرُهَا جُلُّ عُلَمَاءِ المُسْلِمينَ اليَوْمَ، وكانَ لَهَا قَبُولٌ عِنْدَ أَقْرَانِهِم، ومَنْ سَبَقَهُم، يَحْيَونَهُ بشُعُورٍ مُشْتَرَكٍ مِنَ التَّقْوَى، والوَرَعِ، يُذْكِيهِ الشُّعورُ بالوَجَلِ مِنَ الخَطَرِ الدَّاهِمِ المُحتَمَلِ الَّذِي يُهَدِّدُ أَجْيَالَ المُسْلِمِينَ القَادِمَةَ فِي أَخْلاقِهِم، ومُعْتَقَداتِهم، إنِ اسْتَمَرَّ عَلى انْدِفَاعِهِ، لِتَقْوِيضِ أُسُسِ دِينِهم، والتَّشْكِيكِ فِيهِ، وإِبْعَادِهِم عَنْهُ، أَوْ جَعْلِهِمُ يَسْتَخِفُّونَ بأَكْثَرِ تَعَالِيمِهِ، وعُلَمَائِهِ، خَاصَّةً مِنْهُم مَن نَشَأَ في وَقْتِ الحَيْرَةِ، والضَّيَاعِ، والاسْتِهْدافِ المُكَثَّفِ مِنَ المُنَاوِئِينَ لثَقَافَاتِ الإِسْلامِ، وتَعَالِيمِهِ، امتدادًا لِمَن سَبَقَهُم من المُنَاوِئِينَ لَهُ، مُنْذُ فَجْرِ الرِّسَالَةِ، وضُحَاهَا.

المُقَدِّمَةُ

المُنَاوِئُونَ للإِسْــلاَمِ اليَومَ أَشَــدُّ عَدَاءً لَهُ؛ لشُعُورِهِم بِقُرْبِ اكْتِسَــاحِهِ حَضَارَتَهُم المَادِّيَّــةَ، المُفَرَّغَةَ مِنَ القِيَمِ، والأَخْــلاقِ، الَّتِــي قَــامَ أَكثَرُهَا عَلَــى النُّظُــمِ الوَضْعيَّةِ، والنَّظَرِيَّــاتِ الفَرَضِيَّــةِ، فَحَرِصُــوا عَلَى أَنْ يَكُونُــوا أَكْثَرَ عَتَادًا، واسْتِعْدادًا، وقُوَّةً مَادِيَّةً، وأَنْ يَتَسَلَّحُوا بِسِلاحِ العِلْمِ المَــادِيِّ، والمَعْرِفَــةِ المَبْتُورَةِ، بَعْدَ أَنْ فَصَلــوا الدِّينَ عَن الدَّولَةِ، خِدْمَةً لأَهْوَائِهــم، ومَصَالِحِهِمِ الدُّنيَويَّةِ، وتَخَلُّصًا مِنْ قُيُودِ، وضَوَابِطِ الأَخْلاَقِ، والمُــرُوءَاتِ، فَهُم كَمَا قَالَ العَلِيمُ الخَبِيــرُ : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٧].

وقَد جَرَّبَ أَسْــلاَفُهُم فِي المَاضِي المُواجَهَةَ المُبَاشِرَةِ فِي الحُروبِ مَعَ المُسلِمِينَ، بِمَا عُرِفَ بالحُروبِ الصَّلِيبيَّةِ، فِي مُحَاولَةٍ مِنْهُم إِخرَاجَهُم عَنْ دِينِهِمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا، فبَاءَتْ نَوايَاهُم بالفَشَلِ، ورَدَّ اللهُ كيدَهُم فِي نُحُورِهِم.

ثُمَّ لَجَؤُوا إِلَى فِعْلِ الدَّسَائِسِ، والخِدَاعِ، والمَكْرِ، عِنْدَمَا أدْرَكَ أُولو النُّهَى مِنْهُم أَنَّ سِرَّ قُوَّةِ المُسْلِمينَ يَكْمُنُ في تَمَسُّكِ غَالِبِيَّتِهِم بِعَقِيدَتِهِم الإِسْلامِيَّةِ المُسْتَمَدَّةُ مِنَ القُرْآنِ، فَعَمَدُوا إِلَى مُحَاوَلَةِ إِضْعَافِ ذَلِكَ الانْتِمَاءِ، والتَّشْكِيكِ فِي مُلَاءَمَةِ مَبَادِئِهِ، وتَشْرِيعَاتِهِ للتَّحَضُّرِ، والرُّقِيِّ، والحَيَاةِ الكَرِيمَةِ، الَّتِي يَدَّعُونَهَا!!.

ولِحِكْمَةٍ أَرَادَهَا البَارِي، سُبْحَانَهُ، تَمَكَّنوا مِنْ مَعْرِفَةِ أَسْرَارِ التَّقْنِيَةِ الحَدِيثَةِ أَكثَرَ مِمَّا عَرفَهُ المُسْلِمُونَ، وسَبَقُوهُم فِي أَكثَرِ مَضَامِيرِهَا دِقَّةً، فَوَظَّفُوا بَعْضَها فِي وَسَائِلِ الدَّمَارِ، وبَعْضَها الآخَرَ فِي وَسَائِلِ الإِفْسَادِ، عَنْ طَرِيقِ الاتِّصَالاتِ المَرْئِيَّةِ، والمَسْموعَةِ، بأَقمَارٍ صَنَعُوهَا لَهَا طَوَّافَةً فِي الآفَاقِ، يَبُثُّونَ بِوَاسِطَتِهَا مِنْ جُمْلَةِ مَا يَبُثُّونَ، أَفْكَارَهُم الإِبَاحِيَّةِ، ومَبَادِئَهُم المُنْحَرِفَةَ عَنْ الفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ؛ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ الأَخْلَاقَ المُنْضَبِطَةَ، قِوَامُ العِزَّةِ، وَالرِّفْعَةِ لِلشُّعُوبِ، وصِمَامُ كَرَامَتِهَا، وبَقَائِهَا كَمَا زَعَمَ القَائِلُ:

إِنَّمَا الأُمَـمُ الأَخْـــلَاقُ مَا بَقِيَتْ

فَإِنْ هُمُ ذَهَبَـــتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا

فَهُم يَرَوْنَ أَنَّ «الفَمَ تَوءَمُ العَوْرَةِ» فِي التَّعْبِيرِ، والتَّبْلِيغِ، والإِفْصَاحِ، عِنْدَمَا قَلَّلُوا مِنْ شَأْنِ الحَيَاءِ، وَالخَشْيَةِ، وكَسَروا حَاجِزَ الخَوْفِ فِي كَثِير من أَقْوَالِهِم، وتصرُّفَاتِهِم، مُجَاهِرِين بالفَوَاحِشِ، غَيْرَ مكْتَرِثِينَ بالعَوَاقِبِ.

ومِنَ المُسَـــلَّمِ بِهِ عِندَ العقَلاءِ أَنَّ العَورَةَ تَستَلزِمِ السِّترَ، فَهِيَ كل ما يَسُوءُ السَّوِيُّ النَّظَرَ إِلَيه، بَيْنَمَا هِيَ عِندَ الفَاسِقِينَ المجِاهِرِينَ، مِمَّن لا خَلَاقَ لَهُم، الَّذِينَ لا يُبَالون بِمَنْ قَالَ، أو بِمَا قِيلَ عَنهُم، لَذَّةٌ تُذكِي نَزعَةَ الشُّذُوذِ فِيهِم، وجَلبِ ما يَتَوهمُونَهُ مُمتِعًا، فيَقُولـــونَ بأَفواهِهِم، ويَأتونَ بأفعَالِهِم ما يَفْضَحون بِهِ عَوراتِهِم، فَيَسُوقُهُم ما يقُولُونَهُ مِن فُحْش إلى مُســـتَنْقَعِ الرَّذيلَة عِندَ التَّطبِيق العَمَلِي، وفي مَعيَّتِهِم سُفَهَاءُ الأُمَّةِ المُسْلِمَةِ المُغَرَّرِ بِهِمْ.!!

يَبُثُّــونَ أَحطَّ أَنمَاط عَاداتِهِــم، وتَقَاليدِهِم المَاجِنَةِ في شَكلِ مُسلسَــلَاتٍ، وأَفلاَمٍ تنضَحُ بالإباحِيَّةِ، مُتخِذِينَ من أَجْسَــادِ نسَــائِهِم العَارِيَةِ، وشِبهِ العَارِيَةِ وسِــيلَةً لإيصَالِ أفكَارِهِم المنحَرِفَةِ للبسَطَاءِ، لوَصفِهَا غَرِيزِيًّا، لغَةً مَفهومَةً لكلِّ الشُّعوب، ويسْــتَعِينُون بَمُذِيعِينَ، فَقَدَ مُعظَمُهُم الغَيرَةَ عَلَى مَحَارِمِهِ، وعَلَى نسَاءٍ «كَاســيَاتٍ، عَارِيَاتٍ، مَائلَاتٍ، مميــلَاتٍ». قد طَرَحْنَ عَنهُنَّ بَعيدًا كُلَّ مَا لَهُ صلَةبالأَخْلَاق الحَميدَةِ، والحَيَاءُ.!!

فَالمُنَاوِئونَ قَد اســتَنْفَدوا أَكْثَرَ أوقَاتِهِم في الشَّرِ، وَلَم نَستَفِدْ نَحنُ المُسلِمينَ من بَعْضِ أوقَاتِنَا بِأَيِّ نسْبَةٍ فِي الإِبْدَاعِ، بِمَا يَعُودُ عَلَينَــا بالمَنَعَةِ، والقُوَّةِ، والعِــزَّةِ، والكَرَامَةِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ كِتَابَنَا العَزِيزَ حَثَّ عَلَى الِاســتِعْدَاد، والإِعدَادِ في اتخَاذِ القُوَّة، بجَميعِ وســائِلهَا المتَعَدِّدَة، وفِي مَجَالاتٍ مختَلِفَــةٍ فِي الحَيَــاةِ، لإِرهَابِ أَعدَاءِ دينِنَا مِــن أَن يَجرؤُوا عَلَينَا، وأَن نَتَقَوَّى برُسُــوخِ إيمانِنَا برَبِّنَا، ثُــمَّ بقُوَّتنَا الذَّاتيَّة، ماديًّا ومَعْنَويًّا، للتَّصَدِّي لَهُم عَــن تَنفيذِ مخطَّطَاتِهِم الرَّاميَةِ

لإضْعَافِنَا فِي أكثَرِ مجَـالَاتِ الحَيَاةِ الكَرِيمَةِ، وقَطْعِ الطَّرِيق عليهِم لتَفرِيق كَلِمَتِنَا، وَقَد وَعَدَنا اللهُ بالنَّصر، والتَّمكِينِ إنْ نحنُ نَصرَنَا دينَهُ بإقَامَةِ شَرَائعِهِ فِي الأَرضِ بمَا يُرْضِيهِ تَعَالَى، ولَكنَّ أَكثرَنَا ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

هَـذَا، فَإِنَّ مـا كَتَبتُهُ هُنَا إنمَـا أرَدت به النَّقْـدَ البَريء لأَلوَان منَ فُضُـول النَّاسِ في الحَيَـاةِ، وَمَراحِلِهَا المُنَوَّعَةِ، في الأَخلاَق، والسُّـلُوكِ، لاَ إِلَى أَفـرَادِ بعَينِهِم، مَا لَم يَكن أَحَدُهُم، مِنْ دُونِ ذِكرِ الإسـمِ، أَتَى فِعْلاً، أو قَالَ قَولًا شَاذًّا عَن بَقيةِ أَفرَادِ المجتَمَعِ، فَوَجَبَ التَّحذِيرُ من تَقلِيدِهِ، بَل أَخذ العِبرَةِ من النَّتَائِجِ، فَقَد قِيلَ: اللهُ يحُبُّ البَصَرَ النَّافِذَ عِندَ ورودِ الشُّبُهَاتِ، ويُحِبُّ العَقل الكَامِلَ عندَ ورودِ الشهَوَاتِ».

وَإِنِّي أَتَفَهَّمُ قَولَ من قَالَ:

قُل لِمَنْ يَدَّعـي فِي العِلْمِ مَعرِفَةً

علِمتَ شَيئًا وغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ

ومَا قَالَهُ الإمَامُ الشَّافِعِي في نَصيحَتِهِ:

إذَا رُمتَ أن تَحيَا سَلِيمًا منَ الرَّدَى
ودِينُكَ مَوْفُــورٌ وعِرْضُكَ صَيِّنُ

فَلَا يَنْطِقَنَّ مِنْكَ اللِّسَــانُ بسَــوءَةٍ
فَكُلُّكَ سَــوءَاتٍ وللِنَّاسِ أَلسُــنُ

هذا، وقَدْ تَعَمَّدْتُ إِغْفَالَ ذِكْــرِ المَصَادِرَ الَّتِي رَجَعْت إِلَيْهَا، وقَصَدْت تجْرِيدَ الأحَادِيثَ، والآثَارَ مِنْ أَسَــانِيدِهَا، وأغْفَلْتُ عِنْدَ الأَشْــعَارِ، والأَقْوَالِ أَسْــمَاءَ قَائِلِيهَا، أسْــوَة ببَعْضِ المتَقَدِمِينَ مِمَّنْ أَلَّــف؛ ليَأْتيَ مِنْ بَعْدِي مَنْ يُحَقِّقُ، ويوَثِّقُ، ويَنتَقِدُ.

واللهُ المُسْتَعَانُ القَائِلُ: ﴿... نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

المواراة وأدواتها

ومِمَّا أرَدْتُهُ مــن تَكْرارِ كَلِمَة (المُوارَاةِ) ومُشْــتَقَّاتِها، الإِشَــارَةُ إِلَى اتِّخَاذِ مَدْلولَهَا العَــامَّ أدَاةً تَرْبِط بَيْنَ ما نَرَاهُ، وما لَا نَرَاهُ عِنْدَ الآخَرِينَ، مِمَّــا تَظهَرُ آثَارُهُ لاحِقًا، ولِبَيَانِ قِيمَةِ الوَقْتِ بالنِّسْبَةِ إِلَى مَن يُحْسنُ تَطْبِيقَ قوَاعِدِهَا ضِمْنَ مَنْهَجِــهِ في العَمَلِ، فِهــيَ منَ الطُّرق الفَعَّالَةِ للاســتفَادَة مِنْ أَكثَرِ سَــاعَاتِ وقْتِهِ في الواقِعِ، بما يَعُودُ عَلَيهِ، وَأَفرادِ مُجتَمَعــهِ بالفَائــدَة، وجعْلَهَــا ضَابِطًا لتَحْرِيــر كَثِير من الفعَالِيَّاتِ، والقَراراتِ، التي تَصــدُرُ عَنهُ، أو تَردُ إِلَيهِ في وَقْتٍ قَصيرٍ نسبيًّا، وقَد تَجعَلُ من حَقيقَةِ حَالِهِ لُغْزًا محَيِّرًا لشانِئِيهِ، يحتفِظ بِأســرارِ مهنتِهِ بَعيدًا عَنهُم؛ كَيْ لايُفسِدوا عَلَيهِ حَيَاتَــهُ العَمَليةِ، فَقَدْ قيلَ: «إذا أرَدْتَ أَن تَسْــلَمَ من حَاسِد فَغُمَّ عَلَيهِ أمْرَكَ».

ولكِنْ يَبْقَى شَـــيءٌ مُؤَكَّدٌ مَفَـــادُهُ: أَنَّ الخَلوَةَ لَيْسَ فيهَا مَلَاذٌ عنْ عَيْنِ الرَّقِيبِ، تَعَالَى، وتَقَدَّسَ، فَليَتَّقِ الإنسَانُ رَبَّهُ فِي كُلِّ ما يَأتِي، أوْ يَدَعُ.

وأَنْ يَكُونَ شِـــعَارُ (المُتَوَارِي): تَـــرَى أَثَرِي، ولَا تَرَى عَيْنِي بالضَّرُورَةِ.

تَوْضِيحُ مَعْنَى (المُوَارَاةِ)

و(المُواراةُ) و(التَّوْريَةُ) فِي اللُّغَةِ تَأتِي بِمَعْنَى: السِّتْرِ، يُقَالُ: (وَارَاهُ) (مُواراةً) إذَا سَتَرَهُ. و(تَوارَى) هُوَ، إذَا استَخْفَى، واسْتَتَرَ، عَلَى نَحْو ما قَالَ الشَّاعِرُ الجَاهِلِيِّ:

أَغُضُّ طَرْفِيَ إنْ بَدَتْ لِي جَارَتِي
حَتَّى يُوارِي جَارَتِي مَأوَاهَا

وَ(وَرَّيْتَ) الأَمْرَ، إذَا سَتَرتَهُ، وأَظْهَرتَ غيْرَهُ، كَقَولِ الخَلِيلِ، عَلَيْهِ السَّلامُ للنَّمْرُودِ الظَّالِمِ، حِينَ سَأَلَهُ عَنْ رفِيقَتِهِ،: إِنَّهَا أُخْتي، وهي زَوجُهُ.

و(وَرَّيْتُ) الشَّيءَ، وجَعَلْتُهُ ورَائِي حَيْثُ لَا يَظْهرُ، مَأخُوذٌ مِنْ ورَاءِ الإِنسَان.

و(التَّورِيَةُ) للشَّيءِ أن تَسْتُرَ الَّذي تُريدُهُ، وتُظْهِرَ غَيْرَهُ، أُخِذَتْ مِن وَرَاءِ الشَّيءِ كَأَنَّكَ تَرَكْتَ الشَّيءَ الَّذي يَلِيكَ، وتَجاوَزْتَ إلى ما ورَاءَه، وكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، لا يُريدُ غَزْوةً إلّا (وَرَّى) بغيرها، سوى غَزْوَةِ تَبُوكَ.

ضَوَابِطُ تَحْقِيقِ الفَائِدَةِ مِنْ (المُوَارَاةِ)

و(المُواراةُ) لا تَكونُ ذَاتُ تَأْثِيرٍ مُفِيدٍ للمُسْلِمِ الصَّالِحِ السَّوِيِّ، الجَادِّ، حتَّى تَتَشَكَّلَ مِنْ قَنَاعَاتِهِ الذَّاتيَّةِ، بَعِيدًا عَن مُحَاكَاةِ الإِمَّعَةِ، أَو صَاحِبِ النَّوَايَا السَّيِّئَةِ في التَّحَسُّسِ، والتَّرَبُّصِ بالآخَرِينَ لإيقَاعِ الأَذَى بِهِم، أو احْتِقَارٍ، أو تَعَالٍ، وتَكَبُّرٍ عَلَى فِئَةٍ مِنَ النَّاس كَرَاهَةَ مُخَالَطَتِهِم مِمَّنْ يَرَاهُمْ دُونَهُ فِي المَكَانَةِ، كَمَا قَالَ الكُفَّارُ لِنُوح، وغَيْرِهِ مِنَ الأَنْبِيَاءِ عَلَيهِمُ السَّلامُ: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١].

أَو أَنْ يتَّخِذَهَا المُمَاطِلُ مَنْفَذًا للهَرَبِ مِن تَحَمُّلِ المَسْؤُولِيَّةِ بِشِقَّيْهَا، وَأَدَاءِ حُقُوقِ الآخَرِينَ عَلَيْهِ، بَلْ هِيَ فِطْنَةٌ، وَبُعْدَ نَظَرٍ، ودُبْلُومَاسِيَّةٌ مِنَ (المُتَوَارِي) لِيُعْطِيَ عَقْلَهُ الفُرْصَةَ الكَافِيَةَ لِلتَفْكِيرِ فِي المَسْأَلَةِ مِنْ كُلِّ جَوَانِبِها، فـ (المُوَارَاةُ) بِلَا رِيَاء، هَيْبَةٌ بِلَا جَفَاءٍ.

و(المُوَارَاةُ) لَيْسَتْ دَائِمًا دَلِيلَ جُبْنٍ، فَلَيْسَ كُلُّ (مُتَوَارٍ) جَبَانـاً، وَلَكِنْ كُلُّ جَبَانٍ قَدْ (يَتَوَارَى) إِذَا تَوَهَّمَ خَطَرًا، أو

ضَرَرًا يَلْحَقُ بِهِ، في مِثْلِ تِلْكَ الأَحْوَالِ غَيرِ اللَّائِقَةِ بالمُسْلِمِ الصَّالِحِ، وما يُشابِهُهَا.

وتُصْبِحُ (المُوَارَاةُ) اضْطِرابًا نَفْسِيًّا، وانْحِرَافًا سُلوكِيًّا، يَتَطَلَّبُ عِلَاجًا للنَّفْسِ، وتقْوِيمًا للأَخلَاق، والسُّلُوكِ، إذا خَرَجَتْ عن مفْهُومِهَا القَوِيم من الإنْسَانِ السَّلِيم، كَمَن (يَتَوَارَى) خَجَلًا، أو يَأْسًا، أو وسْواسًا خَوْفَ النَجَاسَةِ مَثَلًا، أو العَدْوَى من المَرَضِ عِنْدَ مُخالَطَةِ غَيْرِهِ، والمُحبَطُون بَعْد فَشَلٍ، أو سُوءِ ظَنٍّ بأَنْفُسِهِم، وبالآخَرِين، واليَائِسُونَ، المكْتَئِبون، والزَّمِنُون مِنْ مَرَضٍ عُضَالٍ، أو عَاهَةٍ.

فـ(المُوارَاةُ) قد تُكسِب المَسْؤُول السَّوِيَّ هيبة، وَخَشْيَةً عِندَ المُفْسِدِينَ، تَجعَلهُم يَتَرَدَّدُونَ طَوِيلًا قَبْلَ تَنفِيذ خطَطِهِم للإفسَادِ، وتُكْسِبُهُ وقتًا كافيًا للتَّدَبُّر في الأُمُورِ، ونَوْعًا من الحِنْكَةِ في التَّمحِيصِ، والدِّرَايَةِ، فِيمَا يَتَعَلَّقُ بمَسلَكِهِ مَعَ غَيرِهِ، وبمُعَايَشَتِهِ مَعَ نَفْسِهِ إيجَابًا، وتَحَرِّيهِ الدِّقَة فيمَا يَصدُرُ عَنهُ من أَقْوَالٍ، وأَفْعَالٍ، وَفيمَا يَرِدُ عَلَيهِ منهُمَا، يَقُولُ أَحَدُ العُلَمَاءِ الفُضَلاءِ مِنَ السَّلَفِ:

إذَا خَلَوْتُ صَفَا ذِهْنِي وعَارَضَنِي

خَوَاطِرُ كَطِــرَاز البَرْق في الظُّلَمِ

وقَالَ الخَطَّابِي - وهُوَ من عُلَمَاءِ القَرْنِ الرَّابِعِ الهِجْرِي - فِي كتَابِه أعلَامُ الحَديثِ: «والخَلْوَةُ يَكُونُ مَعَهَا فَرَاغُ القَلْبِ، وهيَ مُعينَةٌ على الفِكرِ، وقاطِعَةٌ لدَوَاعِي الشُّغْلِ». أ. هـ.

فالقَرارُ المفَاجِئُ المتَسَرِّعُ، دَافِعُهُ التوَتُّر، بسَبَبِ مَا عَلَى صَاحِبِــهِ مِنْ ضُغُوطٍ، لا يَخْلُو منْ إيقَــاعِ عَمَلِ مُصْدرِهِ، أو قَوْلِهِ في هَنَاتٍ عِنْدَ صِيَاغَةِ بَعْضِ جَوانبِهِ، أو يُسَبِّبُ ازْدِوَاجِيَّة مُخِلَّةً عِنْدَ التَّنفِيذِ، كالتَّشْــخِيصِ المُرتَجَل منْ المُعَالِجِ غَيْرِ المُتَأَنِّي، للمَرِيضِ، يُؤَدِّي إلى خَطَأ فِي وَصْفِ العِلاجِ غَالِبًا، أو كالتَحَيُّزِ لرَأيٍ ضِدَّ آخَرَ، هَوَى، وشَهْوَةً، مِمَّا يَنعَكِسُ عَلَى نَتِيجَةِ الفِعْل سَلْبًا، ويُسَهِّل الطَّعْنَ فِي الحُكْم لاحِقاً.

المَحْسُوبِيَّةُ تَتَضَاءَلُ مَعَ (المُوارَاةِ)

فالجَميعُ عِنْدَ التَّحكِيمِ لا يَتَســاوونَ في قَبولِ النتِيجَةِ، وحَتْمًا سَــيَخْتَلِفُون فِــي رُدودِ أفْعَالِهــم تُجَاهَهَا، وأحَقيَّةِ صَاحِبهَا؛ لأَنَّ الحَقَّ كُلٌّ لا يَتَجزَّأُ، ولأَنَّ «الحَقَّ ثقِيلٌ، فَمَن قَصُــرَ عَنْهُ عَجزَ، ومن جَــاوَزَهُ ظَلَمَ، ومَن انْتَهَــى إلَيْهِ فَقَدْ اكْتَفَى». وقَلِيلٌ مَا هُمُ.!!

وقد قِيلَ: «لا تَمْنَعْكَ رِعَايَةُ الحَقِّ لإِنسَــان، من إِقَامَةِ الحَقِّ عَلَيهِ».

أرَادَ بالأَوَّلِ: حَقَّ القَرَابَةِ، أو الصدَّاقَةِ الخَاصَّةِ بَيْنَهُمَا، بِما يَحبُوهُ الرجُــلُ صَاحِبَهُ، وأَهلَ قَرابَتِــهِ، وبالثانِي: حَقَّ المُســلِمينَ عَامَّةً في إقَامَــةِ حُدودِ اللهِ فِــي المُتَجاوِزِينَ، عَلَى حَدٍّ سَــوَاءٍ، من دُونِ تَمَايُزٍ، أو تَحَيُّــزٍ لأَحَدِهِم عَلَى الآخَرِ، حِفَاظًا عَلَى قِيَــم المُجْتَمَعِ، وحَيَاةِ أفرَادِهِ الكَريمَةِ،

قال تعالـــى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩].

فَالأَمنُ، والحَيَاةُ الكَرِيمَـــةُ يتَحَقَّقَانِ للجَميعِ عِندَ قَطْعِ العُضْوِ الفَاسِدِ، ورَدْعِ المُتَعَدِّي، وأصْحَابِ النوَايَا السَّيئَةِ، المُبَيَّتَةِ، وَيَحُدُّ من تَأْثيرِ إفْسَادِه.

جَاءَ في الأَثَـــرِ: «لا تَفنَى أُمَّتِي حَتَّى يَظهَرَ فِيهَا التَّمَايُزُ: عَصَبِيَّةٌ يُحْدِثُهَا النَّاسُ بَعْدِي فِي الإسْلامِ». وهُمْ في الحَيَاةِ البَرْزَخِيَّةِ غَيْرُ مُتَمَيِّزِينَ.

وقَدْ قِيلَ شِعْراً:

لَو بُعثِـــرَ للخَلقِ أَطبَـــاقُ الثَّرَى
لَـــم يُعـــرَفِ المَوْلَى مِـــنَ العَبدِ

وَأَمَّا فِي الآخِرَةِ فَهُم مُتَسَـــاوون عِندَ اللهِ فِي العَرضِ، وَالسُّؤالِ، والنَّظَرِ فِي المظَالِم، وإحقَاقِ الحَقِّ.

مِن أَسْبَابِ الجُنُوحِ عَنِ الصَّوَابِ

ويَجِبُ، عَدلاً، وإِنصَافًا، أَلَّا يَكُونَ للمُحَابَاةِ، وللمَحسُوبِيَّةِ دَورٌ مَؤثِّرٌ فِيمَا يَصدُرُ عَن صَاحِبِ القَرَارِ فِيمَا يَتعلَّقُ بالمَصلَحَةِ العَامَّةِ، الأَمرُ الذِي يَتحَقَّقُ، غَالبًا، في مُحِيطِ (المُوَارَاةِ) إذ لَيسَ عِندَ تطبيقِ التَّشريعِ مُحَابَاةٌ، ولَا فِي الأَمْرِ بالمَعْروفِ، والنَّهْيِ عَن المُنْكَرِ مُحَابَاةٌ، ولَا أَنْ يُغَضَّ عَن ظَالِمٍ رَهبَةً منهُ، أو مُحَابَاةً له، جَاءَ في الحَديثِ: «**إِيَّاكُمْ والإقرَادَ**» قَالُوا: يا رَسُولَ اللهِ، ومَا الإقرَادُ؟. قَالَ: «**الرَّجُلُ يَكُونُ منكُم أَميرًا، أو عَاملًا، فَيَأْتِيهِ المِسْكينُ، والأَرمَلَةُ، فَيَقُولُ لَهُم: مَكَانَكُم حَتَّى أنظُرَ في حَوائِجِكُم، ويَأْتِيهِ الشرِيفُ الغَنِيُّ فَيُدنيهِ، ويَقُولُ: عَجِّلوا قَضَاءَ حَاجَتِهِ، وَيَترُكُ الآخَرِينَ مُقرَّدِينَ**». أي: سُكوتًا أَذِلاءَ.

ويَكثُرُ مِثلُ هَذَا التَّصَرُفِ عِندَ تَوسِيدِ الأَمْرِ إلى غَيْرِ أَهلِهِ، «**فَإِنَّ مَنْ وَلَّى ذَا قَرابَةٍ مُحَابَاةً، وهو يَجِدُ خَيْرًا مِنْهُ، لَمْ يَجِدْ رائِحَةَ الجَنَّةِ**». كما جَاءَ في الحَديثِ.

فَــلَا يَكونُ عَمَلُهُ حينَئذٍ احتسَــابًا، أو تَغلِيبًا للمَصلَحَةِ العَامَّةِ، بَل خَرَجَ عَلَى سَبِيلِ المُكَافَأة الخَاصَّةِ، والمُحَابَاةِ، وَقَهرِ الضعِيفِ، وَظُلمِهِ.

والمُتَتَبِّع لمَا وَرَدَ فِي القُرآنِ الكَريمِ مِن آياتِ العِتَابِ، والوَعِيدِ، لا يَشــتَمُّ أَدنَى رَائحَةٍ للمُحابَــاةِ فيهَا لأَحَدٍ، وقَد كانَ نَــوعٌ مِنهَا مُوَجَّهًــا لبَعضِ الأنبيَاءِ، والرُّسُــلِ، عَلَيهِمُ السَّــلامُ. فَنُوحٌ، ولُوطٌ، عَلَيهما السَّلامُ، نَبِيَّان، لَم يُغنيَا عَن زوجَتَيهِمَا منَ اللهِ شــيئًا عِندمَا اســتحقَّا النَّارَ، قَالَ الحَقُّ العدلُ: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ [التحريم: ١٠].

ومَكَانَتُهُ مُحَمَّــد ﷺ، الكَبيرَة عِندَ مَن بَعَثَهُ، لَم تُشَــكِّل عَائقًا دُونَ تَحذيرِهِ عُقوبَةَ القَولِ عَلَى اللهِ بغَيرِ عِلم، حِين قَالَ الله فِي حَقهِ: ﴿ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٤ – ٤٧].

وَعَاتَبَهُ رَبُّهُ على مَوقِفِهِ مَعَ المُؤمِنِ الأَعمَى، الذِي جَاءَ يستَهدِيهِ، وقَدَّمَ عَلَيهِ في الاهتمَامِ، مُستَغنٍ منَ المُشرِكِينَ، طَمَعًا في إسلامِهِ، ومَن وراءَهُ، ورُكُونًا إلى قُوَّةِ إيمَانِ الأَوَّلِ.

وعَن إرسَاءِ قَواعِدِ العَدلِ في الكَونِ يَقولُ تَعَالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧- ٩]..

المَعنَى: - وهُو أعلَمُ - أنَّ كُلَّ أَمرٍ في الكَونِ قَائمٌ عَلَى العَدلِ، فَعَلَى الإنسَانِ إقَامَةُ العَدلِ في كلِّ ما يَأتِي من شُؤونِ حَيَاتِهِ الدُّنيَا، أو يَدَعُ، قَلبًا، وقَالَبًا، ونَهَاهُم عن التجَاوزِ، والمَيلِ، والظُّلمِ، مَع كُلِّ مَا من شَأنِهِ أَن يُوزَنَ بالقِسطِ للتَّوَصُّل إلَى الإنصَافِ، مَعَ الجَميعِ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

ومنَ السُّـــنةِ العَطرَةِ، المَيدَانُ العَمَلِـــي لإحقَاق الحَقِّ والعَدلِ هَذَا المِثَـــالُ: هَمَّ قُريشٌ أمرَ المَخزُومِيَّةِ السَّـــارِقَةِ، فَأوعَزوا لحِبِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَن يَتوسَّطَ عِندَهُ لإسقَاطِ حَدِّ السَّرقَةِ عَنهَا، ممَّا أغضَبَ الرَّسولَ ﷺ، فَخَطَبَ فِيهِم قَائلاً:

«إِنَّمَا أهلَـــكَ الذِينَ قَبلَكُم أَنَّهُم كَانوا إذَا سَـــرَقَ فِيهِم الشَّـــريفُ تَركُوهُ، وإذَا سَـــرَق فِيهِم الضَّعِيـــفُ أَقَامُوا عَلَيهِ الحَدَّ، وأَيْمُ الله لَو أَنَّ فَاطِمَةَ بِنتَ مُحَمَّدٍ سَـــرَقتْ لقَطَعتُ يَدَها». بَعدَ أَن أَنَّبَ زَيدًا لِقَبُولِهِ التَّوسُّطَ في تَعَدِّي الحُدُودِ، بقَولِهِ: «أَتَشفَعُ في حَدّ من حُدُودِ اللهِ»؟!!

فأَيـــنَ ذَاكَ من مَوقِفِ أحَدهم اليَـــومَ، وَقَد حُمِّلَ أَمَانَةَ التربِيَـــةِ، والتَّعلِيمِ لأَبنَاءِ أُمَّتِهِ، عِندَمَا عَلِمَ مِن أَحَد طُلَّابِهِ أَنَّه ابنٌ لفُلاَنٍ صَديقِهِ، رَفَعَ مُعدَّلَهُ فِي التَّحصِيل العلمِي بَعدَ أَن كَانَ مُتَدَنِّيًا؟!

ولَيس آفَةٌ أَشَدَّ ضَررًا عَلى إحقَاق الحَقِّ بَيْنَ النَّاسِ مِنَ المُحَابَاةِ، والمُجَامَلَةِ، والمَحْسُـــوبيَّةِ، ثَالُوثِ الإعَاقَةِ أَمَامَ

إعْطَاءِ كل ذِي حَقّ حَقَّهُ، ويُشَــكِّلونَ حِمَايَةً لِمصَالِحَ ذَاتِيَّة، آنيَّة، لغَيرِ مُســتَحِق، دَافِعُهَا الأَنَانيَّةُ، والاســتِئثَارُ، والجَشَعُ، يَلفُّهَا الغُمُــوضُ، وتُحِيطُ بهَا الرِّيَبُ، فيَعمَــدُ هَذَا المُحَابِي المُتَطفِّل إلى كَثرَةِ التسويفِ، وَبَذلِ الوعُودِ الكاذبَةِ لأصحَابِ الحُقُوق المَشروعَةِ، مُضَيِّعًا لأوقَاتِهِم، ومُخَيِّبًا لطُمُوحَاتِهِم الفَقيــرَةِ، وجُهودِهِم الضَّعيفَــةِ للحَيَاةِ الكَريمَــةِ. ومَا كَثرةُ الوعُودِ إذَا صَاحبهَا تَبَاطُأ فِــي التَّنفيذِ، إلا نَوعٌ من الجَعجَعَةِ دُون أَن يُرَى طِحناً، وتَقولُ العَرَبُ فِي حكَمهَا: «فَضلُ القَولِ عَلَى الفِعلِ دَنَاءَةٌ، وفَضلُ الفِعلِ عَلَى القَولِ مَكرُمَةٌ».

وقَالَ أصــدَقُ القَائلينَ جَلَّ وعَــزَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢-٣].

وجَاءَ فِي الحَدِيثِ عِنْدَ أَحْمَدَ فِي مُسْــنَدِهِ: «**المُكْثِرونَ هُم الأَقَلُّونَ**».

أَيْ: الأَثْرِيَاءُ مُقِلُّونَ، نِسْبَةً إِلَى ثَرْوَتِهِم، فِي الإِنْفَاقِ مِنْ أَمْوَالِهِم فِي الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وسَائِرِ الطَّاعَاتِ تَقَرُّبًا إِلى اللهِ، والمَعْنَى يَنْسَحِبُ طَرْدًا عَلَى المُكْثِرِينَ مِن الكَلامِ، والجَدَلِ، والوعُودِ الكَاذِبَةِ، والمُقِلِّينَ مِنْ إِنْجَازاتِهِم المُفِيدَةِ، فَهُم الأَقَلُّ جَدَارَةً بمَنَاصِبِهِم، قَالَ الفَارُوقُ:

«مَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ، ومَنْ كَثُرَ سَقَطُهُ كَثُرَتْ ذُنُوبُهُ، ومَنْ كَثُرَتْ ذُنُوبُهُ كَانَت النَّارُ أَوْلَى بِهِ».

فـ(المُوارَاةُ) عَنْ قَنَاعَةٍ ذَاتيَّةٍ، دُونَ تَكَلُّفٍ، أَو نَوَايَا مُنْحَرِفَةٍ، أَو مَرَضٍ، سُلوكٌ سَليمٌ، يَجدُ المُسلِمُ، صَالِحُ الأَهْلِيَّةِ رَغْبَةً من نَفْسِهِ لِتَحْقِيقِهَا، فَهِيَ تُمَكِّنُهُ مِن الانْتِفَاعِ بأَكْثَرِ وَقْتِهِ، وتُجَنِّبُهُ المُجَامَلاتِ، والمَحْسُوبِيَّةَ المُقِيتَة، الَّتِي تُشَكِّلُ وَسِيلَةً لإِضَاعَةِ الوَقْتِ، وقَدْ يُخَالِطُهَا مِنَ المُجَامِلِ نَوْعٌ مِنَ التَّمَلُّقِ، والتَّزَلُّفِ، والرِّيَاءِ، والكَذِبِ.

آليَّةُ تُساعِدُ (المُتَوارِي) عَلَى تَنْفِيذِ أَعْمَالِهِ

و(المُتَوَارِي) إِنْ كَانَ مَسْــؤولًا، فَإِنَّهُ يَحتَاجُ إِلَى أُمُورٍ كَثِيرَةٍ، مَادِّيَّةً، ومَعْنَوِيَّةً مُسْتَقِلَّةً، لاَ تَحَكُّمَ لِغَيرِهِ عَلَيهَا، تُعِينُهُ عَلَى سُــرْعَةِ الإِنْجَازِ، بَدْءًا مِن تَأْمِينِ قُوتِ يوَمِهِ، ومَلْبسِهِ، ومَشْــربِهِ، ومسْــكنِهِ، ومُرورًا باخْتِيَار مُعاوِنِيــهِ، وانتهَاءً بالصَّلاحيَّــات التَّنفِيذيَّةِ التِي يحتَاجُ إِلَيهَا لِتَجسِــيدِ أفكَارِهِ عَمَليًّــا، بغَرَضِ تَعْمِيمِ الفَائِــدَةِ، وأَدَاءِ مَا عَلَيه مِن حقوقٍ، وواجِباتٍ تُجَاهَ الآخَرِينَ.

وقَبْلَ ذَلــكَ وبَعْدَهُ يَجِبُ عَلَيه أَن يَكــونَ صَادِقَ النِّيَّة فِي القَولِ والعَمَلِ مَعَ رَبِّهِ، ثُمَّ مَعَ نَفْسِــهِ، والآخَرِينَ، إرادَتُهُ مسْــتَقلَّةٌ، وقُدْرَتُهُ على التَّحَمُّل، والصَّبْر كَبيــرَةٌ، لاَ يَنْتَقِمُ لنَفْسِهِ مِنْ مُحِقٍّ، إِذَا خَالَفَهَا فِيمَا تُحِبُّ.

جَاءَ في الحَدِيثِ، عِنْدَ أَبِي دَاودَ في الأَدَبِ من سُــنَنِهِ مَرْفُوعًا:

«التُّؤَدَةُ، والاقتِصَادُ، والتَّثَبُّتُ، والصَّمْتُ، جُزْءٌ من سِتَّةٍ وعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ». وأغْلَبُ هَذِهِ الصِّفَاتِ تَجِدُهَا من أَبْرَزِ صِفَاتِ (المُتَوارِي) عَن دِرايَةٍ، وعِلْمٍ، بِخِلافِ الأدْعِياءِ.

وصَاحِبُ النَّوَايَا السَّيئَةِ يَخشَى صَاحِبَ السُّلطَةِ (المتَوَارِي) وَيَتَرَدَّد كَثيراً في تَنفيذِ خِطَطِهِ للإفسَادِ؛ لأَنَّه لا يَأمَنُ مَكرَهُ، طَالمَا أَنَّهُ يَجْهَل حَقِيقَتَهُ فِي الرَّدْعِ، والخُصُومَةِ، وقَد قِيلَ: «الإبهَامُ فَوقَ الإعلَامِ»، بِمَعنَى أَنَّ مَا كَانَ شَأنُهُ مبهَمًا يَفُوقُ خَشْيَةً، وخَوْفًا لَدَى الإنْسَانِ المُرْتَابِ مِمَّا هُوَ مُعْلَمٌ مَعْرُوفٌ عِنْدَهُ، فَالمَوْتُ تَوْقِيتُهُ (مُتَوَاريا) وعِلْمُهُ عِنْدَ اللهِ، ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤] لِيَستَمِرَّ تَوَقُّعُهُ لَهُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ، وحِينٍ، فَلَا يُجْدِي للتوبَةِ التسْوِيفُ حِينَئِذٍ.

و(المُتَوارِي) الصَّالِحُ يَنْأَى بنَفْسِهِ عَن مَواطِنِ الشُّبُهَاتِ، دَافِعُهُ إلَى ذَلِكَ تَقْوَى اللهِ أوَّلًا، ثم اعتزَالُهُ كُلَّ مَا

لَهُ عِلَاقَةٌ بِتِلْكَ المَواطِنِ، اسْتِبْراءً لِدِينِه، وَعِرضِهِ، ومُرُوءَتِهِ، فَهُوَ مِمَّنْ يَلتَمِسُ لنَفْسِهِ السَّلامَةَ مِن سُوءِ العَاقِبَةِ في كُلِّ حِينٍ، عَمَلًا بِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٨ – ١٩].

راجِيًا أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ وَصَفَهُم اللهُ بِقَوْلِهِ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

بِخِلافِ الَّذِي يَنْأَى بِجَانِبِهِ كِبْرًا، وبَطَرًا، ويَتَّبِعُ هَواهُ، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۚ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾ [البقرة: ٢٠٦].

وأَمَّا المُغَرَّبُونَ، المُغَيَّبُونَ فِي السُّجُونِ، فَإِنَّهُم (مُتَوارُونَ) عَن جُمْهُورِ أَفْرَادِ المُجْتَمَعِ قَصْرًا، عُقوبَةً لَهُم، عِنْدَما أَسَاؤوا مُعَاشَرَةَ الآخَرِينَ، فَأَلْحَقُوا الضَّرَرَ بِهِم،

وبأعْراضِهِم، وأَمْوالِهِم، فَكَانَ (تَوارِيهِم) ألقَسْــرِيُّ، قَطْعًا لاسْتِمْرَارِ أَذَاهُم، ولتَمْكِينِهِم وَهُمْ (مُتَوَارُونَ) مِن مُرَاجَعَةِ أَنْفُسِــهِم فِيمَا أَقْدَمُوا عَلَيهِ مِن تَرْويــعِ الآمِنِينَ، وَهُم أَدْرَى بِنَوايَاهُم: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤].

و(التَّوارِي) قَسْرًا لا يُطيقُهُ حَتَّى مَن جَرَّبَ (المُوَارَاةَ) بِاخْتِيَارٍ مِنْهُ، فَإِنَّهُ يَشْعُرُ بشُعُورِ الأَوَّلِ مِن الضِّيق، والحَرَجِ، فَلا يُعْجِبُهُ المَكَانُ، إذْ لا يُحَقِّقُ لَهُ مَلاذًا عَن أعيُنِ المُتَطَفِّلِينَ، بَدْءاً بالسَّجَّانِ، وانْتِهاءً بِالمَسَاجِينِ!!

فَمَن (تَوارَى) لِفِعْلِ مَفسَــدَةٍ، أَخَذَهُ النَّاسُ بمَفْسَدَتِهِ، وَعَرَفُوهُ بِهَا، وإِنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُخْفِيهَا، فَلَا يَكُونُ لَهُ قَبُولٌ عِندَهُم، فَمِنَ السُّنَنِ الكَونِيَّةِ، أَنَّهُ لَم يُسِرَّ أُحَدٌ قَطُّ مَعْصِيَةً فَعَلَهَا، إلَّا ظَهَــرَ أَثَرُهَا فِي حَرَكَاتِ يَدَيْهِ، وفَلَتَاتِ لِسَــانِهِ، وصَفَحَاتِ وَجْهِهِ، يُظهِرُهَا اللهُ للعَيَانِ، لإِعْزَازِ دِينِهِ، وإِعْلَاءِ الحَقِّ.

قَــالَ تَعَالَــى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٠].

ومَن (تَــوارَى) عَلَى تَقْــوَى، وصَلاح، أَحَبَّــهُ اللهُ، ومَلَائِكَتُــهُ، ويَضَعُ لَهُ القَبُولَ عِنْدَ أَهْــلِ الأَرْضِ، والمَحَبَّةِ فِي قُلُوبِهِم، وإِنْ لَم يَسْــعَ إِلَى التَّعْرِيفِ بنَفْسِــهِ، والإِشْهَارِ بِمَنْهَجِهِ، لِبُعْدِهِ عَن الرِّيَاءِ، وطَلَبِ السُّمْعَةِ.

(المُوارَاةُ) بِوَصْفِها طَوْقَ نَجاةٍ آمِنًا

وتَكُونُ (المُــوَارَاةُ) مَطْلَبًا دِينِيًّا آمِنًا عِنْــدَ تَكَاثُرِ الفِتَنِ آخِرِ الزَّمَانِ، المُنْذِرَةِ بِقُرْبِ قِيَامِ السَّاعَةِ، وقَبْلَ ذَلِكَ، فِرَارًا بالدِّينِ مِنَ الفِتَنِ، خَاصَّةً الَّتِي تُــؤَدِّي إِلَى الهَرْجِ، والمَرْجِ بَيْنَ المُسْــلِمِينَ، فَالقَاتِلُ، والمَقْتُولُ في النَّارِ، مِمَّن شَارَكَ فِيهَا، فالقَاتِلُ لَا يَعْلَمُ فِيمَ قَتَلَ، ولَا المَقْتُولُ فِيمَ قُتِلَ؟!

قَالَ ﷺ: «**والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَأْتِي عَلَى النَّاسِ يَوْمٌ، لَا يَدْرِي القَاتِلُ فِيمَ قَتَلَ، ولَا المَقْتُولُ فِيمَ قُتِلَ**».

فَقِيــلَ: كَيْــفَ يَكُونُ ذَلِكَ؟ قَــالَ: «الهَــرْجُ، القَاتِلُ، والمَقْتُولُ فِي النَّارَ».

فَقَوْلُهُ ﷺ: «الهَرْجُ» أَيْ: بِسَــبَبِ الهَــرْجُ، الَّذِي هُوَ: القَتْلُ فِي الفِتْنَةِ.

وقَالَ ﷺ: «**يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرُ مَالِ المُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الجِبَالِ، وَمَواقِعَ القَطْرِ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِن الفِتَنِ**».

وَقَـــالَ ﷺ: «إِذَا رَأَيْـــتَ النَّاسَ قَدْ مَرَجَـــتْ عُهُودُهُمْ، وخَفَّتْ أَمَانَاتُهُمْ، وكَانُوا هَكَذَا - وشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ - اِلْزَمْ بَيْتَكَ، وامْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وخُذْ مَا تَعْرِفُ، ودَعْ مَا تُنْكِرُ، وعَلَيْكَ خَاصَّةَ نَفْسِكَ، ودَعْ عَنْكَ أَمْرَ العَامَّةِ».

وعِنْدَ احْتِـــدَامِ الخِلَافِ بَيْـــنَ المُتَخَاصِمِيـــنَ، وتَوَتُّرِ الأَعْصَـــابِ، وخَوْفًا مِنْ تَفَاقُـــمِ الأَمْرِ إِلَى الأَسْـــوَأ، يَلْجَأُ العُقَلَاءُ مِنْهُمْ إِلَى (المُوَارَاةِ) عَـــنْ بَعْضِهِم فَتْرَةً مِنَ الزَّمَنِ، تَطُولُ أَو تَقْصُرُ، يَنْفَرِدُونَ بِأَنْفُسِـــهِم حَتَّـــى تَهْدَأَ النُّفُوسُ، وتَطْمَئِنُّ الخَوَاطِرُ، ويَعُودُ كُلٌّ إِلَى رُشْـــدِهِ، فَتُسَوَّى الأُمُورُ بَعْدَهَا تَسْـــوِيَةً تُرْضِي الطَّرَفَيْنِ غَالِبًا، فَقَـــدْ دَلَّتْ التَّجَارِبُ فِـــي كَثِيرٍ مِنَ الأَحْوَالِ أَنَّ كُلَّ مَنْ يَزْرَعُ رَأْيًا، أو حُكْمًا، وهُوَ فِي سَـــوْرَةِ الغَضَبِ، يَحْصُدُ نَدَامَةً. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [الإسراء: ٥٣].

بَعْضُ الفَوَائِدِ المَرْجُوَّةِ مِنَ (المُوَارَاةِ) فِي السِّلْمِ

و(المُوَارَاةُ) فِي الحُروبِ، تُشَكِّلُ عُنْصُرَ مُباغَتَة فَعَّالًا ضِـدَّ العَدُوِّ، حَتَّى مَعَ قِلَّـةِ عَتَادِ المُبَاغِتِ، وذَلِكَ لِسِـرِّيَّةِ الاسْـتِعْدَادَاتِ الَّتِي تَسْبقُ سَـاعَةَ الصِّفْرِ، وقَد يَقَعُ بَعْضُ القَادَةِ فِي إدَارَةِ الحُرُوبِ بِمَا يُشْبِهُ الغَفْلَةَ عَنْ أُمُور تَبْدو لَهُم جَانِبِيَّة، أَو صَغِيرَةً، فَيُكْشَفُ عَنْهَا، فَيَتَنَاقَلُهَا النَّاسُ، يَسْتَغِلُّهَا العَدُوُّ فِي تَحْقِيقِ نَصْرٍ عَلَيْهِم.

والرَّجُلُ المُفَاجَأُ نِصْـفُ مَهْزُوم، كَمَا يَقُولُ الصِّينِيُّونَ فِي أَمْثَالِهِم!!

فَعِنْدَمَـا يُحْكِمُ القَائِـدُ خُطَطَهُ، ويَجْمَعُ مَا يَسْـتَطِيعُ جَمْعَهُ مِنْ مَعْلُومَاتٍ عَنْ عَدوِّهِ، بِسِـرِّيَّةٍ مُحْكَمَةٍ، ويَعرِفُ كَيْفَ (يُوارِي) مَصَادِرَ مَعْلُومَاتِهِ، وخِطَطِ عَمَلِهِ عَن عَدوِّهِ،

ويُوَظِّفُهَا لمصْلَحةِ جَيْشِــهِ، يَكُونُ نَاجِحًا، ويَضْمَنُ - بِإِذْنِ اللهِ - نَصْرًا مُؤَزَّرًا عَلَى عَدوِّهِ.

وَقَدْ جَاءَ فِي الأَثَرِ عِنْدَ المُسْــلِمِينَ: «**اسْــتَعِينُوا عَلى قَضَاءِ حَوَائِجِكُمْ بالْكِتْمَانِ، فَإِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ**».

والرَّجُلُ الشُّجَاعُ تُسَــمِّيهِ العَرَبُ: «بُهْمَةً» لأَنَّهُ اسْتَبْهَمَ عَلــى مُنَازِلِهِ الوَجْهُ الَّذِي يَأْتِيهِ فِي القِتَــالِ مِنْهُ، حَتَّى يُفَاجَأَ بِسَطْوَتِهِ، فَيُقْذَفَ الرُّعْبُ فِي قَلْبِ عَدُوِّهِ.

واحْتِقَــارُ العَدُوِّ، والتَّقلِيلُ مِن شَــأْنِهِ، مِــنَ الفِخَاخِ الَّتِي يَقَعُ فِيهَا بَعْضُ القُوَّادِ، وقَدْ تَكُونُ سَــبَبًا فِي هَزِيمَتِهِ، والسُّخْرِيَةِ مِنْهُ، فَقَدْ قِيلَ: «لَا تُصَغِّرَنَّ أَمْرَ مَن عَادَيْتَ، ولا تَحْقِرَنَّهُ، فَإِنَّكَ إِذَا ظَفَــرْتَ بِهِ لا تُحْمَد، وَإِذَا عَجَزْتَ عَنْهُ لَمْ تُعْذَرْ».

وقِيلَ: لِيَكُنِ اسْتَعْدَادُكَ لَمُواجَهَةِ الثَّعْلَبِ، كاسْتِعْدَادِكَ لِمُواجَهَةِ الأَسَدِ.!! وعَلَى الرَّغْمِ مِنْ تَطَوُّرِ وَسَائِلِ التَّنَصُّتِ،

والجَاسُوسِـيَّةِ فَي العَصْرِ المُتَأَخِّرِ، يَبْقَى (التَّوارِي) سَـيِّدَ المَوْقِفِ فِي مَعْرِفَةِ حَجْمِ الاسْـتِعْدَادَاتِ، أَو تَوْقِيتِ سَاعَةِ الصِّفْـرِ، وضَرورِيًّا لمُبَاغَتَةِ العَـدُوَّ، وإِرْبَاكِـهِ، وتَحْمِيلِهِ تَكَالِيفَ إِضَافِيَّـةً، اسْـتِنْزَافِيَّةً، مَادِّيَّةً، ومَعْنَوِيَّـةً للوَقْتِ، والجَهْدِ، والمَالِ، وقَد تَكُونُ سَبَباً فِي هَزِيمَتِهِ.

وقِيَامُ السَّـاعَةِ (تَوَارَى) تَوْقِيتُهُ عَنِ المَخْلُوق، ضِمْنَ مَفَاتِح الغَيْبِ الخَمْسَـةِ، الَّتِي اخْتَصَّ الخَالِقُ، جَلَّ، وعَلاَ بِعلْمِهَـا، لاَ تَأْتِـي إِلَّا بَغْتَةً، فَتَبهَـتُ المُكَذِّبِيـنَ بِهَا، فَلاَ يَسـتَطِيعُونَ رَدَّهَـا، ولَا هُم يُنْظَرُونَ للتأَهُّـبِ لَهَا، فَيَكُونُ وقعُهَا عَلَيهِم أَشَدَّ، وأَنْكَى.

والمُبَاغَتَـةُ بَعْدَ (المُـوارَاةِ) طَرِيقَةٌ تَجِدُهَـا عِنْدَ غَيْرِ الإِنْسَـانِ، وَسِيلَةً ضَرُورِيَّةً مِنْ وسَائِلِ الغَلَبَةِ، والنَّجَاحِ عِنْدَ المَخْلُوقَـاتِ الَّتِي تَحْمِي نَفْسَـهَا، وتَعْتَمِدُ عَلَى الافتِراسِ للحُصُولِ عَلَى قُـوتِ يَوْمِهَا، وبَقَاءِ حَيَاتِهَـا، فَإِنَّهَا تُبَاغِتُ فَرِيسَتَها بَعْدَ أَنْ (تَتَوارى) عَنْهَا بِطَرِيقَةٍ، أَو بِأُخْرَى، فَتَنْقَضُّ

عَلَيْهَا بَغْتَةً، فَلاَ تَنْجو الفَرِيسَةُ غَالِباً مِنَ المَوْتِ، ولا يَخْسَرُ المُبَاغِتُ فَرِيسَتَهُ أَكثَر الأَحْيَانِ، وحِينَ تَكُونُ هُنَاكَ مُواجَهَةٌ ظَاهِرَةٌ بَيْنَ الفَرِيسَةِ، والمُفتَرِسِ، فَإِنَّهَا تَقِلُّ فُرَصُ الحُصولِ عَلَى الطَّعَامِ اللَّازِمِ، لحَيَاةٍ كَثِيــر مِنَ المَخْلُوقَاتِ الفِطْرِيَّةِ، فَيَنْقَرِضُ نَوْعٌ لِحِسَابِ نَوْعٍ آخَرَ، فيَخْتَلُّ التَّوَازُنُ البِيئِيُّ عَلَى الأَرْضِ.

إِسَاءَةُ (التَّوَارِي) بِوَصْفِهِ وَسِيلَةً فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ

وقَدْ يَلْجــأُ لِمِثْلِ تِلْكَ المُبَاغَتَةِ بَعْــدَ (التَّوَارِي) بَعْضُ مَرْضَــى القُلُــوبِ مِنْ بَنِي البَشَــرِ، كاللِّــصِ، والمُحْتَالِ، والكَذَّابِ، والمُجْرَمِينَ، حِينَ لَا يَظْهَــرُ أَمَامَ ضَحِيَّتِهِ عَلَى حَقِيقَتِهِ، بَــلْ يَتَقَمَّصُ أَنْوَاعاً مِنَ الهَيْئَاتِ، والصُّوَرِ، مُفَضِّلاً اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ، والسُّكُونَ عَلَى الحِرَاكِ (يَتَوارَى) خَلْفَهَا لِتَحْقِيقِ مَآرِبِهِ الدَّنِيئَةِ، مُسْتَغِلاً غَفْلَةَ الآمِنِينَ.

وفِي غَيْرِ عَالَمِ الإِنْسَانِ، يُلاحَظُ أَنَّ القَوِيَّ مِنْهَا هُوَ الذِي (يَتَوارَى) عَنِ الآخَرِ الضَّعِيفِ، ومِنْهَا مَا يُغَيِّرُ لَوْنَهُ للتَّمْوِيه، لِيَتَشَابَهَ مَعَ مَا حَوْلَهُ مِنْ حَجَر، وشَــجَر؛ لِيَتَمَكَّنَ مِنْ صَيْدِ فَرِيسَــتِهِ قَبْلَ فِرَارِهَا، بَيْنَمَا الإِنْسَــانُ يَحْرِصُ أَنْ يُظْهِرَ قُوَّتَهُ أَمَامَ خَصْمِهِ، بَلْ قَدْ يَتَظَاهَــرُ بِهَا فِي هَيْئَتِهِ، ونَبَرَاتِ صَوْتِهِ، لِيُرْهِبَ خَصْمَــهُ، فيُخْضِعَهُ لِجَبَرُوتِهِ مُدَّعِياً لِنَفْسِــهِ القُدْرَةَ عَلَيْهِ، وإِنْ كَانَ فِي الحَقِيقَةِ يُجَسِّدُ قَولَ الشَّاعِرِ:

أَلقَــابُ مَمْلَكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِها
كالْهِرِّ يَحْكِي انْتِفَاخاً صَولَةَ الأَسَدِ

وفي مَجَالِ الدِّعَايَةِ، والإَعْــلاَنِ، اللَّذَيْنِ يُغَلَّفَانِ بِكَثِير مِــن أَنْــواعِ المُبَالَغَةِ، والتَّصَنُّــعِ، بَلِ الكَــذِبِ أَحْيَاناً، فِي تَرْوِيجِ تِجَارَةِ البَعْضِ، اللإِيقَاعِ بِقَلِيلِي الخِبْرَةِ فِي شُــؤونِ الحَيَاةِ مِنَ السُّــذجِ، والسُّفَهَاءِ مِنَ الجِنْسَيْنِ، لأَكْلِ أَموالِهِم بالبَاطِلِ، وسَــلْبِ مُدَّخَرَاتِهِم، أَو لِجذْبِهِــم إِلى صُفوفِهِم بِوعُودٍ مُضَلِّلَةٍ، فِي مَجَال السِّيَاسَــةِ، (يَتَوارَى) أَصْحَابُهُمَا خَلْفَ المُنَاداةِ بَحُرِيَّةِ الــرَّأْي، وأَنَّ الاخْتِيَارَ حَقٌّ للجَمِيعِ، وأَنَّ المُنْجَذِبَ إِلَيْهِمَا يَنْطَلِقُ عَن قَنَاعَةٍ شَــخْصِيَّةٍ، وأَنَّ دَورَ المُعْلِنِيــنَ يَنْحَصِرُ فِــي بَيَانِ مَزَايا المَعْرُوضِ مِنَ السِّــلَعِ، ونَوْعِهِــا، وهَذِهِ دَعَاوَى يُطْلِقُهَا أَكْثَــرُ المُعْلِنينَ، لاَ تَصْدُقُ عَلَى أَكْثَرِ البَضَائِعِ، والسِّلَعِ المُعلَنِ عَنْهُمَا فِي الوَاقِعِ، وهُمْ يَلْتَقُونَ جَمِيعاً عِندَ هَدَفٍ رَئِيسٍ واحِدٍ هو:

التَّكسُّبُ المَادِّيُّ بِتَسْويق مُنتَجَاتِهم، أَو بَضَائِعِهم، بِأَيِّ وَسِيلَةٍ مُتَاحَةٍ، ولَو عَلَى حِسَابِ المُسْتَهْلِكِينَ الضُّعَفَاءِ المُغَرَّرِ بِهِمُ.

جَاءَ فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**إِنَّ التُّجَّارَ هُمُ الفُجَّارُ**». فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَيْسَ قَدْ أَحَلَّ اللهُ البَيْعَ؟ قَالَ: «**بَلَى، لَكِنَّهُم يَحْلِفُونَ فَيَأْثَمونَ، ويُحَدِّثُونَ فَيَكْذِبُونَ**»!!

وذَكَرَ ﷺ، مِنْ بَيْنِ الثَّلاثَةِ الَّذِينَ لاَ يُكلِّمُهُم اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، ولا يَنْظُرُ إِلَيْهِم: «**المُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بِالحَلِفِ الفَاجِرِ**». المُرَادُ البَائِعُ، وأَكْثَرُ أُولَئِكَ النَّفَرِ اليَوْمَ مِنْهُم، إلاَّ مَنْ رَحِمَ اللهُ. وسُمِّيَ الكَاذِبُ، فَاجِراً؛ لأَنَّ الكَذِبَ بَعْضُ الفُجُورِ.

الخوفُ مِنَ المَجْهُولِ (المُتَوَارِي)

واعَدَ اللهُ عِبَـادَهُ، وأَوْعَدَهُم (وَوَارَى) تَفَاصِيلَ الوَعْدِ لِلمُؤمِنِيـنَ المُتَّقِيـنَ بالَّنعِيمِ المُقِيمِ، ووَعِيـدِهِ جَلَّ وعَلاَ، للكَافِرِينَ، والمُشْـرِكِينَ، وأَصْحَابِ المَعَاصِي، بالعَذَابِ الأَلِيم يَوْمَ القِيَامَةِ، مَمَّا خَلَقَ فِي نَفْسِ السَّامِعِ مِنَ الفَرِيقَيْنِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا، رَغْبَةً جَامِحَـةً لنيْلِ الأَجْرِ، والثَّوابِ، إِنْ كَانَ تَقِيًّا، فَهُوَ بَيْنَ خَوْفٍ ورَجَاءٍ، ورَهْبَةٍ شَدِيدَةٍ مِنَ العَذَابِ فِي قُلُوبِ الفَاسِـقِينَ، مِنْ مُشْـرِكٍ، وَكَافِـرٍ، وَعاصٍ، فِي لَحَظَاتِ يَقْظَةِ ضَمَائِرِهِم، وتَفْكِيرِهِم فِي العَاقِبَةِ، مِمَّا يَدْفَعُ الأَوَّلِ إِلَـى مُضَاعَفَةِ جُهُودِهِ فِي طَاعَـة رَبِّهِ، والصَّبرِ عَلَيهَا لِنَيْلِ الثَّوابِ، ويَدْفَعُ الثَّانِـي المُتَعقِّلَ إِلى التَّفَكُّرِ الجَادِّ فِي مَصِيرِهِ، وسُوءِ عَاقِبَتِهِ، فيُقْبِلُ - إِنْ أَرَادَ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ - على العَمَلِ الدّؤُوبِ للإِقْلاَعِ عَن مَعْصِيَتِهِ، والنَّدَمِ، والتَّوبَةِ إِلَى اللـهِ، بِنِيَّةٍ خَالِصَةٍ، قَبْلَ بُلُوغِهِ الأَجَلَ، فاللهُ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ.

ويَكونُ أَحْيَانـاً خَوفُ الإِنْسَـانِ عَلى قَـدْرِ مَعْرِفَتِهِ، وتَكونُ مَعْرِفَتُهُ عَلَى قَدْرِ مَوْهِبَتِهِ، وتَكونُ مَوْهِبَتُهُ عَلى قَدْرِ خُصُوصِيَّتِهِ.!!

وطَبْعُ الإِنسَانِ يَتَنَاقَضُ عِنْدَ كَثِيرينَ مِنْهُم، مَعَ التَّكَالِيفِ الشَّرْعِيَّةِ، كَما بَيَّنَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ – ٤٠].

فَمَنْ خَافَ الوَعِيـدَ (المُتوارِيَةُ) حَقِيقَتُـهُ، قَرُبَ عَلَيهِ السَّدِيدُ مِنَ الرَّجَاءِ فِي رَبِّهِ، فيَسْلُكُ بِنَفْسِهِ مَسَالِكَ التَّقْوَى، والاستقامَةِ، طَلَباً للنَّجَاةِ يَومَ القِيَامَةِ من جَهَنَّمَ، فإِنَّهُ إِذَا غَلَبَ الهَوَى العَقلَ صَرَفَ مَحَاسِـنَ خَيَالِهِ إِلَى المَسَـاوِئِ، فَإِنَّ الهوى يَقُودُ النُّفُوسَ إلى مَا يُعَابُ، وإِذَا غَلَبَ العَقلُ الهَوَى صَرَفَ المَسَاوِئِ إِلَى المَحَاسِنِ، وقَادَهَا إِلَى الصَّوَابِ. فَقَدْ قِيلَ شِعْراً:

تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا
إِنَّ السَّفِينَةَ لاَ تَجْرِي عَلَى اليَبَسِ

فـــ «الكَيِّسُ مَن دَانَ نَفْسَـــهُ، وعَمِلَ لِمَـــا بَعْدَ المَوتِ، والعَاجِزُ مَن أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وتَمَنَّى عَلَى اللهِ».

وقَالَ أَيْضاً ﷺ: «المُؤمِنُ كَيِّسٌ فَطِنٌ».

وقيل: «لا يَكُونُ العَبْدُ تَقِيًّا حَتَّى يُحَاسِـــبَ نَفْسَـــهُ كَمَا يُحاسِبُ شَرِيكَهُ، مِنْ أَيْنَ مَطْعَمُهُ ومَلْبَسُهُ».!!

خَوْفُ المُؤْمِنِ (المُتَوَارِي)
حِفْظٌ لَهُ عَنْ الابْتِذَالِ

والإِيمَانُ بِاللهِ قَيْدُ المُؤمِنِ عَن فِعلِ المَعْصِيَةِ، كَالعِقَالِ لِلْبَعِيرِ الهَائِجِ، ويَدفَعُهُ إِلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ، بِمَفْهُومِ الإِحْسَانِ:

«أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ»

وذَلِكَ رَأْسُ الأَمْرِ، وذُرْوَةُ سَنَامِهِ.

وبَيْنَ الشَّيءِ المَصُونِ، (المُتَوَارِي) والمَكْنُونِ الَّذِي لايُرَى إِلاَّ نَادِراً، والآخَرُ المَكْشُوفُ المُبتَذَلُ فِي كُلِّ وَقْتٍ، شُعُورانِ مُخْتَلِفَانِ عِنْدَ الإِنْسَانِ: الهَيْبَةُ، والاحتِرامُ نَحْوَ الأَوَّلِ، والشَّوقُ لمَعْرِفَةِ حَقِيقَتِهِ، وعَدَمِ المُبَالاَةِ بالثَّانِي، وقَد يَصِلُ تَكَرُّرُ رُؤْيَتِهِ عِنْدَهُ إِلَى إِهْمَالِهِ، ورُبَّمَا نِسْيَانِهِ، والاسْتِهَانَةِ بِشَأْنِهِ. قال ابن المُعْتَزِّ:

رَأَيْتُ حَيَاةَ المَرْءِ تُرْخِصُ قَدْرَهُ
فَإِنْ مَاتَ أَغْلَتْــهُ المَنَايَا الطَّوَائِحُ

كَمَا يُخْلِقُ الثَّوْبَ الجَدِيدَ ابْتِذَالُهُ
كَذَا تُخْلِقُ المَرْءَ العُيُونُ اللَّوامِحُ

وَيُقَالُ: «لاَ تُمَكِّنِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِــكَ، فَإِنَّ أَجْرَأَ النَّاسِ عَلَى السِّبَاعِ أَكْثَرُهُمْ لَهَا مُعَايَنَةً».

وَقِيلَ: «كُلُّ مَبْذُولٌ مَمْلُولٌ، وكُلُّ مَمْنُوعٍ مَرغُوبٌ فِيه».!

وقَالَ الدُّمَيْرِيُّ: «والإِبِلُ مِنَ الحَيَوَانَاتِ العَجِيبَةِ، وإِنَّ عَجَبَهَا سَقَطَ مِنْ أَعْيُنِ النَّاسِ لِكَثْرَةِ رُؤْيَتِهِم لَهَا»!! وَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ الشَّاعِرُ المُلْهَمُ:

فَإِنِّي رَأَيْتُ الشَّمْسَ زِيْدَتْ مَحَبَّةً
إِلَى النَّاسِ أَنْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ بِسَرْمَدِ

وعِنْدَمَا طَلَبَ مُوسَــى عليه السلام مِنْ رَبِّــهِ (المتواري) عَنِ الأَنْظَــارِ رُؤْيَتَهُ بالعَيْنِ المُبْصِرَةِ، فِي الحَيَــاةِ الدُّنْيَا، قَالَ لَهُ

تَعَالَــى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ لِتَبْقَى -واللهُ أَعلَمُ- الــذَّاتُ الإِلَهِيَّةُ (مُتَوارِيةً) وفِي مَنْأَى عَنْ أَعْيُنِ الخَلْق جَمِيعاً، إِلاَّ لِمَنْ شَاءَ سُــبْحَانَهُ مِن خَلْقِهِ أَنْ يَرَاهُ، لِيَبْقَى كُلُّ تَشْــبِيهٍ، أَو تَمْثِيلٍ، أَو تَعْطِيلٍ، أو تَجْسِيمٍ لَهُ، تَعَالَى، بِأَيٍّ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ مُتَعذِّراً، بَلْ مُسْتَحِيلاً، فَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وهُوَ عَزَّ وَجَل: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

فَهُوَ تَقَدَّسَتْ أَسْــماؤهُ، وصِفَاتُهُ، ظَاهِرٌ بالقُدْرَةِ، بَاطِنٌ بِالحِكْمَةِ، يُرَى أَثَرُهُ، فــي بَدِيعِ خَلْقِــه، وصُنْعِهِ، وتَدْبِيرِهِ، فــي آيَاتٍ شَتَّى، لا تُحْصَى مِن مَخْلُوقَاتِهِ، ولا تُرَى عَينُهُ، إِلَّا لِلمُؤْمِنِ فِي الآخِرَةِ.

وصَدَقَ السَّائِلُ فــي تَعَجُّبِهِ، وسُؤَالِهِ، وتَقْرِيرِهِ، حِينَ قَالَ:

أَيَــا عَجَبًــا كَيْفَ يُعْصَــى الإِلَهُ
أَمْ كَيْــفَ يَجْحَــدُهُ الجَاحِــدُ

وَفِــي كُــلِّ شَــيْءٍ لَــهُ آيَــةٌ
تَــدُلُّ عَــلَــى أَنَّــهُ واحِــدُ

وتَسْتَشْعِرُ عَظَمَتَهُ، سُبْحَانَهُ، عِندَكَ فِي عِلْمِكَ بِإِحَاطَتِهِ بِعِلْمِ كُلِّ شَيءٍ فِي مَلَكُوتِهِ: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس: ٦١].

الرَّغْبَةُ والرَّهْبَةُ مِنَ (المُتَوَارِي)

والشَّيءُ (المُتَوارِي) عَن الإنْسَانِ، يُوَلِّدُ فِي فِكْرِهِ طُوفَانًا مِن التَّخَيُّلاتِ، والتَّساؤلاتِ، والخَشْيَةِ، الَّتِي تَذْهَبُ بِهِ بَعِيدًا، بَعِيدًا، ويَسْتَرسِلُ مَعَهَا حَتَّى يَصْطَدِمَ بِمَا لَا يَجِدُ لَهُ جَوابًا فِي عَالَمِهِ المَحْسُوسِ، فَيَعُودُ مِن حَيْثُ بَدَأَ، لِيَنْتَهِي إلى حَيْثُ عَادَ، فَيَسْتَمِرّ فِي الدَّوَرَانِ فِيمَا يُشْبِهُ الحَلَقَةَ المُفْرَغَةَ مَعَ خَيَالِهِ، وفِكْرِهِ، كَفِعْلِ المَنَاطِقَةِ، والفَلاسِفَةِ، والزَّنَادِقَةِ.!!

وَمِنْ أَمْثَالِ العَرَبِ قَوْلُهُم: «تَسْمَعُ بِالْمُعِيدِيِّ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ» مَا يُقَرِّبُ إِلَى الأَذْهَانِ الفَرْق بَيْنَ الرُّؤيَةِ البَصَرِيَّةِ للشَّيْءِ، وَبَيْنَ السَّمَاعِ المُجَرَّدِ عَنْهُ فِي تَحْدِيدِ، وَمَعْرِفَةِ الأَشْيَاءِ عَلَى حَقِيقَتِهَا، فَالَّذِي أَطْلَقَ المَثَلَ سَمِعَ بِالْمُعِيدِيِّ الشُّجَاعُ، ذُو المَزَايَا الحَمِيدَةِ وَلَمْ يَلْقَه، واسْتَرْسَلَ مَعَ خَيَالِهِ فِي رَسْمِ صُورَتِهِ، طَوِيلًا، وَسِيمًا، ذُو هَيْئَةٍ مُتَسَلِّطَةٍ، فَأُعْجِبَ بِهَا، وَتَطَلَّعَ إِلَى لِقَائِهِ، فَلَمَّا الْتَقَيَا انْتَقَصَهُ لِهَيْئَتِهِ

الذَّمِيمَــةِ، وقِصرِ قَامَتِــه، فَلَمْ تَتَوَافَقِ الرُّؤْيَــة البَصَرِيَّةِ، مَعَ السَّمَاعِ، إِذْ إِنَّ الخَيَالَ أَدَّى دَوْرَهُ فِـي غِيَابِ الوَاقِعِ، وحَلَّقَ بِصَاحِبِهِ بَعِيدًا.

وَمُوسَى، عَلَيْهِ السَّلاَمُ، أَلْقَى الأَلْوَاحَ مِنْ يَدَيْهِ عِنْدَ رُؤْيَتِهِ مَا صَنَعَ قَوْمُهُ مِنْ عِبَادَةِ العِجْلِ، وَلَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عِنْدَ مُجَرَّدِ سَمَاعِهِ الخَبَرَ قَبْلَ ذَلِكَ، إِذْ لَيْسَ مَنْ رَأَى كَمَنْ سَمِعَ.!!

والشَّيْطَانُ الَّذِي حَذَّرَ اللهُ بَنِي آدَمَ فِتْنَتَهُ لا نَرَاهُ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْهُ: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [الأعراف: ٢٧].

يَجْــرِي مِنَ الإِنْسَــانِ مَجْرَى الــدَّمِ (مُتَوارِيًــا) عَنْهُ، فيُوسْوِسُ لَهُ فِـي أَصْلِ الخَلْقِ مَثَلًا، فَيَسْأَلُهُ: مَن خَلَقَ هَذَا؟. ومَن خَلَقَ هَذَا؟. إِلَى أَن يَقُولَ لَهُ: هَذَا الله خَلَقَ الخَلْقَ، فمَنْ خَلَقَ الله.!؟ ليُشَكِّكَ الـمُسلِمَ فـي تَفَرُّدِ خَالِقِهِ بِالصِّفَاتِ، بِأَنَّهُ سُــبْحَانُهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١]، و﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ [الإخلاص: ٣].

فَيَقْهَر الـــمُؤْمِنَ البَسِـــيطَ، الَّذِي لَا يَجِدُ جَوابًا شَافِيًا للرَّدِّ عَنْ سُـــؤَالِهِ، ولَا يَمْلِكُ لَهُ دَفْعًا عَـــنْ تَفْكِيرِهِ، وخَيَالِهِ، ولَا يَتَحَكَّمُ بِإِرادَتِهِ فِـــي مَنْعِ وسْوَسَتِهِ ابْتِداءً، ولا يَجْرُؤُ أَن يُفْصِحَ عَنْهُ لِشَنَاعَتِهِ أَمَامَ غَيْرِهِ.

هَذَا النَّوعُ مِنَ الوَسْـــوَاسِ وصَفَهُ الرَّسولُ ﷺ، بِقَوْلِهِ: «**ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَـــانِ**». يَعْنِي: كَرَاهَتُكُم لَـــهُ، وتَعَاظُمُكُم التَّكَلُّمَ بِهِ حَتَّى فِـــي أَنْفُسِـــكُم، مِنْ صَرِيـــحِ الإِيمَانِ؛ لأَنَّ الإِيمَانَ بِاللـــهِ، أَحَدٌ، صَمَدٌ، لَمْ يَلِدْ، ولَـــمْ يُولَدْ، هُوَ الَّذِي مَنَعَكُمْ مِن التَّلَفُّظِ بِوَسْوَسَـــةِ الشَّـــيْطَانِ، أو تَصْدِيقِهِ، لَا أَنَّ الوَسْوَاسَ من اللَّعِينِ نَفْسِهِ صَرِيحُ الإِيمَانِ.!!

جَوابٌ مُرْغِمٌ للشَّيْطَانِ، يَحُولُ بَيْنَ أَنْ يُوقِعَ الشَّكَّ عِنْدَ المُؤْمِنِ الحَقِّ فِي رَبِّهِ الخَالِقِ، تَقَدَّسَـــتْ أَسْمَاؤهُ، وصِفَاتُهُ، وتَعَالَى سُبْحَانُهُ عَمَّا يَصِفُون.

فَمَن كَانَ مَجْهُولًا (مُوارِيًا) أَمْـــرَ قُوَّتِهِ، ومَدَى تَغَلْغُلِ نُفُوذِهِ، فَإِنَّهُ يُشَكِّلُ حِسًّا ذَا رَهْبَةٍ مِنَ المَجْهولِ لَدَى المُتَرَبِّصِ

بهِ، تَتَضَاعَفُ هَيْبَتُهُ، والخَشْيَةُ مِن سَطْوَتِهِ فِي النُّفُوسِ بِقَدْرِ نِسبَةِ غُمُوضِهِ، ومَدَى انْضِبَاطِ (تَوَارِيهِ).

فأَمَّا المُعَاشِـرُ للشَّـيءِ فإِنَّهُ يَعتَادُهُ، وربَّمـا يَزْدَرِيهِ، ويَجْرُؤ عَلَيْهِ، فَطُولُ السَّوَادِ، وقُرْبُ الوِسَادِ، كَفِيلَانِ بِإيقَاعِ المُسْتَهْدَفِ فِي المَحْذُورِ، فَهُمَا قَدْ يُؤَدِّيانِ إِلى التَّنَازُلِ عَنِ المَطْلُوبِ، والتَّهَاونِ بِأَمْرِهِ عِنْدَ الطَّالِبِ، حَتَّى فِي مَسْـأَلَةِ الكَرَامَةِ، والشَّرَفِ عِنْدَ بَعْضِهِم، كَمَا فَعَلَتْ بنتُ الخُسِّ.!!

والحَـرْبُ الَّتِي آذَنَ اللهُ آكِلِي الرِّبَا بِهَـا، مَا لَمْ يَذَرُوهُ، ويَكْتَفُوا بِرُؤُوسِ أَمْوالِهِم، لَا يَظْلِمُونَ، ولَا يُظْلَمُونَ، أَخْفَى، سُـبْحَانُهُ تَفَاصِيلَهَا، وعَتَادَهَا، وجُنودَهَا، ونَوعَ وَسَـائِلِهَا، ووَقْـتَ وقوعِهَا، مِمَّا جَعَـلَ مُجَرَّدُ تَذَكُّرِهَـا، والتَّفَكُّرِ بِهَا مُخِيفًا: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧]. يَتْرُكُهُ فِي حَالَةِ تَرَقُّبٍ مُقْلِقٍ، لَا تنْتَهِي.

تَأَمَّلْ حَالَ آكِلِ الرِّبَا، تَجِدْهُ قَلِقًا عَلَى مُسْتَقبَلِهِ، لَا يَقِرُ لَهُ قَرَارٌ، دَائِمُ الفَاقَةِ، والحَاجَةِ، كَمَا وَصَفَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ

الحَــقِّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ﴾ [البقــرة: ٢٧٥]. أَيْ: أَلَمَّ بِهِ الشَّــيْطَانُ بجُنُونٍ، والمَسُّ يُقَالُ فِي كُلِّ مَا يَنَالُ الإِنْسَانَ مِنْ شَرٍّ. وآكِلُ الرِّبَا ذُو عَوَزٍ مُسْــتَمِرٍّ، كَثِيرُ الشَّــكِّ بِمَنْ حَوْلَهُ، يُحَاوِلُ إِقْنَاعَ ضَمِيرِهِ بِسَلامَةِ مَسْلَكِهِ، جَاعِلًا لآرائِهِ، وتوجُّهَاتِهِ الخَاطِئَةِ، الصَّدارَةَ فِي القَوْلِ الصَّوَابِ، قَد أعمَى بَصِيرَتَهُ حُبُّ المَالِ، وحَكَّمَ شَهْوَتَهَ، الَّتِي هِيَ بِمَثَابَةِ القُوَّةِ المحَرِّكَةِ فِي الإِنْسَــانِ، إِمَّا إِلَى خَيْرٍ، وَإِمَّا إِلَى شَرٍّ، وَاثِقًا مِنْ كَلامِهِ بِرَأْيِ نَفْسِــهِ، فَهُــوَ يَخْدَعُهَا، بتَتَبُّعِ رُخَصِ عَوَامِّ الفُقَهَاءِ في الأَحْكَامِ فِيمَا يَأْتِي، أَو يَدَعُ، يَسْــتَجيبُ للشَّــيْطَانِ، حِينَ يُحَسِّــنُ لَهُ أَفْعَالَهُ، ويُبَرِّر لَهُ سُلُوكَهُ، مُوهِماً إِيَّاهُ بِالأَمَانِ فِي ظِلِّ قَوَانِينَ وَضْعِيَّة، تَجْعَلُ الرِّبَا كَالبَيْعِ حَلالاً، واللهُ سُــبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

ويُمَنِّي الشَّيْطَانُ ضَحَايَاه بالثَّراءِ الوَاسِعِ، ورَغَدِ العَيْشِ، إِنْ هُمُ ثَابَرُوا فِي مِيدَانِ العَمَلِ بالرِّبَا، فَهُوَ لَعَنَهُ اللهُ: ﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠]، ويَجْعَلُهُم

يَدورونَ فِي دَوَّامَةِ التَّسْويفِ، كَلَّمَا استَيْقَظَتْ ضَمَائِرُهُم، وهَمُّوا بالتَّوبَةِ، مُتوهِّمِين أَنَّ فِي العُمْرِ بَقِيَّةً تُمكِّنُهُم مِن إِعْلانِها قَبْلَ المَوتِ، واللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤]، فَذَلِكَ مِمَّا اسْتَأْثَرَ اللهُ بِعِلْمِه.

فَأُولَئِكَ يَحيَوْنَ أَوهَاماً مُظْلِمَةً، أَطْبَاقاً، بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، بادِّعَائِهِم الرِّبْحَ مِنْ أَعمَالِهِم الرِّبَوِيَّةِ، والبَارِي يَقُولُ لِنَبِيِّهِ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣ – ١٠٤].

ويَومَ القِيَامَةِ يَصِفُ حَالَهُم بِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦ – ٥٩].

وأَيْــن هُم مِنْ قَولِ البَارِي عَزَّ وجَلَّ فِي آخِرِ آيَاتِ الرِّبَا مِن سُورَةِ البَقَرةِ: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾ [البقــرة: ٢٨١]، ومِنْ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰ ﴾ [العلق: ٨]، وقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [المطففين: ٤ – ٦].

وكُلُّ شَــأْنٍ (وارَى) اللهُ كُنْهَهُ، أَو مَوعِــدَ وقُوعِهِ، أَو مِقْدَارَ عَدَدِهِ، وعَتَادِهِ فَإِنَّهُ يَتْرُكُ شُــعُوراً مُشْحوناً بالوَجَلِ، لَدَى المُخَاطَبِينَ، أَيّاً كَانَ حَالُهُم، إِذْ لَو كَانَ أَمْراً ظَاهِراً لَقَلَّ المُعْتَبِرونَ، وكَثُرَ المُتأَوِّلُونَ.

فَنَحْنُ نَقُولُ فِي ظَاهِرِ الأَشْــيَاءِ بِمَا نَرَى، ويَقْضِي اللهُ تَعَالَى بِغَيْبِ مَا يَعْلَمُ، ويُحِيطُ بِعِلْمِهِ الشَّامِلِ كُلَّ شَيْءٍ، وهُوَ أَقْرَبُ إِلَيْنَا مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ.

(مُوَارَاةُ) قَدْرِ الثَّوَابِ لِفِعْلِ الطَّاعَاتِ

والمُتنافِسُـونَ عَلَى فِعْـل الطَّاعَاتِ مِـنَ الفُرُوضِ، والنَّوافِلِ، وأَعمَال البِرِّ، والإِحْسَانِ (وَارَى) اللهُ عَنهُم قَدْرَ ثَوَابِ أَعمَالِهِم عِنْدَهُ فِي الآخِرَةِ؛ لِكَي يَجتَهِدُوا فِي العِبَادَةِ أَكْثَـرَ أَوقَاتِهِم، بِمُلازَمَتِهَا، وأَدَائِهَا بِمَـا يُرْضِي اللهَ عَنْهُم، ويتَنَافَسَـوا بَيْنَهُم فِي فِعْلِ الطَّاعَاتِ، ولِيَبْقَى المُسْـلِمُ بَيْنَ خَوْفٍ ورَجَـاءٍ، الخَوْفُ مِن التَّقْصِيرِ، والرَّجَاءُ فِي عَفْوِ رَبِّهِ الوَاسِعِ، والقَبُولِ مِنْهُ.

فَـإِنَّ العَبْدَ فِـي أَمَـل وخَوْفٍ
يَعِيـشُ مَسَـافَةَ الأَمْيَـالِ مِيلُ

أُرَجِّي خَاطِـرِي عَفْـواً كَرِيماً
مِـنَ المَوْلَى كَمَـا يَرْجُو العَلِيلُ

وَأَرْجُـو بَيْنَ ثَانِيَةٍ وَأُخْـرى
يُـبَـدِّلُ شِـقْـوَتِـي ظِـلٌّ ظَلِيلُ

واللـــهُ (وارَى) عَنِ المؤمنيـــن المُتَّقِينَ مِـــنْ عِبَادِهِ مَا أَعَدَّ لَهُم مِنَ النَّعِيمِ فِي الجَنَّةِ، قَالَ الرَّسُـــولُ ﷺ: قَالَ اللهُ: «**أَعْـــدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِيْـــنَ مَا لاَ عَيْـــنٌ رَأَتْ، ولاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بشر**».

اقْرَؤُوا إِنْ شِـــئْتُمْ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧].

تَرْغِيباً، وحَثًّا لَهُم عَلَى الإكثَارِ مِنْ فِعْلِ الطَّاعَاتِ، والصِّبْرِ عَلَيْهَا فِي جَمِيعِ أوقَاتِهِم، وباخْتِلاَفِ حَالاَتِهِم، وحَثِّهِم عَلَى الالتِـــزَامِ بِقَوْلِهِ تَعَالَـــى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

ولَيْسَ إنسَـــانٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا، أَهْلًا - بقُدُراتِهِ الذَّاتِيَّةِ الخَلْقِيَّةِ، أو المُكْتَسَـــبَةِ - لِمَعْرِفَةِ تَفَاصِيلِ مَا سَيَجْرِي يَومَ القِيَامَةِ مِنْ أَحْدَاثٍ، وأَهْوَالٍ، غَيْرَ مَا ذَكَرَهُ اللهُ سُـــبحَانَهُ فِي كِتَابِهِ، ورَسولُهُ في سُنَّتِهِ مِن وَصْفٍ لَهَا، فَالإِنْسَانُ فِي غَفْلَةٍ عَنْ هَذَا، لِيُوَاصِلَ عَيْشَـــه عَلَى الأَرْضِ، ويَدْفَعُهُ الأَمَلُ فِي

طُولِ البَقَاءِ إِلَى غَفْلَةٍ الانْخِرَاطِ مَعَ العَامِلِينَ لِكَسْبِ عَيْشِهِم فِي الدُّنْيَا، وفِي الآخِرَةِ يَكْشِفُ اللهُ عَنْهُ غِطَاءَهُ، فيُصبحُ بَصَرُهُ حَدِيداً، يَرَى الأَشْيَاءَ على حَقِيقَتِهَا، ويَرَى الحَقِيقَةَ فِي الأَشيَاءِ عَلى طَبِيعَتِهَا، حَيْثُ لاَ عَمَلَ، ولاَ كَسْبَ.

والشَّهْوَةُ فِي الإِنْسَانِ حِيَادِيَّةٌ، غَيْرَ أَنَّهَا مُحَرِّكٌ رَئِيسٌ لأَكْثَرِ رَغَبَاتِهِ الفِطْرِيَّةِ، والمُكْتَسَبَةِ، فَإِمَّا أَنْ تَرْقَى بِهِ خُلُقِيًّا، إِذَا صَرَفَ نَفسَهُ عَنْ تَحقِيقِ رَغَبَاتِهَا عَمَّا حُرِّمَ عَلَيهَا، أَو أَنْ تَهْوِي بِهِ فِي العَذَابِ إِذَا أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، واتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ، ولَمْ يَقِفْ عِنْدَ حُدُودِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ – ٤٠].

واللهُ جَعَلَ لِلإِنسَانِ مُقَابِلَ كُلِّ شَهْوَةٍ مُحَرَّمَةٍ عَلَيْهِ، بَدَائِلَ مُبَاحَةً، وقَدْ حَدَّدَ مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، ومَا أَبَاحَهُ لَنَا لاَ حَصْرَ لَهُ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

إِسَاعَةُ فَهْمِ (المُوَارَاةِ) عِنْدَ البَعْضِ

وحِينَ كَانَ لِلأُمُورِ المُغَيَّبَةِ خَشْـيَةٌ، ورَهْبَةٌ فِي النَّفْس البَشَرِيَّةِ، ورَغْبَةٌ جَامِحَةٌ عِنْدَ الإِنْسَـانِ لِمَعْرِفَةِ كُنْهِهَا، وقَد فُطِـرَ المَخْلُوقُ عَلَى حُبِّ الحَيَـاةِ الدُّنيَا، وكَرَاهَةِ المَوتِ، اسْتَحْوَذَ عَلَيهِ شُعُورُ الرَّغْبَةِ فِي البَقَاءِ بالبَحْثِ عَنِ المَعْرِفَةِ فِي عَالَمِ الغَيْبِ، مَا دَفَعَ إِلَى تَعَلُّق كَثِيرٍ مِن ضَعِيفِي الإِيمَانِ بَالجِنِّ (المُتَوارِينَ) عَنْهُم مُتَوَهِّمِينَ فِيهِم القُدْرَةَ عَلَى مَعْرِفَةِ الغَيْـبِ، لاخْتَـلاَفِ طَبِيعَتِهِم عَنِ الإِنْسِ، يَسْـتَنْبِئُونَهُم مَا اسْتَأْثَرَ اللهُ بِعِلْمِهِ، ولَيْسَ ذَلِكَ إِلَى مَخْلُوقٍ من دُونِ مَشِيئَةِ البَارِي، ويَصِفُونَهُم بأَوصَافٍ خَارِقَةٍ فِي القُدْرَةِ، والمَعْرِفَةِ، تَعْتَمِدُ عَلَى خَيَالٍ واسِـعٍ، كَالَّذِي يُنْسَبُ إِلَى رَجُلٍ مِنْ بَنِي عُذْرَةَ اسْـمُهُ، خُرَافَةُ، أَسَـرَتْهُ الجِنُّ فِـي الجَاهِلِيَّةِ، فَكَانَ يَكُونُ مَعَهُمُ، فَإِذَا اسْتَرَقُوا السَّـمْعَ مِنَ السَّمَاءِ أَخْبَرُوهُ بِمَا سَمِعُوا، ثُمَّ بَعْدَ أَنْ رَدُّوهُ إِلَى الأَرْضِ أَخْبَرَ أَهْلَهَا بِمَا سَمِعَ، فَيَسْتَغْرِبُونَهُ، فَيَجِدُونَهُ كَمَا قَالَ إِذَا تَحَقَّقَ.

فَتَعَارَفَ النَّاسُ بَعْدَهُ عَلَى تَسْمِيَةِ كُلِّ وَصْفٍ فِيهِ غَرَابَةٌ: حَدِيثَ خُرَافَةٍ.

والمُسْتَقْبَحُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ، شِرْكُ الإِنْسِيِّ باللهِ لإِرْضَائِهِم، ليَخْدِمُوهُ.

والإِنْسَانُ لاَ يَرَى نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ مُبَاشَرَةً إلاَّ بِوَاسِيلَةٍ مَصْقُولَةٍ، كالمِرْآةِ، أَو مِن عَلَى صَفْحَةِ مَاء رَاكِدٍ، رَقْرَاقٍ، مَا يُشِيرُ إِلَى (تَوَارِي) هَيْئَتِهِ الأَقرَبُ إِلَيهِ عَنْهُ، فَكَيْف يَطْمَعُ القَاصِرُ فَهْماً، وإِدراكاً إِلَى مَعرِفَةِ الغَيْبِ، الَّذِي هُوَ سِرٌّ مِن أَسْرَارِ اللهِ، تَفَرَّدَ بِعِلْمِهِ دُونَ جَمِيعِ خَلْقِهِ؟!!

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقَالَ تَعَالَى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

وقَالَ تَعَالَى فِي أَمْرِ سُلَيْمانَ، عَلَيْهِ السَّلاَمُ مَعَ الجِنِّ: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ

مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ [سبأ: ١٤].

وقَالَ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ الجِنِّ أَنْفُسِهِم: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾ [الجن: ٢٦ – ٢٧].

ولكِنَّ اللهَ عَوَّضَ المُسْلِمَ لِلتَّعَرُّفِ إِلَى هَيْئَتِهِ بَدَلاً عَن ذَلكَ، مُراقَبَةَ أَخِيهِ المُؤْمِن لَهُ، يَهْدِي إِلَيْهِ عُيوبَهُ، ويُنَبِّهُهُ حِينَ يَغفَلُ، فيُحَسِّنُ لهُ الحَسَنَ، ويُقبِّحُ لَهُ القَبِيحَ، مَا جَعَلَ لِلبِطَانَةِ الصَّالِحَةِ دَوراً مُهِمًّا فِي تَقْوِيمِ السُّلُوكِ، فأَخُوكَ مَن وَعَظَكَ بِرُؤْيَتِهِ قَبْلَ أَن يَعِظَكَ بِكَلامِهِ، وكما جاء في الحديث: «**المُؤْمِنُ مِرْآةُ أَخِيهِ المُؤْمِنِ**».

قَالَ الشَّاعِرُ:

شَاوِرْ سِواكَ إِذَا نَابَتْكَ نَائِبَةٌ
يَوماً وإِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ المَشُورَاتِ

فالعَيْــنُ تَلْقَى كِفَاحاً مَا نَأَى ودَنَا
ولاَ تَرَى نَفْسَـــــهَا إلاَّ بمِــرْآةِ

وبَشَرَةُ الإِنْسَانِ مِرْآةُ سَرَائِرِهِ، كَمَا يُقَالُ، فالمُسْلِمُ النَّابِهُ يَسْتَشِفُّ فِرَاسَةً، مِن بَشْرَةِ أَخِيهِ المُسْلم بَعْضَ مَا (يَتَوارَى) عَنْهُ مِمَّا يَسُــرُّهُ، أَو يُنَغِّصُ عَلَيْهِ، وإِن لَمْ يُصَرِّحْ بِهِ، مِمَّا قَد يُسَاعِدُ صَاحِبَ الفِرَاسَةِ إِلَى أَنْ يَصِلَ مِن خِلاَلَهِ إِلَى نَوع مِنَ الحُلولِ المُنَاسِبَةِ لِصَاحِبِهِ، فِي الوَقْتِ المُنَاسِبِ، تُسَرِّى عَنْهُ بَعْضَ حُزنِهُ، وإِنْ كَانَ طَبِيْباً يَصِفُ لَهُ مَا يُنَاسِبُهُ مِنَ العِلاَجِ!!

ولاَ يُجْدِي ذَلِكَ مَعَ المُكَابِرِ، الَّذِي يَعْلَمُ عَيْبَ نَفْسِــهِ، فَيُصِرُّ عَلَى نَفْيــهِ، أو لا يَعْلَمُهُ، جَهْلاً مِنْــهُ، فَهُوَ (يَتَوارَى) خَلْفَ هَــذَا الادِّعَاءِ المَغْلُــوطِ (لِيُوارِي) عَــنْ الآخَرِينَ نَقْصاً فِي سُــلُوكِهِ، أَو أَخْلاقِهِ، مُتَوَهِّماً دَفْعَهُ عَنْ نَفْسِهِ بِهَذِهِ الوَسِيلَةِ، حِينَ فَقَدَ فَضِيلَةَ الاعْتِرَافِ بِالحَقِّ

والإِنْسَانُ السَّوِيُّ لا يَقْتَصِرُ عَلَى رُؤْيَةِ نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ فَقَط، والاسْــتِئْنَاسِ بِهَا فِي خَلَوَاتِهِ، فَيَعْشَــقُهَا، فَيُصْبِحُ نَرْجَسِيًّا،

مُنْطَوِياً عَلَيْهَـا، ذَا طَابَع أَنَانِيّ، مَا قَد يَدْفَعُهُ إِلَى التَّقْصِيرِ فِي كَثِير مِـن جَوَانِبِ الحَيَاةِ الاجْتِمَاعِيَّـة العَمَلِيَّةِ، والإِيجَابِيَّةِ تُجَاهَ الآخَرِينَ، وتُجَاهَ نَفْسِـهِ، لِبُعْدِهِ عَن الاخْتِلاطِ بِغَيْرِهِ، واكْتِسَابِ الخِبْرَةِ عَنْهُم، والمَعْرِفَةِ.

بَيْنَمَا الأَمْرُ الطَّبَعِي أَن يَرَى الإِنْسَـانُ غَيْـرَهُ أَكْثَر مِمَّا يَسْتَشِـفُّ هَيْئَةَ نَفْسِهِ بِنَفْسِـهِ، حَتَّى تنشَـأَ بَيْنَهُم المَعْرِفَةُ، والأُلْفَـةُ، والمَحَبَّةُ، كَمَا أَشَـارَ إِلَى ذَلِكَ القُـرْآنُ الكَرِيمُ، عِنْدَ قَولِهِ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

(المُوَارَاةُ) مُعِيْنُ خَيْرٍ لِفِعْلِ الطَّاعَاتِ

ونَجِدُ (المُوَارَاةَ) سُلُوكاً سَلِيماً، صَحِيحاً، نَافِعاً رَغَّبَ فِيهِ الشَّارِعُ الحَكِيمُ فِي أَعْمَالِ البِرِّ، والنَّوَافِلِ، مِن صَلاة، وصِيَام، وصَدَقَة؛ حَذَراً مِنْ الرِّيَاءِ، والسُّمْعَةِ، اللَّذَيْنِ يُحْبِطَانِ العَمَل الصَّالِحَ يومَ القِيَامَةِ، قَالَ تَعَالَى فِي كَيْفِيَّةِ بَذْلِ الصَّدَقَاتِ: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧١]، فَالإِعْلَانُ لمَنْ يُقْتَدَى بِهِ، والإِخْفَاءُ يَحْفَظُ لِلفَقِيرِ كَرَامَتَهِ، ولِلمُنْفِقِ أَجْرَ عَمَلِهِ الصَّالِح، واللهُ أَعْلَمُ.

بَيْنَمَا أَمَرَ بِأَدَاءِ مَا فَرَضَ عَلَيْهِم مِنْ صَلاَةٍ فِي جَمَاعَةٍ، إِعْلاناً لإِظْهَارِ الخُضُوعِ للهِ وَحدَهُ، وحِفَاظاً، وتِبْيَاناً لأَرْكَانِ الإِسْلامِ الخَمْسَة، قَالَ الرَّسُولُ الكَرِيمُ ﷺ: «**إِنَّ أَخْوفَ مَا أَخَافُ عَلَيكُمُ الشِّرْكَ الأَصْغَر**». «قَالُوا: ومَا الشِّرْكُ الأَصْغَرُ

يَا رَسُولَ اللهِ؟! قَالَ: «**الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللهُ، عَزَّ وجَلَّ، لَهُم يَوْمَ القِيَامَةِ، إِذَا جَازَى النَّاسَ بِأَعْمَالِهِم: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُم تُرَاؤونَ فِي الدُّنْيَا، فانْظُروا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُم جَزَاءً!!**».

أَمَّـا (تَوارِي) أَهْـلِ المَعاصِي عَنْ أَعْيُـنِ النَّاسِ عِنْدَ تَلَبُّسِهِم بالمَعْصِيَةِ خَوْفاً، أو خَجَلاً، فَهُوَ خَيْرٌ، إِذْ هُوَ نَوْعٌ مِنْ يَقْظَةِ الضَّمِيرِ، واعْتِرافٌ مِنْهُم بِالفِسْـقِ عَنْ أَمْرِ اللهِ، وغَلَبَةِ النَّفْسِ الأَمَّارَةِ بِالسُّـوءِ، فَلاَ يَقْتَضِـي الأَمْرُ التَّنْقِيبَ عَنْهُم، أَو التَّجَسُّـسَ عَلَيهِم، أَو التَّحَسُّـسَ مِنْهُم، مَا لَم يُجَاهِروا بِمَعْصِيَتِهِم أَمَامَ المَلأ، جَاءَ فِي الأَثَرِ:

«**لا يَزَالُ العَذَابُ مَكْشُوفاً عَنِ العِبَادِ مَا اسْتَتَروا بِمَعَاصِي اللهِ، فَإِذَا أَعْلَنُوهَا اسْتَوجَبُوا عَذَابَ اللهِ**».

فالحُدُودُ تُدْرَأُ بِالشُّـبُهَاتِ، مَا يُتِيحُ لِمَـن أَرَادَ اللهُ لَهُ الهِدَايَةَ، فُرْصَةَ التَوبَةِ، والإِنَابَةِ، بِدَافـعٍ مِنَ القَنَاعَةِ الذَّاتِيَّةِ عِنْدَهُ حِينَ أَفَاقَ ضَمِيرُهُ.

وقَد يَكُونُ (تَوَارِي) العَاصِي عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ في أَثْنَاءَ ارتِكَابِـهِ مَعْصِيَةً، دَلِيـلُ أَمَانٍ، آخِرَ الزَّمَانِ، ومُبَشِّـراً بِبَقِيَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فِيمَنْ تَبَقَّى مِنَ المُسْـلِمِينَ حِينَذَاكَ، فَمِن أَشْـرَاطِ السَّاعَةِ: أَنْ «يُشْرَبَ الخَمْرُ، ويَظْهَرَ الزِّنَا» كِنَايَةً عَن تَفَشِّيهِمَا بَيْنَ النّاسِ، دُونَ إِنْكَارِ بَعْضِهِم عَلَى بَعْض، كالَّذِي كَانَ مِن بَنِي إِسْرائِيلَ، «لَمَّا وَقَعَ فِيهِم النَّقْصُ، كَانَ الرَّجُلُ فِيهِم يَرَى أَخَـاهُ يَقَعُ عَلَى الذَّنْبِ فَيَنْهَاهُ عَنْهُ، فَـإِذَا كَانَ الغَدُ لَمْ يَمْنَعْهُ مَا رَأَي مِنْهُ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ، وشَرِيبَهُ، وخَلِيطَهُ، فَضَرَبَ اللهُ قُلوبَ بَعْضِهِم بِبَعْض».

ونَزَلَ فِيهِم قَـوْلَ اللهِ تَعَالَى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨ – ٧٩].

فَالَّذِي (يَتَوَارَى) حِينَ مُبَاشَـرَتِهِ فِعْلَ المَعْصِيَةِ، يُدَلِّلُ عَلَى يَقْظَةِ حِسِّهِ بِالخَطَأِ، وشُعُورِهِ بِالخَوفِ مِنْ عِقَابِ اللهِ،

ولَكِنْ غَلَبَتْهُ نَفْسُــهُ الأَمَّارَةُ بالســوء، كالَّذِي وقَعَ للذي لَمْ يَعْمَلْ خَيْراً قَطُّ، حِينَ أَوصَى عِيَالَهُ بِأَنْ يُحَرِّقُوهُ، ثُمَّ يَسْحَقُوهُ، ثُمَّ يَذْرُوا رمَــادَهُ فِي يَومٍ عَاصِفٍ، بَعْدَ مَوتِــهِ، فَجَمَعَهُ اللهُ عَزَّ وجَــلَّ، فَقَالَ لهُ: (**مَا حَمَلَكَ عَلَى مَــا صَنَعْتَ؟!**) قَالَ: مَخَافَتُكَ، فَتَلقَاهُ بِرَحْمَتِهِ. فَكانَ أَقْرَبَ الضَّالِينَ إِلَى الهُدَى حِينَذاكَ، وَتَحْتَ مَشِيئَةِ اللهِ يَومَ القِيَامَةِ.

جَاءَ فِي الحَدِيثِ عِنْدَ أَبِي دَاودَ فِي المَلاحِمِ مِنْ سُــنَنِهِ مَرْفُوعاً: «**إِذَا عُمِلَتِ الخَطِيئَةُ فِي الأَرْضِ كَانَ مَن شَــهِدَهَا فَكَرِهَهَا، أَو قَالَ: أَنكَرَهَا، كَانَ كَمَنْ غَابَ عَنْهَا، ومَن غَابَ عَنْهَا فَرَضِيَهَا كَانَ كَمَن شَهِدَهَا**».

ومِمَّــنْ (يَتوارَوْنَ) عَنِ النَّاس خَجَــلاً، المَدِينُ القَادِرُ عَلَى تَحْصِيلِ مَا عَلَيْهِ مِنَ الدَّيْنِ تَكَسُّــباً، غَيــرَ أَنَّ الفُرْصَةَ لَم تُواتِهِ للسَّــدَادِ (يَتوارَى) عَمَّنْ دَانَهُ، بَعْدَ انْقِضَاءِ الأَجَلِ المُضْروبِ بَيْنَهُمَا، حَياءً، وخَجَلاً مــن خُلْفِهِ الوَعْدَ، وهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ فِي السَّــدَادِ عندَما استَدانَ، ولَمْ يَكُنْ كَمَا جَاءَ

فِي الحَدِيــثِ: «**أَدَّانٌ مُعْرِضٌ**». أَيْ: اسْــتَدَانَ ولَم يُبَالِ مَا يَكُونُ من التَّبِعَةِ، فَلا يُعدُّ مُخْلِفاً وَعْدَهُ، إِذْ «لَيْس الخُلْفُ أَنْ يَعِدَ الرَّجُلُ وفِي نِيَّتِهِ أَن يَفِيَ».

بِخِلافِ مَن تَعَمَّــدَ الخُلْفَ فِي وَعْدِهِ ابْتِدَاءً دُونَ عُذْر، ونَــوَاهُ، وهُو مَلِيءٌ، ولَجَــأَ إِلَى المُمَاطَلَةِ وَسِــيلَةً لابْتِزَازِ الدَّائِنِ، أو الضَّغْطِ عَلَيْهِ لِيُسَــاوِمَهُ باقتطاع جُــزْءٍ مِنْ حَقِّهِ مُقَابِلَ تَسْدِيدِ مَا تَبَقَّى عَلَيْهِ، فَقَدْ ظَلَمَهُ، وظَلَمَ نَفْسَهُ.

وَحَقُّ الغَنيِّ كَحَقِّ مَنْ دُونَهُ فِي الغِنَى، مِن حَيْثُ وجُوبِ الوَفَاءِ لَهُ.

وأَمَّــا مَنْ ثَبَتَ إِعْسَــارُهُ، فَإِنَّهُ يُعْطَى مِن الزَّكَاةِ سَــهْمَ الغَارِمِينَ، ويُتَصَدَّقُ عَلَيهِ؛ لمُسَــاعَدَتِهِ عَلَى الوَفَاءِ والمَرْأَةُ كالرَّجُلِ، دَائِنَةً، أَو مَدِينَةً.

(المُوَارَاةُ) لَا تَعْفِي صَاحِبَهَا مِنَ المَسْؤُولِيَّةِ الفَرْدِيَّةِ أَوِ الجَمَاعِيَةِ

فالَّذِي (يَتَوارَى) عَنْ تَغْيِيرِ مُنْكَرٍ رَآهُ فِي حِينِهِ، وهُوَ قَادِرٌ عَلَى تَغْيِيرِهِ بيَدِهِ، أَو بِلِسَانِهِ، إِمَّا أَن يَكُونَ فَاقِدَ الغَيْرَةِ عَلَى حُدودِ اللهِ، أَو مِمَّنْ يَخْشَى فِي اللهِ لَوْمَةَ لائِمٍ، أَو مِمَّنْ يُضَيِّعُ حُقُوقَ الآخَرِينَ عَلَيْهِ، عُقُوقًا مِنْهُ، مُؤَوِّلًا قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: «**مَن رَأَى مِنْكُم مُنكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ**».

عَلَى أَنَّهُ فَرْضُ كِفَايَةٍ، يَتَأَكَّدُ فِي حَقِّ رِجَالِ الحِسْبَةِ، مُسْتَدِلًّا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فَأَمَّا الأَوَّلُ فَقَدْ تَسَاوَى عِنْدَهُ حَقُّ الخَالِقِ، مَعَ حَقِّ المَخْلُوقِ، بِدَعوَى المُنَادَاةِ بِالحُرِيَّةِ الشَّخصِيَّةِ لِلجَمِيعِ، بِأَنْ

يَفْعَلَ النَّاسُ مَا يَشَاؤونَ،، وتَرْكِ مَا لَا يَشَاؤونَ، حَتَّى إِن كَانَ ذَلِكَ بَيْنَ سَمْعِ الأَرْضِ، وبصَرِهَا، إذا تَرَاضَوا بَيْنَهم، فَمَثَلُهُ مَثَلُ مَن قَالَ اللهُ عَنْهُ: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

أَمَّا الثَّانِي فَقَد آثَرَ حَقَّ نَفْسِهِ فِي الرَّاحَةِ، والسَّلَامَةِ، عَلَى حَقِّ مُجْتَمَعِهِ فِي النَّصِيحَةِ، والأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، والنَّهْيِ عَنْ المُنْكَرِ، مُتَأَوِّلًا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٥]، زَاعِمًا عَدَمَ وجُوبِ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، والنَّهْيِ عَن المُنْكَرِ مِمَّن كَانَ مُهْتَدِيًا فِي نَفْسِهِ.

والصَّحِيحُ الَّذِي عَلَيهِ أَكْثَرُ أَهْلِ العِلْمِ: رَفْعُ الحَرَجِ عَنْهُ بَعْدَ أَدَائِهِ وَاجِبُ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ، لَا يَضُرُّهُ بَعْدَ ذَلِكَ ضَلَالُ مَن ضَلَّ، وعِصْيَانُ مَنْ عَصَى، وهَذَا مَا أَخَذَ بِهِ الخَلِيفَةُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيق، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ

اللهِ ﷺ يَقُــولُ: «**إنَّ النَّاسَ إِذَا رَأوا المُنْكَــرِ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ**». وفِي رِوَايةٍ: «**إِذَا رَأَوا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ، أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابِهِ**» وللرَّعِيَّةِ الإِنْكَارُ بِالِّلسَــانِ، والقَلْبِ، واللهُ أَعْلَمُ.

(التَّوارِي) حِيلَةً وتَرَبُّصًا بالآخَرِينَ لَيْسَ مِنَ المُروءَةِ

كَالَّذِي (يَتَوارَى) تَعَالِيًا، وكِبْرًا خَلْفَ نَسَبِ أَبِيهِ، ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ﴾ [المعارج: ١٣]، أَو ثَرْوَتِهِ، أَو أَلْقَابِهِ الاجتِمَاعِيَّة، هُوَ عِظَامِيٌّ، يَرتَقِي عَلَى أَكْتَافِ غَيرِهِ، وقَدْ يَكُونُ ذَا عُيُوبٍ خَلْقِيَّةٍ، أَو خُلُقِيَّةٍ، تُنْقِصُ مِنْ قَدْرِهِ عِنْدَ نَفْسِهِ، فَيَعْمَدُ إِلَى إِخْفَائِهَا عَنْ الآخَرِينَ بِمَا يَظُنُّهُ صَوَابًا، مِنْ مَظَاهِرَ خَدَّاعَةٍ، كَاذِبَةٍ، يَدَّعِي الاستِحْقَاقَ لشَخْصِهِ، مُعْطِيًا نَفْسَهُ الحَقَّ فِي الحُصُولِ عَلَى امتِيَازَاتٍ لَا يَسْتَحِقُّهَا، ورُبَّمَا تَطَاوَلَ عَلَى الآخَرِينَ، ظُلْمًا، وعُدْوَانًا عِنْدَ طَلَبِهَا.

مِثْلُ هَذَا يُقَالُ لَهُ: لا تُحَاوِلْ أَنْ تَجْعَلَ مَلَابِسَكَ الَّتِي تَرْتَدِيهَا أَغْلَى شَيْءٌ فِيكَ، حَتَّى لَا تَجِدَ نَفْسَكَ يَوْمًا أَرْخَصَ مِمَّا تَرْتَدِيهِ!!.

والمَرْءُ إِذَا أَعْطَى نَفْسَهُ كَلَّ شَيْءٍ، ولَمْ يَنْهَهَا، تَاقَتْ إِلَى كُلِّ بَاطِلٍ، فَيُصْبِحُ صَاحِبُهَا عَالَةً ثَقِيلَةً عَلَى مُجْتَمَعِهِ، نَفْعُهُ قَليلٌ، ومُسْتَلزَمَاتُ نَفْسِهِ مِنَ الكَمَالِيَّاتِ كَثِيرٌ، فَهُوَ مِمَّن يُحِبُّ أَنْ يُحْمَدَ بِمَا لَمْ يَفْعَل، يَعِيشُ حَالَةَ فَرَاغٍ كَبِيرٍ، ويَجِدُ مِن نَّفسِهِ نَشَاطًا، ورَغْبَةً فِي الحَرَكةِ مِن غَيْرِ هَدَفٍ مُحَدَّدٍ، مِمَّا قَد يَدْفَعُهُ لِلانْغِمَاسِ فِي المَلَذَّاتِ، واتِّبَاعِ الشَّهَواتِ، مِنْ مُوبِقَاتٍ، وغَيْرِهَا.

فَإِنْ كَانَ شَابًّا مَكْفُولًا أَغْرَاهُ المَالُ الَّذِي يُغْدَقُ عَلَيْهِ بِلَا مُحَاسَبَة، بِفِعْلِ المَعْصِيَةِ، فَيَصدُقُ عَلَيْهِ مَا تَوَقَّعَهُ الشَّاعِرُ، حِينَ قَالَ:

عَلِمْتَ يَا مُجَاشِعُ بنُ مَسْعَدَةْ

أَنَّ الشَّبَابَ والفَرَاغَ والجِدَةْ

مَفْسَدةٌ للمَرْءِ، أَيَّ مَفْسَدَةْ.

ولِسَانُ حَالِهِ عِنْدَ يَقْظَةِ ضَمِيرِهِ، ومُحَاسَبَتِهِ نَفْسَهُ يَقولُ:

أَطَعْتُ النَّفْسَ في الشَّهَواتِ حَتَّى
أَعَـــادَتْنِي عَسِـــــيفًا عَبْدَ عَبْدِ

وقَد يُشَكِّلُ فِي مُحِيطِهِ الاجْتِمَاعِي بُؤْرَةَ فَسَادٍ، كقِطْعَةِ حَلْوَى، امتَزَجَتْ بلُعَابِ فَأْرٍ، اكتَنَفَهَا ذُبَابٌ أَزْرَق، فشَكَّلوا خَلِيَّةَ سُوءٍ، مِن سُوءٍ، لَا يَأْتُونَ فِي نَادِيهِم إِلَّا المُنْكَرَ.

فَالإِفْرَاطُ فِي الأُنْسِ يُكْسِـــبُ قُرَنَاءَ السُّوءِ، وَصَاحِبُ الشَّرِ لَا يَسْلَمُ مِنْهُ أَحَدٌ، وإِنْ هُوَ ضَعُفَ عَنْ ذَلِكَ، جَاءَ الشَّرُّ بِسَبَبِهِ.!!

وهَذَا النَّوعُ مِنَ البَشَـــرِ، ومَنْ يُشَابِهُهُ، اسْـــتَحْوَذَ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَـــاهُ ذِكْرَ رَبِّهِ، فَرَقَى عَلَى البَاطِلِ، ولَبِسَ ثَوْبَيْ زُورٍ، يتَزَيَّنُ بِمَا لَيْسَ عِنْدَهُ، ويُكَاثِرُ بِهِ، فَيَكُونُ قَد كَذَبَ عَلَى نَفْسِـــهِ بِمَا لَمْ يَأْخُذْ، وكَذَبَ عَلَى غَيْرِهِ بِمَا لَمْ يُعْطِه، فَأَشْبَهَ شَـــاهِدَيْ زُورٍ، ظَلَمَ نَفْسَهُ، وظَلَمَ المَشْـــهُودَ عَلَيهِ بِشَهَادَتِهِ الكَاذِبَةِ، فَكَيْفَ يَجِدُ لَهُ عِنْدَ مَن عَرَفَهُ تَقْدِيرًا، أَو تَزكِيَةً، بَعْدَ انْكِشَافِ أَمْرِهِ، إِنْ عَاجِلًا، أَو آجلًا؟!!.

ويَــوْمَ القِيَامَةِ لَنْ يَفْلِــتَ مِنَ العِقَــابِ، واللهُ قَالَ فِي الكِتَــابِ العَزِيــز: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

المُتَكَلِّفُ فَوْقَ الحَقِيقَةِ (مُتَوَارٍ) فَقَدَ مِصْدَاقِيَّتَهُ

ولَعَلَّ المُتَّخِذَاتِ مِنَ النِّسَاءِ أَنْوَاعَ الزِّينَةِ المُصَنَّعَةِ، مِنْ مَسَاحِيقَ مُنَوَّعَةٍ، قِيلَ إِنَّهَا «تَحْتَوِي عَلَى مَوَادَّ مُسَرْطَنَةٍ، مَعْرُوفَةٍ، أَو مُحْتَمَلَةٍ، أَو مُمْكِنَةٍ». [مُجَلَّةُ عَالَمُ الغِذَاءِ، العَدَدُ: ١٦٨ الرِّيَاض] بِتَصَرُّفٍ.

(يَتَوَارَيْنَ) خَلْفَهَا لِخِدَاعِ الآخَرِينَ، أَو مُحَاكَاةٍ لِلأُخْرَيَاتِ، يَقَعُ عَلَيْهِنَّ إِثْمُ التَّزْوِيرِ أَيْضًا، بِمَا يَفْعَلْنَهُ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِن تَلْبِيس، وتَدْلِيس لخَلْقِهِنَّ، ومِنْهُنَّ مَنْ يَلْجَأْنَ إِلَى إِجْرَاءِ عَمَلِيَّاتٍ جِرَاحِيَّةٍ، تَجْمِيلِيَّةٍ، بِوجُوهِهِنَّ، وتَغْيِيرِ مَلَامِحِهُنَّ، مُحَقِّقَات وعْدَ الشَّيْطَانِ: ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ

خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء: ١١٨ – ١٢٠].

وَكُلُّ هَـذَا الخِدَاعِ يَتَبَيَّنُ زَيْفُهُ بَعْدَ زَوالِ آثَارِهِ، مِنْ نَوْمٍ، أَو اغْتِسَالٍ، ولَا تَبْقَى لَهُ فَائِدَةٌ، وتَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ خَسَارَةٌ مَادِّيَّةٌ، فَكَأَنَّ إِحْدَاهُنَّ:

تَدُسُّ إِلَـى العَطَّارِ مِيـرَةَ أَهْلِهَا
وَلَنْ يُصْلِحَ العَطَّارُ مَا أَفْسَدَ الدَّهْرُ

وتَبْقَى الحَقِيقَةُ مَاثِلَةً:

«بِأَنَّ الجَمَالَ كَاذِبٌ، والحُسْنَ مُخْلِفٌ، وإِنَّمَا تَسْتَحِقُّ المَدْحَ المَرْأَةُ المُوافِقَةُ». فِي رَجَاحَـةِ عَقْلِهَا، وبُعْدِ نَظَرِهَا فِي عَوَاقِبِ الأُمُورِ فِيمَا يَعُودُ عَلَيْهَا بِمَا يَحْفَظُ سَلَامَةَ دِينِهَا، وَبَقَاءِ عِفَّتِهَا، وَكَرَامَتِهَا.

فَتَقْوِيـمُ الجَمَالِ بَيْنَ النَّاسِ مَسْـأَلَةٌ نِسْـبِيَّةٌ، تَخْتَلِفُ صُعُودًا، وهُبوطًا مِن إِنْسَانٍ إِلَى آخَرَ، فَمَا تَرَاهُ جَمِيلًا قَدْ لَا

أَرَاهُ كَذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ نَفْسِهَا، والكُلُّ يَبْحَثُ عَمَّا يُلَائِمُهُ مِن بَيْن بَنِي جِنْسِهِ إِذَا أَحْسَنَ الاخْتِيَارَ، وحَالَفَهُ التَّوْفِيقُ:

فَلِكُلِّ سَــاقِطَةٍ فِي الحَيِّ لَاقِطَةٌ

ولكُلِّ كَاسِــدَةٍ يَومًا لَهَا سُــوقُ

فَأُولَئِكَ المُتَكَلِّفُونَ يَصْدُقُ عَلَيْهِم قَولُ الشَّاعِرِ:

أَلْزَمْتَ نَفْسَكَ شَيْئًا لَيْسَ يَلْزَمُهَا

أَلَّا يُوَارِيَهُــــم أرضٌ ولَا عَلَــــمُ

فَيَتَكَلَّفُونَ فِي مَلْبَسِهِم، وَمَرْكَبِهِم، ومَسْكَنِهِم، وأَدَواتِ زِينَتِهِم، بِمَا قد يَفُوقُ دَخْلَهُــم الحَقِيقِيّ، مِمَّا قَد يَضْطَرُّهُم إِلى الاسْــتِدَانَةِ، رُبَّمَا بِالرِّبَا، أَو بِغَيْرِهِ مِنْ وَسَــائِلِ الحَرَامِ، لِيَسْتَكْمِلُوا لَوازِمَ تَصَنُّعِهِم، ويَصْدُقُ عَلَيْهِم قَوْلُ القَائِلِ:

أُعَلِّــلُ نَفْسِــي بِمَا لَا يَكُــونُ

كَمَــا يَفْعَــلُ المَائِــقُ الأَحْمَقُ

وتَجِدُهـــنَّ فِـــي الغَالِبِ مِمَّـــنْ يُقتِّرُ عَلَى مَـــنْ يَعُولُ، ويَحْرِمُهُمْ بَعْضَ الضَرورِيَّاتِ المَعِيشِيَّةِ.

وَيَقَعُ بَيْنَ الزَّوجَيْنِ شِجَارٌ بِسَبَبِهِ قَد يَفْتَرِقَانِ، وإِنْ كَانَتْ ذَاتَ دَخْـــلٍ خَاصٍّ بِهَا، أَنفَقَتْ مِنْهُ مَا لا يُسْـــتَهَانُ بِهِ لِتَأْمِينِ مُسْتَلْزَمَاتِهَا مِنْ تِلْكَ الزِّينَةِ المُزِيَّفَةِ، وحَرَمَت نَفْسَهَا بَعْضَ طَيِّبَاتِ الرِّزْقِ!!.

وأَمَّا القَانِعُ بِمَا رَزَقَهُ اللهُ رَاضِيًا بِمَا قَسَمَ لَهُ: «**إِنْ أَصَابَتْهُ نَعْمَاءُ شَكَرَ، وَإِن أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ**». فَقَد طَوَّعَ نَفْسَهُ عَلَى عَدَمِ التَّطَلُّـــعِ إِلَى مَا بأَيْدِي الآخَرِينَ، مِمَّنْ هُمْ أَوسَـــعُ مِنْهُ فِي الرِّزْقِ، أَو الحُسْنِ، بَلْ يَتَطَلَّعُ إِلَى مَنْ هُمُ دُونَهُ، فَيَحْمَدِ اللهِ، عَلَى مَا تَفَضَّلَ بِهِ عَلَيهِ، فَـــلَا يَزْدَرِي نِعَمَهُ، ولَا يَتَمَنَّى مَـــا لَيْسَ بِمَقْدُورِهِ الحُصُولُ عَلَيْهِ بالحَلالِ، ولا يَكْتَرِثُ بِمَا يَقُولُهُ المُرْجِفُونَ فِي المَدِينَةِ عَنْهُ، بِخِلافِ الأَوَّلِ الَّذِي يَهْتَمُّ لِذَلِكَ. فَقَدْ قِيلَ: خَوِّفِ المُؤْمِنَ باللهِ، والمُنَافِقَ بالسُّلْطَانِ، والمُرَائِي بالنَّاسِ.

وَالأَحْسَنُ مِنهُ الأَخْذُ بِنَصِيحَةِ القَائِلِ:

إِنْ دَحَسُــوا بِالْكُرْهِ فَاعْفُ تَكَرُّمًا

وَإِنْ غَيَّبُوا عَنْكَ الحَدِيثَ فَلَا تَسَلْ

أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ فِي سُنَنِهِ، مِنْ كِتَابِ صِفَةِ القِيَامَةِ، عَنْ عَبدِاللهِ بنِ عَمْرٍو يَرْفَعُهُ: «**خِصْلَتَــانِ مَنْ كَانَتَا فِيهِ كَتَبَهُ اللهُ شَــاكِرًا، صَابِرًا، وَمَن لَمْ تَكونَا فِيهِ لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ شَاكِرًا، ولَا صَابِرًا: مَنْ نَظَرَ فِي دِينِهِ إِلَى مَنْ هُــوَ فَوْقَهُ فَاقْتَدَى بِهِ، ومَنْ نَظَرَ فِي دُنْيَاهُ إِلَى مَــنْ هُوَ دُونَه، فَحَمِدَ الله عَلَى مَا فَضَّلَهُ بِهِ عَلَيْهِ، كَتَبَهُ اللهُ شَــاكِرًا، وصَابِرًا، ومَنْ نَظَرَ فِي دِينِهِ إِلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ، ونَظَرَ فِي دُنْيَاهُ إِلَى مَنْ هُوَ فَوقَهُ، فَأَسِــفَ عَلى مَا فَاتَه مِنْهُ، لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ شَاكِرًا، ولَا صَابِرًا**».

وقَالَ الشَّاعِرُ

والنَّفْسُ رَاغِبَــــةٌ إِذَا رغَّبْتَــها

وإِنْ تُــرَدُّ إِلَــى قَلِيــلٍ تَقْنَعُ

ولِلصَّبْـرِ فِي حَيَاةِ المُسْـلِمِ أَهَمِيَّـةٌ قُصْوى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وَهُو أَنْـواعٌ: صَبْرٌ عَلَى طَاعَةِ اللهِ، وصَبْرٌ عَلَى قَضَاءِ اللهِ، وصَبْرٌ عَلَى تَرْكِ مَعْصِيَةِ اللهِ، إِرْضَاءً للهِ، فَهُوَ بِمَعْنَى الحَبْسُ للنَّفْسِ عَن شَـهَوَاتِهَا المُحَرَّمَةِ، وأَلَّا تَجْزَعَ مِمَّا يُصِيبُهَا مِنْ نَكَبَـاتٍ، ومَصَائِبَ، فَالصَّابِرُ يَعُودُ، وَيَلُوذُ بِرَبِّهِ عِنْدَ وقوعِهَا، امتِثَالًا لِقَوْلِهِ سُـبْحَانَهُ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ – ١٥٧].

والعَاجِزُ يَلُـومُ حَظَّهُ، ويَجْزَعُ عِنْدَ المُصِيبَةِ، وَيَنْسَـى حَظَّهُ مِنَ الإِيمَانِ بِقَضَاءِ اللهِ، وقَدَرِه.

ومِن مَلِيحِ مَا قِيلَ فِي القَنَاعَةِ، والصَّبْرِ:

قَـدْ أَرَحْنَا واسْـتَرَحْنَا

مِـنْ غُـدُوٍّ ورَوَاحِ

واتِّصَـــــالٍ بِلَئِيـــمٍ
أَو كَرِيمٍ ذِي سَـــمَاحِ
وجَعَلْنَا الصَّبْرَ مِفْتَاحـــ
ـــــاً لأَبْوابِ النَّجَاحِ

والأَمَلُ يُشْـبِهُ الصَّبْرَ في كَوْنِ نِتَاجِهمَا (مُتَوَارِيًا) غَيْرَ ظَاهِرٍ فِي البِدَايَـةِ، يَحْتَاجُ إِلَى انْتِظَـارٍ، وتَرَقُّبٍ، وبالأَمَلِ يَعِيشُ الإِنْسَانُ حَيَاةً رَاضِيَةً، هَانِئَةً:

أُعَلِّلُ النَّفْـسَ بالآمَـالِ أَرقُبُهَا
مَا أَضيْقَ العَيْشَ لَولَا فَسْحَةُ الأَمَلِ

وقال مُحَمَّدُ بنُ يَسِيرٍ:

إِنَّ الأُمُـورَ إِذَا اسْـتَدَّتْ مَسَـالِكُهَا
فالصَّبْـرُ يَفْتَحُ مِنْهَـا كُلَّ مَـا ارتُتِجَا
لَا تَيْأَسَـنَّ وإِنْ طَالَـتْ مُطَالَبَةٌ
إِذَا اسْـتَعَنْتَ بِصَبْـرٍ، أَنْ تَـرَى فَرَجَا

أَخْلِــقْ بِذِي الصَّبْــرِ أَنْ يَحْظَى بِحَاجَتِهِ
ومُدْمِــنُ القَــرْعِ للأَبْــوابِ أَنْ يَلِجَا

وقَدْ قِيلَ: الصِّدْقُ فِي القَولِ يُحَقِّقُ الصِّدْقَ فِي الأَمَلِ، فَلَا تَكْذِبِ القَوْلَ، فَتُكْذَبِ الأَمَلَ!!.

(المُتَوَارِي) وقَاعِدَةُ الجَزَاءِ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ

وهُنَاكَ مَنْ (يَتَوَارَى) خَلْفَ سُلْطَانِهِ، بِمَدَى حَجْمِ تَغَلْغُلِ نُفُوذِهِ، وسَطْوَتِهِ فِي المُجْتَمَعِ، فيَظْلِمُ، ويَتَجبَّرُ، ويَغْمِطُ النَّاسَ حُقُوقَهُم، ويَسْتَولِي عَلَيْهَا بطُرقٍ مُلْتَوِيَةٍ، فَيَعْمَدُون إِلى اتِّقَاءِ شَرِّهِ بِمُحَابَاتِهِ، مَا يُجَسِّدُ المَحْسُوبِيَّةَ الظَّالِمَةَ فِي فِعْلِهِ، فَقَدْ يَجْعَلُ مِنْ صَاحِبِ الحَقِّ مُدَّعِياً، ومِن صَاحِبِ البَاطِلِ مُحِقًّا.

مِن سِمَاتِهِ: الكِبْرُ، وبَطَرُ الحَقِّ، والجَشَعُ فِي حُبِّ المَالِ.

(يَتَوَارَى) عَن القَوْم خَشْيَةَ الانْتِقَامِ مِنْهُ، يَنْسَاقُ خَلْفَ شَهْوَةِ نَفْسِهِ الشَّاذَّةِ، والشِّرِيرَة، ويَعْتَمِدُ البَطْشَ وَسِيلَةً لِيُطْفِئَ غَضَبَهُ، عِندَمَا لَا يَجِدُ حَولَهُ مَنْ يَثِقُ بِهِ، حَتَّى أَخَافَ النَّاسَ مِنْهُ، وَأَخَافَ نَفْسَهُ مِنَ النَّاسِ، فَلَمْ يَأْمَنْ إِلَى أَحَدٍ، وَلَمْ يَأْمَنْ إِلَيْهِ أَحَدٌ.

وقــدْ قِيلَ: «مَنْ أَكَلَ بِبَاطِلٍ، جَــاعَ بِحَقٍّ». أَيْ: إِنَّ اللهَ قَد يَبْتَلِيهِ بِمَرَضٍ يَجْعَلُهُ لَا يَسْتَطِيعُ الأَكْلَ مِن أَكْثَرِ مَا جَمَعَ، أَو أَنْ يُنْفِــقَ مُعْظَمَهُ فِي البَحْثِ عَنْ عِــلَاجٍ لِعِلَّتِهِ، ويُدْرِكُهُ المَوْتُ، فَيَرِثُهُ مَــنْ يَتَمَتَّعُ بِتَرِكَتِهِ مِنْ بَعْدِهِ، ويَحْمِلُ هُوَ وِزْرَ جَمْعِهِ لَهَا يَومَ القِيَامَةِ.

«فَمَن اسْتَغَلَّ وَسِيلَةً فِي بَاطِلٍ، أَرَاهُ اللهُ قُبْحَهَا بِحَقٍ». فَالقَوِيُّ يُصْبِحُ ضَعِيفًا، والقَادِرُ عَاجِزًا.

والَّذِي يَتَوَهَّمُ الخَوْفَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى يُشَكِّلَ هَذَا الشُّعُورُ عِندهُ مَا يُسَمَّى بالوَسْوَاسِ القَهْرِي، فَهُوَ (يَتَوَارَى) خَلْــفَ حِرْصِهِ المُتَنَاهِــي لِبُلُوغِ دَرَجَةِ الرِّضَا عنْ نَفْسِــهِ، خَاصَّةً فِي أُمُورِ العِبَادَةِ الَّتِي تَتَطَلَّبُ الطَّهَارَةَ التَّامَّةَ.

قَالَ: «عَرَفْتُ عَجُوزًا تَمْشِــي، تُرِيدُ أَنْ تَمْشِي، تَخَافُ أَنْ تَمْشِــي». تَوَهَّمَتِ النَّجَاسَــةَ فِي كُلِّ شَــيْءٍ، بَدْءًا مِنْ جَسَدِهَا، وانْتِهَاءً بِكُلِّ مَا حَوْلَهَا، ومَنْ حَولَهَا، لَا تَكَادُ تَبْرَحُ مَوْضِعَ الاغْتِسَــالِ،أَو الوضُوءِ، حَتَّى تَعودَ إِلَيْهِ مُسْتأْنِفَةً، مَا

أَنْهَكَ قُوَاهَا، وصَيَّرَهَا كُتلَةً مِنَ اللَّحْمَ هَزِيلَةً، مَا شَـقَّ على بنتَيْهَا، فَدَفَعَ إِحْدَاهُمَا إِلى التَّفْكِيرِ فِي طَرِيقَةٍ غَرِيبَةٍ، تُعْرَفُ بالإِغْرَاق، فَقَدْ عَمَـدَتْ إِلَى جَمْعِ كِميَّةٍ مِنَ بَوْلِ إِنْسَـانٍ، فَدَلَقَتْهُ عَلَى رَأْسِ أُمِّهَا، بَعْـدَ أَنْ عَرَّفَتْهَا عَلَيْهِ، فَخَفَّ ذَلِكَ الوَسْوَاسُ لدَيْهَا كَثيرًا، ولِسَانُ حَالِهَا يُرَدِّدُ مَعَ الشَّاعِرِ قَوْلَهُ:

تَشْدُو وَقَدْ مَسَحَتْ عَنْهَا مَدَامِعَهَا:

أَنَا الغَرِيقُ فَمَـا خَوْفِي مِنَ البَلَلِ

فَتَحَقَّقَتْ بِذَلِكَ مُوَاجَهَةُ الأَمْرِ الوَاقِعِ، المَحْسُـوسِ، بَدَلَ (التَّوَارِي) عَنْهُ خَلْفَ المِثَالِيَّةِ المُتَوَهَّمَةِ.

وأَمَّا السُّـفَهَاءُ، أَو الَّذِيـنَ يَضْعُفُونَ أَمَامَ شَـهَوَاتِهِمْ، ورَغَبَاتِهِـم المَادِّيَّةِ، أَو مِمَّـنْ تَصْدُرُ عَنْهُم أَفْعَـالٌ مُخِلَّةٌ بِضَوَابِطِ الدِّينِ، أو الأَخلاق، أو المُروءَةِ، فَإِنَّهُم (يَتَوَارَوْنَ خَلْفَ الكَـذِبِ المُتَعَمَّدِ، بَحْثًا عَنْ مَلَاذٍ للنَّجَاةِ مِنَ العِقَابِ فِي الدُّنيَا، والتَّخَلُّـصِ مِنَ المَأْزِق الحَرِجِ الَّذِي وقَعُوا فِيهِ، وتَحْقِيق مَآرِبِهِمْ، ولَكِنَّهُم غَالِبًا مَا يقَعُونَ فِي شَرِّ أَعْمَالِهِم،

«فالكَذِبِ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ، وإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وإِنَّ الرَّجُلَ ليَكْذِبُ، ويَتَحَرَّى الكَذِبَ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا». أَو كَمَا قَالَ ﷺ.

أَرَادَ مُدِيرُ شَرِكَةٍ ذَكِيٌّ أَنْ يَتَعَرَّفَ إِلَى مِقْدَارِ صِدْقِ مُوَظَّفِيهِ، الَّذِي يَنْعَكِسُ عَلَى مِقْدَارِ أَمَانَتِهِم، وإِخْلَاصِهِم فِي العَمَلِ، فَأَعْطَى كُلَّ فَرْدٍ مِنْهُم بَذْرَةَ نَبَاتٍ، قَائِلًا لَهُم: سَأَرْصُدُ جَائِزَةً لِمَنْ يُحْسِنُ رِعَايَةَ هَذِهِ البَذْرَةِ حَتَّى تُصْبِحَ شُجَيْرَةً نَضِرَةً، بَعْدَ عَامٍ مِنْ هَذَا اليَومِ. وفِي المَوعِدِ المُحَدَّدِ جَاءَ كُلُّ مُوظَّفٍ بِشُجَيْرَةٍ فِي إِنَاءٍ، مَا خَلا وَاحِدًا مِنْهُم، وَقَفَ فِي نِهَايَةِ القَاعَةِ خَجِلًا، سَأَلَهُ المُديرُ عَن بَذْرَتِهِ، فَأَعْلَمَهُ بِأَنَّهُ هيَّأَ لَهَا أَحْسَنَ الاحْتِيَاجَاتِ المُنَاسِبَةِ مِنْ مَاءٍ، وتُرْبَةٍ، ورِعَايَةٍ بِمَا اسْتَطَاعَ، ولكِنَّهَا لَمْ تَنْبُتْ!!.

فَالْتَفَتَ المُدِيرُ إِلى بَقِيَّةِ مُوظَّفِيهِ، مُشِيدًا بِصِدْقِ، وأَمَانَةِ، ونَزَاهَةِ زَمِيلِهِم، وبِأَنَّهُم جَمِيعًا قَد كَذَبُوهُ، فَتَسَاءَلَ بَاقِي المُوظَّفينَ عَنِ السَّبَبِ؟!.

قَــالَ لَهُمْ: إِنَّ البُــذُورَ الَّتِــي أَعْطَيْتُكُمُوهَــا كُنْتُ قَد طَبَخْتُهَا، فَهِيَ غَيْرُ صَالِحَةٍ لِلإِنْبَــاتِ، وأَنْتُم دَفَعَكُم الطَّمَعُ إِلَى الكَذِبِ، فَاسْتَبْدَلْتُمْ السَــلِيمَةَ بالذي أخذتموه، مَا عَدَا صَاحِبَكُم هَذَا، الَّذِي عَيَّنْتُهُ نَائِبًا لِي فِي إِدَارَةِ الشَّــرِكَةِ، مُنذُ اللَّحْظَةِ. وأَمَرَ بِحَسْــمِ جُزْءٍ مِنْ روَاتِبِ الآخَرِينَ؛ لِسُــوءِ تَصَرُّفِهِم، وتَعَمُّدِهِم الكَذِبَ!.

(المُتَوَارِي) خَلْفَ الصِّدْقِ، حِيلَةً وَرِيَاءً لِتَحْقِيقِ أَغْرَاضِهِ الدَّنِيئَةِ

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ (يَتَوَارَى) خَلْفَ حَيَاةٍ يَحْيَاهَا مُزْدَوَجَةً، حِيْنَ يَكُونُ وَاقِعُهُ المَعِيشِيُّ مُنَاقِضًا لِحَقِيقَةِ عَيْشِهِ فِي الوَاقِعِ، فَهُوَ يَتَقَمَّصُ أَنْواعًا مِنَ الأَدْوَارِ أَمَامَ الآخَرِينَ، مُتَظَاهِرًا بالغِنَى، فَيَكْذِبُ قَوْلًا، وفِعْلًا فِيمَا يَخُصُّ مَكَانَتَهُ الاجتْمَاعِيَّةَ، وإِمْكَانَاتِهِ المَادِّيَّةَ، لِيبْتَزَّهُمْ، ويُحَقِّقَ مَآرِبَهُ فِي (مُوَارَاةِ) نَقْصِهِ.

مِنْ أَبْرَزِ صِفَاتِهِ الذَاتِيَّةِ: التَّكَلُّفُ الشَّدِيدُ فِي كُلِّ مَا يَتَعَلَّقُ بِمَظْهَرِهِ الخَارِجِيِّ، وَالتَّكَتُّمُ بِحِرْصٍ لِكُلِّ مَا يَدُورُ فِي واقِعِ مُحِيطِهِ الدَّاخِلِيِّ، يُكْثِرُ مِنْ الدَّعَاوَى، وَالوُعُودِ الكَاذِبَةِ، وَالأَيْمَانِ المُغَلَّظَةِ، لِيَجْعَلَ لأَقْوَالِهِ مِصْدَاقِيَّةً، كَثِيرُ الخَجَلِ مِنْ نَفْسِهِ لِكَثْرَةِ تَدْلِيسِهِ، وَيَصِفُ المُقَرَّبِينَ مِنْ أَهْلِهِ بِصِفَاتٍ، مُبَالِغٌ فِي مَدْحِهِم مِنْ حَيْثُ الأَصْلِ،

والنَّسَـــبِ، والغِنَى، لِيُقَاسَ بِهِمْ، ويَتَطَلَّـــعُ إِلَى مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ بِشَغَفٍ، وَيَتَظَاهَرُ بِخِلَافِ ذَلِكَ، وَيَتَرَفَّعُ عَنْ مُخَالَطَةِ البُسَـــطَاءِ، وَيَصِفُهُم بِالْمُنتَفِعِيْنَ، وَيُبَالِـــغُ جِدًّا فِي الحَفَاوَةِ بِالأَغْنِيَاءِ، وَوجَهَاءِ المُجْتَمَعِ.

هَذَا النَّوْعُ مِنَ النَّاسِ يَعِيش بُؤْسًـــا، وَيَقْتَاتُ شَقَاءً، فهوَ عوَّدَ نفسَه الشرَّ وَيَمُوتُ بِحَسْرَتِهِ كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ مَرَّةٍ، فَيُقَالُ لَهُ:

يَـــا أَيُّهَـــا المُتَحَلِّي غَيْرَ شِـــيمَتِهِ
وَمَنْ خَلَائِقِهُ الإِقْصَـــارُ وَالمَلَقُ

اِرْجِعْ إِلَى الحَقِّ إِمَا كُنْتَ فَاعِلَهُ
إِنَّ التَّخَلُّـــقَ يَأْتِي دُونَـــهُ الخُلُقُ

وَلَا يُواتِيكَ فِيمَا نَابَ مِنْ حَدَثٍ
إِلاَّ أَخُـــو ثِقَـــةٍ فَانْظُرْ بِمَـــنْ تَثِقُ

وهُنَاكَ مَنْ يَخْتِلُ النَّاسَ (بِتَوارِيهِ) المُفْتَعَلِ خَلْفَ إِظْهَارِ تَمَسُّـــكِهِ بالدِّيْنِ، والصَّلاحِ، والتَّقْوَى، يَسْتَمِيلُ بِهَا قُلُوبَ

الصُّلَحَاءِ، ويَنَالُ ثَنَاءَ الوجَهَـاءِ، لِتَحْقِيقِ مَصْلَحَةٍ دُنْيَويَّةٍ لَهُ عِنْدَهُم، وكَأَنَّهُ مِمَّنْ وَصَفَهُ الشَّاعِرُ بِقَوْلِهِ:

صَلَّى المُصَلِّـي لأَمْـرٍ كانَ يَطلُبُهُ
فَلَمَّا انْقَضَى الأَمْرُ لاَ صَلَّى ولاَ صَامَا

يُرْوى أَنَّ لَجْنَةً مِنْ إِحْدَي الجَامِعَاتِ السُّـعُودِيَّةِ، ذَهَبَتْ إِلَـى بَلَد عَرَبِيّ بِقَصْدِ التَّعَاقُدِ مَـعَ مُعَلِّمِينَ فِيْهَا، وكَانَ يَلْتَقِي بِأَعْضَائِهَا كُلُّ مُرَشَّـح لِذَلِكَ، فَدَخَلَ أَحَدُهُم، فَأَرادَ أَن يُمَهِّدَ لِنَفْسِهِ بالتَّوِدُّدِ إِلَى أَعْضَاءِ اللَّجْنَةِ المُحَافِظِينَ، وإِظْهَارِ حِرْصَهُ عَلَى ثَوَابِـتِ الدِّينِ الإِسـلاَمِي، فَبَادَرَهُم بِقَولِـهِ، مُتَصَنِّعاً المَسْكَنَةَ، والخُشُوعَ: إِنِّي - واللهِ - أَكرَهُ النَّبِيَّ، وآلَ بَيْتِهِ!!!؟.

ولَعَلَّـهُ مِمَّـن تَأَثَّـرَ بِالفِرْيَةِ الكُبْـرَي الَّتِـي رَوَّجَ لَهَا القُبُورِيُّونَ، المُنَاوِئُونَ لأَهْل السُّـنَّةِ والجَمَاعَةِ، مَفَادُهَا: أَنَّ بَعْضَ أَهلِ شِبْهَ الجَزِيرَةِ العَربيَّةِ، يَعْتَنِقُونَ المَذهَبَ الوَهَّابِيَّ، كَمَـا يَنْعَتُونَـهُ، ويُصَـوِّرُونَ أَتْبَاعَهُ مِمَّنْ يكْـرَهُ النَّبِيِّ ﷺ، وآلِ بَيْتِهِ؛ لأَنَّهُم لاَ يُجِيزُونَ التَّبَرُّكَ بِقُبُورِهِم، وطَلَبِ الغَوثِ

مِنهُم، والاسْتِعَانَة بهِم، ولاَ بِأَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، وقَدْ هَدَّمُوا المَبَانِي، والقِبَابَ الَّتِي عَلَى الأَضْرِحَةِ.

فأَقولُ لَهُ كَمَا قَالَ أَحَدُهُم لِمِثْلِهِ:

أَعَـصَـيـتَ أَمْـرَ أُلِـي النُّهَى
وأَطَـعْـتَ أَمْـرَ ذَوِي الجَهَالَةْ

والـعَـبْـدُ يُـقْـرَعُ بالعَصَا
والـحُـرُّ تـكْـفِـيـهِ الـمَـقَـالَـةْ

وصَدَقَ اللهُ القَائِـلُ: ﴿... وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢٠ – ٢١].

ومَا نَسَبَهُ المُصَانِعُ حَقٌّ فِي مُجْمَلِهِ، ولكِنْ لَيسَ الدَّافِعُ إِلَيْهِ بُغْضَ النَّبيِّ ﷺ، أو آلَ بَيتِهِ، أَو أَيًّا مِنْ صَحَابَتِهِ، بَلْ لِكَوْنِهِ مُخَالِفاً لأَفْعَالِ السَّلَفِ الصَّالِحِ، والخَشْيَةِ مِنَ وقُوعِ الفَاعِلِ

فِي الشِّـــرْكِ، ولِحِمَايَةِ جنَابِ عَقِيــدَةِ التَّوحِيدِ القَائِمَةِ عَلَى إِفْرَادِ اللهِ بالعِبَادَةِ، ووجُوبِ الاســتِغَاثَةِ بِهِ، وطَلَبِ العَونِ مِنْهُ، فِيمَا لاَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ سِــوَاهُ، كغُفْــرَانِ الذُّنوبِ، وجَلْبِ الرِّزْقِ، والوَلَدِ، وشِفَاءِ المَرِيضِ، وغَيْرِهَا.

جَاءَ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ فِي سُنَنِهِ، بَابُ صِفَةِ القِيَامَةِ، حَدِيثٌ، صَحَّحَهُ، عَن ابْنِ عَبَّاس يَرفَعُهُ قَالَ: كُنتُ خَلفَ النَّبِيِّ ﷺ، يَوماً، فَقَالَ:

«يا غُــلامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَــظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللـــهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَــأَلْتَ فاسْــأَلِ اللهَ، وإِذَا اسْتَغَثْتَ فَاسْــتَغِثْ باللهِ، واعْلَم أَنَّ الأُمَّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيءٍ قَد كتبَهُ اللهُ لكَ، وإِنْ اجْتَمَعوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَــيءٍ لمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيءٍ قَد كَتَبَهُ اللهُ عَلَيكَ، رُفِعَتِ الأَقلامُ، وجَفَّتِ الصُّحُفُ».

وقَــالَ ﷺ فِي مَرضِ مَوْتِــهِ: «**لَعْنَةُ اللهِ عَلَــى اليَهُودِ، والنَّصَـــارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِم مَسَــاجِدَ**». قَالَ الرَّاوِي: يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا.

ثَبَتَ عَنْ عُمَــرَ بنِ الخَطَّابِ أَنَّهُ رَأَى النَّاسَ فِي سَــفَر يَتَبَادَرُونَ إِلَى مَكَانٍ، فَسَــأَلَ عَنْ ذَلِــكَ؟ فَقَالُوا: قَدْ صَلَّى فِيهِ النَّبِي ﷺ، فَقَالَ: مَنْ عَرَضَــتْ لَهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ، وَإِلاَّ فَلْيَمْضِ، فَإِنَّمَا هَلَكَ أَهْلُ الكِتَابِ لأَنَّهُمْ تَتَبَّعُوا آثَارَ أَنْبِيَائِهِم، فَاتَّخَذُوهَا كَنَائِسَ، وَبِيَعاً!!.

قَالَ ابْنَ حَجَرٍ فِي فَتْحِهِ تَعْلِيقــاً عَلَى مَا قَالَهُ الفَارُوقُ: خَشِيَ أَنْ يُشْكِلَ ذَلِكَ عَلَى مَن لاَ يَعْرِفُ حَقِيقَةَ الأَمْرِ، فَيَظُنُّهُ وَاجِباً. أ. هـ.

وذاكَ المُصَانِعُ مِمَّن يُفتَرَضُ فِيهِ أَنَّهُ نَالَ نَصِيباً مِن العِلْمِ الشَّرْعِي، وِفْقَ مَا كُتِبَ فِي أَورَاقِهِ الثُّبُوتِيَّةِ، فَكَيف لَم يَصِلْ إِلَى مَعْرِفَةِ زَيْفِ تِلْكَ الفِرْيَةِ الكُبْرَى؟!!.

أَوَ لَيْسَ فِي خُلْــفٍ بِهَا وَتَنَاقُضٍ

مَــا دَلَّ ذَا لُــبٍّ وَذَا عِــرْفَــانِ

وصَدَقَ اللــهُ القَائــلُ: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

ومَا فَعَلَــهُ ذَلِكَ المُحْتَــالُ إِنَّمَا هُوَ نَوْعٌ مِــنَ التَّمَرُّسِ بالدِّينِ، أَشْبَهُ بتَمَرُّسِ البَعِيرِ بِالشَّــجَرَةِ، عِنْدَما تُؤْذِيهِ وَطْأَةُ الجَــرَبِ، أَو حَشَــرَاتُ الأَرْضِ، وذُبابُها حِيــنَ تَقَعُ عَلَى جُرُوحِهِ!!.

«فَبئْسَ العَبْدُ عَبْدٌ يَخْتِلُ الدُّنيَا بالدِّينِ، وبِئْسَ العَبْدُ عَبْدٌ يَختِلُ الدُّنيَا بالشُّبُهَاتِ».

يُذكَــرُ أَنَّ رَجُلاً كَانَ بَارًّا بأُمِّهِ، لا يَــرُدُ لَها طَلَباً، وكَانَ بَيْتُهُمَا تُظلِّلُ فِنَاءَهُ شَــجَرَةُ سِــدْرٍ كَبِيرَةٌ، يَــأْوِي إِلَيهَا عِنْدَ الأَصِيلِ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِــنْ أَنْوَاعِ الطُّيورِ المَخْتَلِفَةِ، طَلَبَتِ الأُمُّ ذَاتَ يَــومٍ مِنْ ابْنِهَــا أَن يَجْتثَّهَا، اسْــتَغْرَبَ الابْنُ الطَّلَبَ، فَسَأَلَهَا عَنِ السَّبَبِ؟ وذكَّرَهَا بِمَا للسِّدْرَةِ مِنْ فَوائِدَ، خَاصَّةً ظِلّهَا المُلَطِّف مِنْ حَرارَةِ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ صَيْفاً، فَقَالَتْ الأُمُّ:

إِنِّي أَحْيَاناً أَكُونُ خَالِيَةً بِنَفْسِـــي، فَأَتَخَفَّفُ مِنْ بَعْضِ ثِيَابِي، فَأَتَحَرَّجُ مِنْ رُؤيَةِ الطَّيْرِ لِي عَلَى تِلْكَ الحَالِ!!

فَازدادَ تَعَجُّبُ الِابْنِ مِنْ تَبرِيرِهَا أَكْثَرُ مِنْ تَعَجُّبِهِ مِنْ طَلَبِها، وَظَنَّ ذَلِكَ وَرَعاً مِنْهَا، ولكِنَّهُ حَقَّقَ لَهَا مَا أَرَادَتْ بِرًّا بِهَا.

وَفِي يَوْمٍ عَـــادَ إِلَى بَيْتِهِ مُبَكِّرًا عَلَى غَيْـــرِ عَادَتِهِ، فَرَأَى رَجُلاً غَرِيبًا يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِمَا، فَسَـــأَلَ أُمَّهُ، فَأُنْكَرَتْ دُخُولَ أَحَدٍ البَيْتَ فِي غِيَابِهِ، فَلَمْ يُرِدْ تَكْذِيبَهَا، وَكَذَّبَ عَيْنَيْهِ، فَأَخَذَ يُرَاقِبُ البَيْتَ بَعْدَ ذَلِكَ، فَرَأَى يَوْمَاً نَفْسَ الرَّجُلِ خَارِجاً مِن بَيْتِهِمَا، فَأَمْسَكَ بِهِ، فَاسْتَجْوَبَهُ، فَاعْتَرَفَ بِعلاقَتِهِ المَشْبُوهَةِ بِالْعَجُوزِ المُتصَابِيَـــةِ، الَّتِي (تُوَارِي) فُجُوْرَهَا خَلْفَ دَعْوِى الصَّلاحِ. وَتَكُونُ تَقْوَى اللَّـــهِ حِصْناً حَصِيناً لِمَنْ (يَتَوَارَى) خَلْفَهَا عَنِ ارْتِكَابِ المَعَاصِي، وهُوَ صَـــادِقُ النِّيَّةِ مَعَ رَبِّهِ، فَإِنَّهَا تُحْصِّنُهُ مِن الانْزِلاَقِ فِـــي جُرْفِ الغِوايَةِ، لأَنَّ المُتَّقِيَ قَد وَضَعَ عَظَمَـــةَ اللهِ، وَقَدَرْتَهُ الَّتِي لاَ تُقْهَـــرُ نُصْبَ عَيْنَيْهِ، صبَاحَ مَسَاءَ، فِي كُلِّ مَا يَقُولُ، وَيَفْعَلُ، كَعَابِرِ حَقْلِ أَشْواكٍ،

يَتَوقَّى أَشْوَاكَهُ مِن خِلالِ المَسَالِكِ الآمِنَةِ، فَهُو يُحَقِّقُ مَعْنَى الإِحْسَانِ في نَفْسِـــهِ، يَعْبُدُ اللهَ كأَنَّهُ يَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ يَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَعلَمُ يَقِيناً أَنَّ اللهَ يَراهُ.

فَعَلَيْكَ تَقْوَى اللـــهِ فَالْزَمْهَا تَفُزْ
إِنَّ التَّقِيَّ هُـــوَ البَهِـــيُّ الأَهْيَبُ

وَاعْمَلْ لِطَاعَتِهِ تَنَـــلْ مِنْهُ الرِّضَا
إِنَّ المُطِيـــعَ لِرَبِّـــهِ لَمُقَـرَّبُ

صَاحِبُ البِدْعَةِ ظَاهِرٌ وإنْ (تَوَارَى)

ومِنَ الْمُسْــلِمِينَ مَنْ (يَتوارَى) خَلْــفَ دَعْوَى مَحَبَّةِ، وإِجْلالِ النَّبيِّ ﷺ، لِيَسْتَأْثِرَ بِمَكَانَة اجْتِمَاعِيَّة بَيْنَ المُنْتَمِينَ لِنَوْعِ أَفْكَارِهِ، وَمُعْتَقَدِهِ، وَتَعَصُّباً لِمَوْرُوثِهِ، وعُنْصِرِهِ إِنْ كَانَ شُعُوبِيًّا، فَيُقِيمُ احتِفَالاً فِي شَــهْرٍ، ويَومٍ مُعيَّنَيْنِ مِنَ السَّنَةِ، تَخْتَلِفُ مَظَاهِرُهُ، وَتَكْلِفَتُهُ بِاخْتِــلافِ غُلُوِّ صَاحِبِهِ، وَمَدَى تَعَلُّقِهِ بِالبِدَعِ، والآثَارِ الضَّعِيفَــةِ، والمَوضُوعَةِ، فَيَجْتَمِعُ لَهُ يَومَ الزِّينَةِ خَلِيطٌ مِنَ النَّــاسِ المُغَرَّرِ بِهِم، بَيْنَ مُرَاءٍ، وغَاوٍ، وإِمَّعَةٍ، تَسَــاهلَ أَكثَرُهُــم طِوَالَ العَامِ فِــي أَدَاءِ الصَّلواتِ المَفْرُوضَةِ فِي أَوقَاتِها، وانتِهَاءً بِالتَّفرِيطِ فِي أَكْثَرِ مَا أَرْشَــدَ إِلَيْهِ الشَّــارِعُ مِنْ آدَابٍ عَامَّةٍ، فِي البَيعِ، والشِّرَاءِ، والمَأْكَلِ، والمَلْبَسِ، والمَشْــرَبِ والسَّــمْتِ العَامِّ. يَجْتَمِعُونَ لِتُقْرأَ عَلَى مَسَــامِعِهِم مَقَاطِعُ مِن بَعْضِ كُتُبِ السِّيرَةِ، والشَّمَائِلِ، الَّتِي يَحُومُ حَولَ سَــنَدِهَا، ومتْنِهَا، ورَفْعِهَــا، خِلافٌ كَثِيرٌ

بَيْنَ العُلَمَـاءِ المُعْتبَرِينَ، بَلْ، ولَا يَصِـحُّ أكْثَرُهَا أَنْ يَكُونَ لِلتَّرْغِيبِ، أو التَّرْهِيـبَ؛ لِمُخَالَفَتِهَا النُّصُوصَ الصَّحِيحَةَ، الصَّرِيحَةَ. وَيَسْـتَمِعُونَ إِلَى أَبِيَاتٍ مِنَ الشِّعْرِ المُعَاصِرِ، فِي مَدِيحِ النَّبِـيِّ ﷺ، وإِطْرَائِهِ، نَظَمَهَا مُغَالُونَ، مُخالِفونَ مَا قَدْ كَانَ نَهَى عَنْ مِثْلِهِ ﷺ حِينَ حَذَّرَنَا بِقَوْلِهِ :

«**لا تُطْرونِي كَمَـا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَريَـمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُاللهِ ورَسُولُهُ**». قالَ أحَدُ الكُتَّابِ المُعَاصِرِينَ النَّاصِحِيـنَ رَدًّا عَلَى بَعْـضِ المُبْتَدِعِيـنَ : «واجِبُنَا أَنْ نَكُونَ صَادِقِينَ مَعَ أَنفُسِـنَا، فَلا نُظْهِرُ خِلافَ مَا نُبطِنُ، ولا يَجُوزُ لَنَا أَنْ نُخْفِيَ شَـيئاً مِن فِعْلِنَا، وَمُعتَقَدَاتِنَا، مِمَّا يَرَاهُ الآخَرونَ غَيْرَ جَائِـزٍ، وإِنْ كَانَ مَا نُظهِرُهُ هُوَ الحُبُّ الشَّـرْعِيُّ، والبَرَاءَةُ مِنْ دَعْوَةِ غَيرِ اللهِ، فَلنَسْتَقِمْ عَلَى ذَلِكَ، وإِعلانُه بِبَرَاهِينِهِ لِإِخْوَانِنَا؛ حَتَّى لا يَعْتَقِدوا فِينَا قُدْوَةَ سُوءٍ، وتَبطُلُ الشُّبهَةُ المُخَالِفَةُ».

ويَقُـولُ : «حَضَرْتُ أَكثَرَ مِنْ مَوْلِـدٍ فِي بِقَاعِ الأَرْضِ، فَرَأَيْتُ العَجَبَ العُجَابَ، فَأُرِيدُ أَنْ أَسمَعَ بَرَاهِينَ مِنَ الشَّرْعِ

تُبِيحُ هَذِهِ الأَنْمَاطَ مِنْ التَّصَوُّفِ، وتُقَاوِمُ البَرَاهِينَ الَّتِي هِيَ عِنْدَ الآخَرِينَ بِنُصُوصٍ شَـرْعِيَّةٍ، قَطعِيَّةِ الثُّبوتِ، والدَّلالَةِ، مِن السِّـيرَةِ العَمَلِيَّةِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وصَحَابَتِهِ، وتَابِعِيهم، المَعْرُوفَةِ بالتَّواتُرِ؛ حَتَّى تَقُومَ الحُجَّـةُ عَلَى مَنْ أَصَرَّ عَلَى العِنَـادِ، واتِّبَاعِ المَـورُوثِ العَامِّي الَّـذِي صَنَعَهُ الحَدِيثُ المَوضُوعُ، والمَنَامَاتُ، والحِكَايَاتُ، واعتِقَادُ الوَلايَةَ لِمَنْ أَحْوَالُهُ غَيْرُ شَرْعِيَّةٍ، وكُلُّ ذَلِكَ كَانَ بِمُقَابِلِ المُقَاوِمَةِ للتَّواتُرِ القَطْعِيِّ، واختِرَاعِ مَعَانٍ لَيْسَتْ مِنْ مَفهُومِ اللُّغَةِ، أو الشَّرْعِ».

ويَقُولُ: «وعَلَينَا أَنْ نَسْـتَحْيِيَ مِنَ اللهِ فِي دَعْوَى حُبٍّ كَاذِبَةٍ، فَنَزعُمُ أَنَّنَا نُحِبُّ رَسُـولَهُ أَكثَرَ مِـن صَحَابَتِهِ، خِيَارِ الأُمَّةِ، الَّذِينَ لَم يَشغَلْهُم جَلالُ، وجَمَالُ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ عَن الإدْلاَجِ الطَّوِيلِ لِمَعرِفَةِ أَحكَامِ الشَّـرِيعَةِ، وأَدَاءِ العِبَادَاتِ المَشْروعَةِ، النَّافِلَةِ، والمُسْـتَحَبَّةِ، والضَّعِيفُ فِي مِثلِ هَذِهِ المَواطِـنِ بَاطِلٌ لِمُخَالَفَتِـهِ لِنُصُوصٍ قَطْعِيَّـةٍ، فَمَنْ أَطَاعَ الرَّسُـولَ ﷺ، بِأَدَاءِ الوَاجِبِ، وتَركِ المَنْهِـيِّ عَنْهُ، وفِعْلِ

المُســتَحَبِّ، وتَرْكِ المَكْروهِ، فَهُوَ مُحِبٌّ للرَّسُــولِ، ولِمَنْ أَحَبَّ الرَّسُولَ ﷺ، ونَصَرَهُ. أ. هـ.

قَالَ الذَّهَبِيُّ فِي كِتَابِهِ: سِـيَرُ أَعْلاَمِ النُّبلاَءِ، مُنْتَقِداً كِتَاباً يُعَرِّفُ بِحُقُوقِ المُصْطَفَى ﷺ: «قَدْ حَشَاهُ مُؤَلِّفُهُ بِالأَحَادِيثِ المُفْتَعَلَةِ، وَفِيهِ مِنَ التَّأْوِيلاَتِ البَعِيدَةِ أَلْوَانٌ، وَنَبِيُّنَا ﷺ، غَنِيٌّ بِمِدْحَــةِ التَّنْزِيلِ، عَنْ الأَحَادِيثِ وَبِمَا تَواتَرَ مِنَ الأَخْبَارِ عَنْ الآحَادِ، وَبِالآحَادِ النَّظِيفَةِ الأَسَانِيدِ عَنْ الوَاهِيَاتِ، فَلِمَاذَا يَا قَوْمُ، نَتَشَبَّعُ بِالْمَوْضُوعَاتِ، فَيَتَطَرَّقُ إِلَيْنَا مَقَالُ ذَوِي الغِلِّ، وَالحَسَدِ؟!! أ.هـ.

فــكأَنَّ القَومَ - وجُلُّهُم مِــنَ الشُّــعوبِيِّينَ المُتَعَصِّبينَ لِسَــادَتِهِم، وكُبَرَائِهِم الَّذِيــنَ تَأَثَّروا بِأَفْعَــالِ النَّصَارَى مَعَ نَبِيِّهِم، فِي أَوطَانِهِم الأَصْلِيَّةِ، ومِمَّنِ اعْتَنَقَ الطُّرُقَ الصُّوفِيَّةَ الَّتِي تُعَظِّمُ الإِنَســانَ لِشَــخْصِهِ، وتَتَعَصَّبُ لَهُ، أَوْ ضِدَّهُ لِذَاتِهِ - يَســتَدْرِكُونَ عَلَى السَّــلَفِ الصَّالِحِ، الَّذِينَ فِــي مُقَدِّمَتِهِم أَصحَابُ القُرونِ الثَّلاَثَةِ المُفَضَّلَةِ مَا فَاتَهُم مِن إِظهَارِ مَدَى

تَعَلُّقِهِـــم بنَبِيِّهِم ﷺ، وبِأَنَّهُم بَخَسُـــوهُ حَقَّهُ مِـــنَ الاحتِرَامِ، والمَحَبَّةِ!!.

ونَسُـــوا، أو تَنَاسُـــوا أَنَّ المُلْتَزِمينَ بِكِتَابِ اللهِ، وسُنَّةِ رَسُـــولِهِ الصَّحِيحَةِ اكتَفُوا بِاتِّبَاعِ سُـــنَّتِهِ، وتَنفِيـــذِ تَعَالِيمِه، والاقتِداءِ بِأَفعَالِهِ وأَقوَالِهِ، وأَحَبُّوهُ لِمَقَامِ النُّبُوَّةِ، والرِّسَالَةِ، والاصْطِفَـــاءِ، أَكثَر مِن حُـــبِّ النَّفسِ، والمَـــالِ، والوالِدِ، والوَلَـــدِ، فَلَمْ يَعْصُوا لَهُ أَمْرًا، وعَضُّوا عَلَى سُـــنَّتِهِ، وسُـــنَّةِ الخُلفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِن بَعدِهِ بالنَّواجِذِ!!.

وَدَافَعَ أَحَدُهُـــم، مِنَ المُعَاصِريـــنَ، المُتَعَاطِفِينَ عَلى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ:

كَانَ أُولَئِكَ حَدِيثي عَهْـــدٍ بِالنَّبِيِّ ﷺ، يَرَوْنَ آثَارَهُ حَيَّةً، وَيَعِيشُـــونَ دَعْوتَهُ مُشَاهَدَةً، فَلَمْ يَكُونُوا فِي حَاجَةٍ إِلَى إِقَامَةِ مِثْلِ هَذِهِ المَحَافِلِ للتَّذْكِيرِ بِهِ، وَنَفْعَلُ نَحْنُ ذَلِكَ اليَوْمَ لِبُعْدِ العَهْدِ بِهِ، وابْتِعَـــادِ كثيرٍ مِنَ الأَجْيَالِ بَعْدَهُ عَنْ سِـــيرَتِهِ ﷺ للتَذْكِيرِ، وَشَحْذِ الهِمَمِ. أ.هـ.

فَيُقَال لَــهُ: إِنَّ كَانَ مَا تَفْعَلُهُ تَقَرُّبًا إِلَى اللــهِ، فَهُوَ عِبَادَةٌ، وَأُمُورُ العِبَادَةِ لَا تَتَقَرَّرُ إِلاَّ بِدَلِيلٍ مِنَ الكِتَابِ، وَالسُّــنَّةِ، وإِنَّ كَانَ ابْتِدَاعًا، وإِلْصَاقَ صِفَةِ الطَاعَةِ بكَ، وبِهِمْ، فَمَا أَنْتَ وَذَاكَ.

ومِنْ أَحْسَنِ مَا يُذَكَّرُ بِهِ أَيْضًا، قولُ أَحَدِ سَلَفِنَا الصَّالِحِ: «اتَّبِعوا، ولا تَبتَدِعوا، فَقَد كُفِيتُم. والقَصْدُ فِي السُــنَّةِ خَيرٌ مِن الاجتِهَادِ فِي البِدْعَةِ». وَقَوْلُ الإِمامِ الشَّافِعِي شِعْرًا:

تَعْصِــى الإِلَهَ وَأَنْــتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ
هَذَا مُحَــالٌ فِي القِيَــاسِ بَدِيعُ
لَــوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقــاً لأَطَعْتَهُ
إِنَّ المُحِــبَّ لِمَنْ يُحِــبُّ مُطِيعُ

وقَالَ عَبَّادُ بنُ عَبَّاد الخَوَّاصُ، الشَّــامِي، فِيمَا رَوَاهُ عَنْهُ الدَّارِمِيُّ فِي مُقَدِّمَةِ سُــنَنِهِ: «العَقْلُ نِعْمَةٌ، فَرُبَّ ذِي عَقْلٍ قَدْ شَــغلَ قَلْبَهُ بِالتَّعَمُّقِ فِيمَا هُوَ عَلَيْهِ ضَــرَرٌ، عَنِ الانتِفَاعِ بِمَا

يَحتَاجُ إِلَيْهِ، حَتَّى صَارَ عَن ذَلِكَ سَـاهِيًا، ورَجُلٌ شَغَلَ قَلْبَهُ بِبِدْعَـةٍ قَلَّدَ فِيهَا رِجَالًا دُونَ أَصْحَابِ رَسُـولِ اللهِ ﷺ، أَو اكْتَفَـى بِرَأْيِهِ فِيمَا لَا يَرَى الهُدَى إِلَّا فِيهَا، ولَا يَرَى الضَّلَالَةَ إِلَّا تَرْكَهَـا، بِزَعْمِ أَنَّهُ أَخَذَهَا مِنَ القُـرآنِ، أَفَمَا كَانَ لِلقُرْآنِ حَمَلَـةٌ قَبْلَهُ، وقَبْلَ أَصْحَابِهِ، يَعْمَلُـونَ بِمُحْكَمِهِ، ويُؤْمِنُونَ بِمُتَشَابِهِهِ؟!!

وَكانَ القُرآنُ إِمَامَ رَسُـولِ اللهِ ﷺ، وكَانَ رَسُـولُ اللهِ إِمَامًا لِأَصْحَابِـهِ، وكَانَ أَصحَابُهُ أَئِمَّةً لِمَن بَعْدَهُم، مُتَّفِقُونَ فِي الـرَّدِّ عَلَى أَصْحَابِ الأَهْوَاءِ، الَّذِيـنَ كُلَّمَا أَحْدَثَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ بِدْعَةً فِي ضَلَالَتِهِم، انْتَقَلُوا مِنْهَا إِلَى غَيْرِهَا؛ لأَنَّهُم لَمْ يَطْلُبُوا أَثَرَ السَّالِفِينَ، ولَم يَقْتَدُوا بِالْمُهَاجِرِينَ، وقَدْ ذُكِرَ عَنْ عُمَرَ الفَارُوقِ أَنَّهُ قَالَ لِزِيَاد:

هَلْ تَدْرِي مَا يَهْدِمُ الإِسْلَامَ؟ زَلَّةُ عَالِم، وجِدَالُ مُنَافِق بِالقُرْآنِ، وأَئِمَّةٌ مُضِلُّونَ. أ.هـ.

وصَدَقَ البَارِي مِن قَبلُ، ومِن بَعدُ، إِذْ يَقُولُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّـهِ ﷺ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١].

فَلَا تَحْصُـلُ مَحَبَّةُ اللـهِ إِلَّا بِاتِّبَاعِ الرَّسُـولِ، واتِّبَاعُ الرَّسُـولِ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِامْتِثَالِ جَمِيعِ مَا أَمَرَ بِهِ، عَنْ رَبِّهِ، أَو فَعَلَهُ، أَو أَقَرَّهُ، وَثَبَتَ صَحِيحًا، صَرِيحًا عَنْهُ.

وقَد ذَهَبَ أكثَرُ المُحَقِّقِينَ مِنَ المُفَسِّرِينَ، إِلَى أَنَّ المُرادَ بِالإِتِّبَاعِ فِي الآيَةِ هُوَ الاقتِدَاءُ بِهِ، والعَمَلُ بِمَا صَحَّ مِن سُنَّتِهِ، فَذَلِكَ جُزْءٌ لَا يَتَجَـزَّأُ مِنْ مَحَبَّتِهِ، بَلْ هُوَ بُرْهَانٌ صَرِيحٌ لَهَا، وَرُبَّمَا كَانَ سَبَبًا وَحِيدًا لِتِلْكَ المَحَبَّةِ عِنْدَ المُسْلِمِينَ لِنَبِيِّهِم، يَعْرِفُ بِهِ بَعْضُهُم بَعْضًا، لِقَولِهِ ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ، وَوَلَدِهِ، والنَّاسِ أَجْمَعِينَ**».

قَالَ الخَطَّابِيُّ فِي كِتَابِهِ أَعْلَامُ الحَدِيثِ: «المُرادُ هُنَا حُبُّ الاخْتِيَارِ، لَا حُبَّ الطَّبْعِ، واسْتَأْنَسُوا بِقَولِ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ للنَّبِيِّ ﷺ: لَأَنْتَ يَا رَسُـولَ اللهِ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا

نَفْسِي، فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ: «**لا والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِن نَفْسِكَ**». فَقَالَ لَهُ عُمَرَ: فَإِنَّكَ الآنَ واللهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِن نَفْسِي. فَقَالَ لَهُ: «**الآنَ يا عُمَرُ**». أ.هـ.

فَرُبَّمَا تَعَارَضَ أَمْرُ الشَّارِعِ مَعَ هَوَى النَّفْسِ، ورغبَتِها، أَو رَغْبَةِ الوَالِدَيْنِ، أَو أَحَدِهِمَا، أَو مَحَبَّةِ المَالِ، أَو الوَلَدِ، فَمِنْ كَمَالِ الإِيمَانِ الطَّاعَةُ المُطْلَقَةُ بِلَا مُنَازِعٍ، مِن المُسْلِمِ لِمَا شَرَعَ اللهُ، كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ**». وإن خَفِيَتْ عَلَيْهِ الحِكْمَةُ مِن التَّشْرِيعِ، فَيَكُونُ اتِّبَاعُهُ حِينَئِذٍ عِبَادَةً مُحْضَةً، لَا دَخْلَ للعَقْلِ فِيهَا، كَمَا فَهِمَ ذَلِكَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِب، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، حِينَ قَالَ:

«لَو كَانَ الدِّينُ بِالرَّأْيِ لَكَانَ أَسْفَلُ الخُفِّ أَوْلَى بِالمَسْحِ مِنْ أَعْلَاهُ، وقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَمْسَحُ ظَاهِرَ خُفَّيْهِ».

وقَالَ الخَطَّابِي: «ولَيسَ ذَلِكَ مَحصُورًا فِي الوجُودِ، أَو الفَقْدِ، بَل يَأْتِي مِثْلُهُ فِي نُصْرَةِ سُنَّتِهِ، والذَّبِّ عَن شَرِيعَتِهِ،

وقَمْعِ مُخَالِفِيهَا أَوَّلَ الزَّمَانِ، وآخِرَهُ، ويَدْخُلُ فِيهِ بَابُ الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ، والنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، والاتِّسَاءُ بِهِ بِالثَّابِتِ مِنْ أَفْعَالِهِ، والوُقُوفُ عِنْدَ كُلِّ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ، فَقَد تَرَكَنَا ﷺ، «عَلَى المَحَجَّةِ البَيْضَاءِ، لَيلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ». أ. هـ

وإِنْ كَانَ الهَدَفُ مِنْ إِحيَاءِ يَوْمِ مَولِدِهِ ﷺ، كَمَا يَزعُمُونَ، تَذكِيرِ أَنفُسِهِم، والنَّاشِئَةِ مِنْ أَبْنَاءِ المُسلِمِينَ، بعَظَمَةِ نَبِيِّهِم، وَكَرَمِ أَخْلَاقِهِ، وحُسنِ سُلُوكِهِ، وأَمجَادِ سَلَفِهِم الصَّالِحِ، وسَمَاحَةِ أَخْلاقِهِم وتَضْحِيَاتِهِم بِأَرْوَاحِهِم، وأَمْوَالِهِم فِي سَبِيلِ اللهِ، للاقتِدَاءِ بِهِم، فَلِمَاذَا يَقتَصِرونَ عَلَى يَوْمٍ وَاحِدٍ مِنْ بَينِ أَيَّامِ العَامِ كُلِّهِ، دُونَ سَائِرِ أَيَّامِهِ البَاقِيَةِ، ويُحَدِّدُونَهُ بِيَومِ مَولِدِهِ ﷺ، دُونَ سَائِرِ المُنَاسَبَاتِ الأُخْرَى فِي حَيَاتِهِ الحَافِلَةِ بالأَحدَاثِ الجِسَامِ، الَّتِي اعتُبِرَتْ نِقَاطَ تَحَوُّلٍ مَصِيرِيَّة لِمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا، بَدْءًا مِن يَومِ بِعثَتِهِ، إِلَى يَومِ هِجْرَتِهِ، الَّتِي اعتَمَدَهَا عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ، بِثَاقِبِ نَظَرِهِ

وبَصِيرَتِهِ، بَدَايَةَ تَأْرِيخِ الدَّولَةِ الإِســلاَمِيَّةِ، وانتِهَاءً بِيَومِ فَتْحِ مَكَّــةَ، ودُخُولِ النَّاسِ فِي دِينِ اللــهِ أَفْوَاجًا، وقَولُ المَولَى عَزَّ وجَــلَّ: ﴿... ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

فَقَدْ صَحَّ عَنْ الفَارُوقِ قَولُهُ حَولَ هَذِهِ الآيَةِ: «قَدْ عَلِمْتُ اليَــومَ الَّذِي أُنْزِلَتْ فِيهِ، والسَّــاعَةَ، وأَيْنَ رَسُــول اللهِ حِينَ نَزَلَتْ، نَزَلَتْ لَيْلَةَ الجُمُعَةِ، ونَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِعَرَفَةَ».

السُّؤَالُ الَّذِي يَطْرَحُ نَفْسَهُ: لِمَاذَا لَمْ يَتَّخِذِ الرَّسُولُ، أَو الصَّحَابَةُ مِن بَعْدِهِ ذَلِكَ اليَومَ عِيدًا؟ وَكَذَلِكَ بِالنِّسْــبَةِ إِلَى تَأْرِيخِ يَومَ مَولِدِهِ ﷺ كَانَ كَثِيرٌ مِــنَ الصَّحَابَةِ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُم، فَلِمَاذَا لَمْ يَجْعَلُوا مِنْهُ مُنَاسَبَةً يَعْتَادُونَهَا كُلَّ عَام؟ أَمْ نَحْنُ نَفُوقُهُم اتِّباعًا، ومَحَبَّةً لِرَسُــولِ اللهِ، أَمْ تَقْلِيدٌ لِلنَّصَارَى، وصَدَقَ الرَّسُــولُ الكَرِيمِ فِي نُبُوءَتِــهِ: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَــنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شِبْرًا بِشِــبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَــلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لا تَّبَعْتُمُوهُمُ**». قُلْنَا: يَا رَسُــولَ اللهِ،

اليَهُودُ، والنَّصَارَى؟. قَالَ: «فَمَنْ». أَلَمْ يَكُنْ سَـيِّدُنَا رَسولُ اللهِ ﷺ، مُنْذُ وِلَادَتِهِ إِلَى قُبَيْلِ بِعْثَتِهِ لَا يَدْرِي مَا الكِتَابُ ولا الإِيمَانُ، كَمَا أَخبرَ بِذَلِكَ مَولَاهُ، عَزَّ وَجَلَّ، فِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقَـالَ تَعَالَى فِي وَصْفِ حَالِهِ قَبْـلَ البِعْثَةِ: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾ [الضحى: ٦ – ٨].

وَأَمَرَهُ رَبُّهُ أَنْ يَقُولَ لِلمُغَالِينَ فيه: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وَوَجَّهَهُ أَنْ يَقُولَ لِلمُشَـكِّكِينَ فِي بَشَرِيَّتِهِ: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الأحقاف: ٩].

أَلَيْسَ مَا أَحْدَثُــوهُ فِي حَقِّ نَبِيِّهِم مِنَ البِــدَعِ، وَالغُلُوِّ، شُــبْهَةٌ، تُحَاكِي فِعْلَ النَّصَارَى بِنَبِيِّهِم، عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَذْوَ القُذَّةِ بِالقُذَّةِ، وهو نَوعٌ مِنَ الإِطْرَاءِ الَّذِي حَذَّرَ مِنْهُ ﷺ أُمَّتَهُ أَنْ يَفْعَلُــوهُ فِي حَقِّهِ؛ لِئَلَّا يُؤَدِّي بِهِم إِلَــى تَأْلِيهِهِ، كَمَا فُعِلَ بِعِيسَي ابنِ مَرْيَمَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ. أَلَا يَخشَونَ أَن يَكُونَ فِعلُهُم المُحْــدَثُ هَذَا - والَّذِي تَوَلَّى كِبْــرَهُ الفَاطِمِيُّونَ فِي القَرْنِ الرَّابِعِ - مِن كَيْدِ الشَّــيْطَانِ، ومَكْرِهِ بِهِم، لِيُرْدِيهِم، ويَلْبِسَ عَلَيْهِم دِينَهُم، فيُصْبِحُوا مِنَ الخَاسِرِينَ؟!!

تَجَادَلَ شَــخْصَانِ مُسْــلِمَانِ مُعَاصِرَانِ، أَحَدُهُمَا عَلَى الفِطْرَةِ، والآخَــرُ مُتَكَلِّفٌ، قَالَ الثَّانِي للأَوَّلِ: عِندَمَا يُطلَبُ مِن أَحَدِكُم أَن يُصَلِّي عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، يَقُولُ لَهُ: صَلِّ عَلَى النَّبِيِّ، هَكَذَا من دُونِ أَيِّ أَلقَابٍ، ولا نُعُوتٍ مُضَافَةٍ!!.

رَدَّ عَلَيْهِ الأَوَّلُ بِفِطرَتِهِ: لَن أَزِيدُ عَلَى قَولِ العَلِيمِ الخَبِيرِ، عِندَمَا أَمَرَ المُؤمِنِينَ بالصَّلاَةِ والسَّلَامِ عَلَيهِ بِقَولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحــزاب: ٥٦].

من دُونِ أَيِّ أَلْقَابٍ إِضَافِيَّةٍ، وهو أَعلَمُ - سُبحَانَهُ - بِقَدْرِ نَبِيِّهِ، ومَكَانَتِهِ!!.

جَاءَ رَجُلٌ النَّبِيَّ ﷺ، فَخَاطَبَهُ بِقَوْلِهِ: يَا سَيِّدَنَا، وَابْنَ سَيِّدِنَا، وَيَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا، فَرَدَّ عَلَيْهِ قَائِلًا: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، ولَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِاللهِ، ورَسُولُ اللهِ، واللهِ مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَا رَفَعَنِيَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ**».

ويُشْبِهُ صَنِيعُ هَذَا المُتَكَلِّفِ، صَنِيعَ الآخَرِ عِنْدَمَا نَفَى أَن يَكونَ وَالِدُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، اسمُهُ (آزَرَ) واعتبَرَهُ اسْمًا لِعَمِّهِ، فالعَمُّ أَبٌ، واسْتَدَلَّ بِقَولِ اللهِ تَعَالَى، عَلَى لِسَانِ يُوسُفَ عليه السلام: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ...﴾ [يوسف: ٣٨]. عَلَى اعْتِبَارِهِم إِخْوَةً لِيَعْقُوبَ!؟ لِيَصِلَ إِلَى أَنَّ نَسَبَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ، لَا يَتَّصِلُ بِمُشْرِكٍ.

قِيلَ: «قَدْ أَخْطَأَ فِي هَذَا خَطَأً شَنِيعًا، وخَرَجَ بِاللَّفْظِ عَن ظَاهِرِهِ، وحَقِيقَتِهِ، إِلَى مَعْنَى يَكُونُ بِهِ مَجَازًا، مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ،

ولَا قَرِينَةٍ، فَإِنَّ العُلَمَاءَ بالنَّسَـــبِ لَمْ يُجْمِعُـــوا عَلَى ذَلِكَ، ومَـــنْ قَالَهُ مِنْهُمُ رُبَّمَا تَعَلَّقَ بِمَا يَجِدُونَـــهُ مِن أَخبَارِ اليَهودِ، والنَّصَارَى، ولَا عِبْرَةَ بِذَلِكَ فِي مُقَابَلَةِ صَرِيحِ القُرآنِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٧٤].

والأَنْسَابُ القَدِيمَةُ مُخْتَلِفَةٌ، مُضْطَرِبَةٌ، قَالَ ابنُ عَبَّاس:

إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ، إِذَا انتَسَـــبَ لَمْ يُجَاوِزْ فِي نَسَـــبِهِ مَعْدَ بنَ عَدْنَانِ بنَ أَدَد، ثُمَّ يُمْسِكُ، وَيَقُولُ: «**كَذَبَ النَّسَّابُونَ**». قَالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَقُرُونَۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨].

ومَا وَقَعَ مِنْ اخْتِلَاف فِي نَسَبِهِ ﷺ، إِلَى إِسمَاعِيلَ عليه السلام، يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُحْفَظْ، إِذْ لَو كَانَ صَحِيحًا لَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، أَعْلَمَ النَّاسِ بِهِ.

والحُجَّةُ القَاطِعَـــةُ فِي نَفيِ التَّأْويلَاتِ حَولَ صِحَّةِ أُبوَّةِ (آزَرَ) لِإبرَاهِيمَ، عَلَيهِ السَّلَامُ، الحَدِيثُ الصَّحِيحُ، الصَّرِيحُ

عِنْدَ البُخَارِي، عَن النَّبِيِّ ﷺ: «**يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ (آزَرَ) يومَ القِيَامَةِ، وعَلَى وجْــهِ (آزَرَ) قَتَرَةٌ، وغَبَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ: لَا تَعْصِنِي؟!. فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ**».

والمُنَافِقُونَ لَهُمْ مَعَ تَحْرِيفِ الكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ مَوَاقِفُ مَشْهُودَةٌ، قَالَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨].

وقَــدِمَ وفْدُ بَنِي عَامِرٍ عَلَى رَسُــولِ اللهِ ﷺ، فَقَالوا: يَا رَسُــولَ اللهِ، أَنْتَ وَلِيُّنَا، وأَنْتَ سَــيِّدُنَا، وأَنْتَ أَطوَلُ عَلَينَا طُولًا، وأَنْتَ أَفْضَلُنَا عَلَينَا فَضلًا، وأَنْتَ الجَفْنَةُ الغَرَّاءُ، فَرَدَّ عَلَيْهِم رَسُــولُ اللهِ بِقَوْلِهِ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا قَولَكُم، ولَا يَسْتَجِرَّنَّكُمُ الشَّيطَانُ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُاللهِ ورَسُولُهُ**».

ويَكْفِيهِ ﷺ، شَــرَفًا، ورِفْعَــةً أَنْ صَلَّى اللــهُ عَلَيْهِ فِي سُورَةِ الأَحْزَابِ بِنَفْسِهِ، والمَلَائِكَةُ مَعَهُ، وأَمَرَ المُؤمِنِينَ أَنْ

يُصَلُّوا عَلَيْهِ، ويُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا، ونَعَتَهُ بِعَبْدِاللهِ، وبِرَسُولِهِ، واصْطِفَاؤهُ لِرِسَالَتِهِ دُونَ سَائِرِ البَشَرِ، ووَصَفَ خُلُقَهُ بِالعَظِيمِ، ورَفَعَ ذِكْرَهُ بِالشَّهَادَةِ لَهُ بِالرِّسَالَةِ، بَعْدَ الشَّهادَةِ للهِ بِالوَحْدَانِيَّةِ، يَتكَرَّرُ خَمْسَ مَرَّاتٍ فِي اليَوْمِ واللَّيْلَةِ، إِيذَانًا بِدُخُولِ وَقْتِ الصَّلَوَاتِ المَفْرُوضَةِ، وعِنْدَ الجُلُوسَيْنِ للتَّشَهُّدِ فِي كُلِّ صَلَاةٍ، مَكْتُوبَةٍ، ونَافِلَةٍ، وجَعَلَ اتِّبَاعَهُ دَلِيلَ مَحَبَّةِ اللهِ للمُتَّبِعِ.

فَمَنْ يُجَارِيهِ فِي الفَضْلِ، وعُلُو المَكَانَةِ، وهَلْ هُوَ فِي حَاجَةٍ لِمَزِيدِ إِطْرَاءٍ مِنْ أَحَدٍ، إِلَّا مَا كَانَ يُوَسْوِسُ بِهِ اللَّعِينُ لِلْبَعْضِ لِيَصْرِفَهُم عَنْ طَاعَتِهِ الحَقَّةِ؟!!

ومَا أَجمَلَ مَا قَالَهُ الصَّحَابِيُّ، حَسَّانُ بنُ ثَابِت، فِي فَضْلِ نَبِيِّنَا ﷺ:

وضَمَّ الإِلَهُ اسْمَ النَّبِيِّ مَعَ اسْمِهِ
إِذْ قَالَ فِي الخَمْسِ المُؤَذِّنُ: أَشْهَدُ

وشَـــقَّ لَهُ مِـــنِ اسْـــمِهِ ليُجِلَّهُ
فَذُو العَرْشِ مَحْمُودٌ وهَذَا مُحَمَّدُ

وحَرِيٌّ بالمُسْـــلِمِينَ اليَومَ أَنْ يَحْرِصُـــوا للتَّقَرُّبِ مِن مَرضَاةِ رَبِّهِم، بِأَنْ يَأْتُـــوا بِمَا صَحَّ عَنْهُ ﷺ فِي أُمورِ العِبَادَةِ، وأَنْ يَتَمَثَّلُوا عَمَلَ سَـــلَفِهِم الصَّالِحِ مَعَهَـــا، فَإِنَّ فِعْلَهُم تَامًّا مُتكَامِـــلًا، يَفُوقُ طَاقَةَ أَحَدِنَـــا مِنْ بَعْدِهِم، فَلْنَـــأْتِ مِنْهُ مَا اسْتَطَعْنَا، فَأُولَئِكَ قَدْ أَتْعَبُوا مَنْ جَاءَ بَعدَهُم بِإِرثِهِم الكَبِير، فَقَدْ عَرَفُوا أَقْصَـــرَ الطُّرُقِ، وأَكثَرَهَا اســـتِقَامَةً لِتَقْوَى اللهِ، وابتِغاءِ مَرضَاتِهِ، فَسَـــلَكُوهَا، ولَيْسَـــتِ التَّقْوَى كَلَامًا، بَلْ سُلُوكٌ والْتِزَامٌ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، وَأَرْضَاهُمْ.

قَالَ أَحَدُ الفُقَهَاءِ السَّبعَةِ مِنَ الصَّحَابَةِ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُم أَجْمَعِينَ، ومِـــنْ أَكْثَرِهِم وَرَعًا، وَحِرْصًا عَلَـــى تَتَبُّعِ مُعْظَمِ أَفْعَالِ، وأَقْوَالِ النَّبِيِّ ﷺ، والعَمَلِ بِهِمَا بِحَذَافِيرِهِمَا:

«لَـــو كُنتُ أَعْلَـــمُ أَنَّ الله قَبِـــلَ مِنِّي رَكْعَـــةً لكُنْتُ مِنَ المُتَّقِينَ».

قَالَ المُرْسِي الأَنْدَلُسِيُّ:

مَنْ كَانَ يَرْغَبُ فِي النَّجَاةِ فَمَا لَهُ
غَيْــرُ اتِّبَاعِ المُصْطَفَــى فِيمَا أَتَى
ذَاكَ السَّــبِيلُ المُسْــتَقِيمُ وغَيْرُهُ
سُــبُلُ الضَّلالَةِ والغِوَايَةِ والرَّدَى
فاتْبَــعْ كِتَابَ اللهِ والسُّــنَنَ الَّتِي
صَحَّتْ فَذَاكَ إِنِ اتَّبَعْتَ هُوَ الهُدَى
الدِّينُ مَا قَالَ الرَّسُــولُ وصَحْبُهُ
والتَّابِعُــونَ ومِــنْ مَنَاهِجِهِم قَفَا

وقَالَ أَحَدُ المُثَقَّفِينَ المُعَاصِرِينَ نَاصِحًا:

إِنْ كُنتَ فِي الدَّارَيْنِ تَرْجُو رِفْعَةً
فاسْلُكْ طَرِيقَ مُحَمَّدٍ تَنْجُو مَعَهْ
لَا تَدَّعِــي خَطَــأً زِيَادَةَ شِرْعَةٍ
أَصْحَابُهُ الأَبْرارُ كانُوا فِي سَــعَهْ

قَدْ أَكْمَــلَ الدَّيَّانُ دِيــنَ مُحَمَّدٍ

وَأَتَــمَّ نِعْمَتَــهُ عَلَيْنَــا، والدَّعَةْ

وإِلَى أُولَئِكَ أُرَدِّدُ مَعَ الشَّاعِرِ قَولَهُ:

إِنْ صَحَّ قَولُكُمَا فَلَسْــتُ بخَاسِرٍ

أَو صَحَّ قَولِي فالخَسَارُ عَلَيْكُمَا

ذَلِكَ أَنَّكُــمْ تَجْنَحُونَ إِلَى الكَمِّ الَّذِي قَدْ يُخَالِطُهُ غُثَاءٌ، وأُولَئِكَ يَجْنَحُونَ إِلَى الكَيْفِ السَّــلِيمِ، المُنْتَقَى، الصَّحِيحِ فِي أُمُورِ العِبَادَةِ، الَّذي عَايَشُــوهُ طَرِيًّــا، خَالِصًا، وكَانُوا لَا يُعَظِّمُــونَ إِلَا الخَالِقَ، وَأَنْتُم رُبَمَا تُعَظِّمُــونَ المَخْلُوقَ مَعَ الخَالِــقِ، فَوَافَقَ أَنْ تَكُونُوا كَمَنْ أُعْطِــيَ مَقُولًا، ولَمْ يُعْطَ مَعْقُولًا!!.

فشل (المتوارى) خلف الغيرة المفتعلة

وفِي الآوِنَةِ الأَخِيرَةِ مِنْ قَرْنِنَا المُعَاصِرِ، وقَعَ لِكَثِيرٍ مِنَ المُسلِمِينَ مَا يُشْبِهُ الفِتْنَةَ فِي دِينِهِم، ذَلِكَ عِندَمَا عَمَدَ بَعضُ المُغْرِضِينَ، المُنَاوِئِينَ للإِسـلاَمِ والمُسْلِمِينَ مِنَ الغَرْبِيِّينَ، إِلَى ابْتِدَاعِ رُسُومٍ زَعَمَ أَنَّهَا تُحَاكِي شَخْصَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ، تَدْعُو للسُّخرِيَةِ مِنْهُ، ومِنْ دِينِهِ، نَشَروهَا فِي بَعْضِ صُحُفِهِم، وتَنَاقَلَتْهَا أَكثَرُ قَنَواتِ العَالَمِ الفَضَائِيَّةِ، وصَحَافَتِهِ.

فَقَامَتْ فِـي بَعْضَ دُولِ العَالَمِ الإِسـلاَمِيِّ مَا يُشـبِهُ الزَّوبَعَةَ مِنْ مُظَاهَرَاتِ التَّنْدِيدِ بِتِلكَ الفِعْلَةِ الشَّنِيعَةِ، وَكَتَبَتِ الصُّحُفُ مُنَدِّدَةً، وعُقِدَتِ النَّـدَوَاتُ، والمُؤتَمراتُ، وكَانَ الغَرَضُ مِنْهَا، كَمَا زَعَمَ مُنَظِّمُوهَا، بَيَانَ قَدْرِ النَّبِيِّ ﷺ وعُلُوِّ مَكَانَتِهِ، وعِظَمِ خُلُقِهِ، وكَمَالِ خَلْقِهِ!!.

وَنَسِيَ أُولَئِكَ، أَوْ تَنَاسَـوا وَعْدَ الحَقِ، تَبَارَكَ، وَتَعَالَى لِنَبِيِّـه مُحَمَـدٍ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ

تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٧].

فَأَمَرَ ﷺ بِرَفْعِ الحِرَاسَةِ عَنْهُ مِنْ أَصْحَابِهِ بَعْدَ نُزُولِهَا. وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا لِنَبِيِّهِ حَاثًّا، وَمُسَانِدًا: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ [الحجر: ٩٤ – ٩٦].

الهُزْءُ: الاسْتِخْفَافُ، والسُّخْرِيَةُ، فَهَذَا كَانَ شَأْنَهُمُ مُنْذُ فَجْرِ الرِّسَالَةِ.

وَعَصَمَ اللهُ رَسُولَهُ، وَحَفِظَهُ مِنْ كَيْدِ، وَأَذَى أَعْدَائِهِ، أَو النَّيْلِ مِنْهُ ﷺ مُدَّةَ حَيَاتِهِ عَلَى الأَرْضِ.

فَأَجْهَدَ بَعْضُ المُسلِمِينَ اليَومَ نَفسَهُ فِي البَحثِ، وسُؤَالِ العُلَمَاءِ، عَنِ الأَدِلَّةِ الدَّامِغَةِ فِي كَمَالِ صِفَةِ نَبِيِّنَا ﷺ، لِيُواجِهوا أُولَئِكَ المُغرِضِينَ بها، كما يَزْعُمُونَ!!.

آلآنَ! وقَد كُنتَ مِن قَبلُ فِي غَفلَةٍ مِنْ هَذَا، وكُنتَ مِمَّنْ هَجَرَ القُرآنَ، وتَدَبُّرهُ، وانصَرَف بَعضُكُم إِلَى التَّبَرُّكِ

بالأَضْرِحَةِ، فعَرَفَ عَــنْ أَصْحَابِهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَرَفَهُ عَن نَبِيِّه ﷺ، والبَعْضُ كَانَ مِمَّنْ يَتَمَرَّغُ فِي أَوحَــالِ الصُّوفِيَّةِ المُغَالِيَةِ، فَعَلِمَ مِنْ طُرُقِهَاالمَشِــينَةِ، ومَــا يُصَاحِبُهَا مِنَ الرَّقْــصِ، والغِنَاءِ، مَا يُسَمُّونَهُ ذِكْرًا، الشَّيْءَ الكَثِيرَ، والبَعضُ كَانَ مُنصَرِفًا إِلَى اللَّهوِ، والمُجونِ، ومَعصِيَةِ الرَّسُولِ؟!!

إِنَّ مَا وقَعَ فِي حَقِّ سَــيِّدِنَا، ونَبِيِّنَا، وحبِيبِنَا، وقُدوَتِنَا مِنْ تَهَكُّمٍ، وازدِراءٍ، غَيرُ مُســتَغْرَبٍ عِنْدَ عُقَلَاءِ المُســلِمينَ، فَقَد أَخبَرَنَا اللــهُ فِي القُرآنِ بِحَقِيقَــةِ نَوَايَاهُم تُجَــاهَ نَبِيِّنَا، ودِينِه، قَائِلًا مِن عُــلَاهُ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، بَلْ اِعْتَبَرُوهُ حِقْدًا دَفِينًا عَلَيهِ، واعتِرَافًا مُبَطَّنًا مِنهُمُ بِعَظَمتِهِ، عَلَى حَدِّ قَولِ الشَّاعِرِ:

وإِذَا أَتَتْــكَ مَذَمَّتِي مِــن نَّاقِصٍ
فَهِــيَ الشَّــهادَةُ لِي بِأَنِّــي كَامِلُ

ومَا وَقعَ كَرَدِّ فِعْلٍ للإِسَاءَةِ مِنْ بَعضِ الشُّعُوبِ المُسلِمَةِ مِن تَظَاهرٍ، وعُنْفٍ، وتَشَنُّجٍ، واعتِدَاءٍ عَلَى بَعضِ المُمتَلَكَاتِ

العَامَّةِ، والخَاصةِ فِي بَعْضِ العَوَاصِمِ الإِسْلامِيَّةِ، لَا يُبَاعِدُ فِي رُعُونَتِهِ، مَا فَعَلَهُ أعدَاءُ دِينِهِم مِن تَطَاول عَلى ثَوَابِتِ دِينِنَا.

وعِندَمَا سُئِلَ صَاحِبُ الرُّسُوم السَاخِرةِ، مِن أَحَدِ مُحَرِّرِي الصُّحُفِ عِنْدَهُمُ عَنْ مَدَى عِلْمِهِ بِحَقِيقَةِ نَبِيِّ الإِسلَامِ؟ أَجَابَ: كُنْتُ أَظُنُّهُ كَأَتبَاعِهِ المُعَاصِرينَ لَنَا اليَومَ!!.

ومَنْ لَاعِلْمَ لَهُ بِمَعْرِفَةِ الأُمُورِ، فَإِنَّهُ يَقِيسُ الدِّينَ بِالْرِجَالِ، بَيْنَمَا المَعْقُولُ أَنْ يُقَاسَ الرِّجَالُ بِالدِّينِ.

وكَانَ المُستَشرِقُ النِمسَاويُّ، مُحَمَّدُ أَسَد، قَدْ وَصَفَ فِي كِتَابِه، الطَّرِيقُ إِلى مَكَةِ، حَقِيقَةَ مَا يَشعُرُ بِهِ الغَربِيُّونَ، مِنْ أَهلِ الكِتَابِ وغَيرِهِم تُجَاهَ الإِسلَامَ وأَهْلِهِ قَائلاً: «الآرَاءُ الشَّائِعَةُ فِي الغَربِ عَنِ الإِسلَامِ تُرْجِعُ انحِطَاطَ المُسلِمِينَ إِليهِ، وأَنَّهُ بِمُجَرَّدِ تَحَرُّرِهِم مِن العَقِيدَةِ الإِسلَامِيَّةِ، وتَبَنِّي مَفَاهِيمَ الغَربِيِّينَ، وأَسَالِيبَ حَيَاتِهِم، سَيَكُونُ أَفضَلَ لَهُم، ولِلعَالَمِ.

ويَقُولُ: «اتَّضَحَ لِي أَنَّ تَخَلُّفَ المُسلِمِينَ لَمْ يَكُنْ نَاتِجاً عَنِ الإِسلَامِ، ولَكِنْ لإِخفَاقِهِم فِي أَنْ يَحْيَوا كَمَا أَمَرَهُم.

ويَقُولُ: «إِنَّ الغَربِيِّينَ مُتَعَجْرِفُونَ، يَعتَقِدونَ عَنْ قَنَاعَة أَنَّ حَضَارتَهُم هِي الَّتِي سَتُنِيرُ العَالَمَ، وتُحَقِّقُ السَّعَادَةَ، وأَنَّ كُلَّ المشكِلاتِ البَشَرِيَّةِ يُمكِنُ حَلُّهَا فِي المَصانِعِ، والمَعَامِلِ»!!.

ويَقُولُ: «إِحسَاسُ الرَّجُلِ الغَربِيِّ أَنَّ الدِّينَ قَد خَذَلَهُ، جَعَلَهُ يَفقِدُ إِيمَانَهُ الحَقِيقِي بِالمَسيحيَّةِ، فَعَاشَ فِي خِوَاء رُوحِيٍّ، أَخلاقِي، وفَقَدَ بَراءَتَهُ، وتَمَاسُكَهُ الدَّاخِليَّ مَعَ الطَّبِيعَةِ، فَأَصبَحَ مُرتَابًا، ذَا شُكُوكٍ».

وَيَقُولُ: «وبِسَبَبِ فَقْدِهِ كُلِّ تَوجِيهٍ دِينِيٍّ اخْتَرَعَ لِنَفْسِهِ حُلَفَاءَ مِيكَانِيكِيِّينَ، فَنَمَا عِنْدَهُ مَيْلٌ مَحْمُومٌ إِلَى التَّقْنِيَةِ، فَاخْتَرَعَ كُلَّ يَوم آلَةً جَدِيدَةً لإِثبَاتِ وجُودِهِ».

ويَقُولُ: «إِنَّ الانْتِصَارَاتِ المَادِيَّةَ التِي يُعْلِنُ عَنهَا، هِيَ فِي صَمِيمِهَا ذَاتُ صِفَةٍ دِفَاعِيَّةٍ، لاَ تَمنَعُ الخَوفَ مِنَ الغَيْبِ».

وقَالَ: «إِنَّ تَفرِيقَ الكَنِيسَةِ بَينَ مَا لِلرَّبِّ، ومَا لِقَيْصَرَ، نَتَجَ عَنْهُ تَرْكُ الجَانِبِ الاجتِمَاعِـيِّ، والاقتِصَادِيِّ يُعَانِيَانِ فَرَاغًا دِينِيًّا، وتَرَتَّبَ عَلَى ذَلِكَ غِيَابُ الأَخْلاَقِ فِي المُمَارَسَـاتِ السِّيَاسِيَّةِ، والاقتِصَادِيَّةِ مَعَ بَاقِي دُولِ العَالَمِ». أ. هـ.

أَقُولُ: لَقَد اِعتَمدَ المُغْرِضُونَ فِي رُسُومَاتِهِم السَّاخِرَةِ عَلَى خَيَـال لَا يَمُتُّ إِلَـى الحَقِيقَةِ بِصِلَةٍ، إِنَّمَـا هُو عَبَثُ عَابِثِينَ، وحِقْـدُ حَاقِدِينَ، ووَهْمٌ، وظُنُـونٌ، وتَخَيُّلٌ لُبِّسَ عَلَيْهِم تَلْبِيسًـا، يَفتَقِرُ إِلَى دَلِيلٍ مُوثَّقٍ يُثبِتُ مُطَابَقَةَ الرَّسْـمِ مَعَ الأَصْلِ، ﴿... وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ...﴾ [النساء: ١٥٧]، كَمَا وقَعَ لأَسـلاَفِهِمْ لِمَنْ صَلَبُوهُ مِنَ اليَهُودِ عَلَى أَنَّهُ المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَم، عَلَيهِ السَّـلَام، وقَد انْطَلَـتْ عَلَيهِم حِيلَةُ يَهودَ، فاعتَقَدوهُ هُوَ، هُوَ!!!.

قَال أَحَدَ شُعَرَاءِ المُسلِمِينَ المُعَاصِرِينَ:

ولاَ الإِسَاءَةُ مَا فِي الرَّسْمِ مِنْ صُوَرٍ
لَكِنَّهَا نِسْـبَةٌ قِيلَتْ وأَلْقَـابُ

بَلْ شُبِّهَتْ لَهُمُ فِي الرَّسْمِ صُورَتُهُ
يَبْدُو السَّرَابُ زُلاَلاً وهُو كَذَّابُ

وكَانَ يَجِبُ أَن نَتَرفَّعَ عَنِ اسْتِفزازِ الغَوغَائِيِّينَ، لِكَي لَا نَجعَلَ للشَّانِئِينَ طَرِيقًا إِلَى سَبِّ اللهِ ورَسُولِهِ، إِنْ نَحنُ سَابَبنَاهُم، امْتِثَالًا لِقَولِ رَبِّنَا عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

فَالدِّفَاعُ الحَقِيقِيُّ عَنْ دِينِنَا، وَنَبِيِّنَا، يَتَمَثَّلُ بِالتَّطْبِيقِ الفَاعِلِ مِنَّا، المُلْزِمِ بِمَا جَاءَ عَنِ اللهِ، وَرَسُولِهِ، مِنْ تَوْجِيهٍ، وَإِرْشَادٍ فِي كُلِّ مَنَاهِجِ حَيَاتِنَا العَامِّ، وَالخَاصِّ، وَأَنْ نُحَاوِلَ أَنْ نَكُونَ وَلَو جُزْئِيًا، كَنَبِيِّنَا ﷺ، خُلُقُنَا القُرْآنُ، كَمَا وَصَفَتْهُ أُمُّنَا، رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، عِنْدَهَا فَقَطْ سَنَفْرِضُ اِحْتِرَامَنَا، وَتَقْدِيرَنَا عَلَى الآخَرِينَ، بِتَعَقُّلٍ، بَعِيدًا عَنْ الغَوْغَائِيَّةِ، وَالجَهَالَةِ الجَهْلاَءِ. وقَدْ قِيلَ:

مَــنْ يَهُنْ يَسْــهُلِ الهَــوَانُ عَلَيْهِ
مَــا لِــجُــرْحٍ بِــمَــيِّــتٍ إِيْــلَامُ

وكُنتُ أَوَدُّ لَــوْ أُهْمِلَ الحَدِيثُ عَنْ الحَدَثِ مِنْ بِدَايَتِهِ، وَتَجَاهَلَــهُ المُســلِمُونَ تَمَامًا، واكْتَفَى زُعَمَاؤهُم بِإِشــعَارِ رُؤسَاءِ تِلكَ الحُكُومَاتِ بِشَنَاعَةِ مَا حَدَثَ، وَهَدَّدوا بِإِعَادَةِ النَّظَرِ فِي العِلاقَاتِ السِّياسِيَّةِ، والاقتِصَادِيَّةِ مَعَهُم.

فَيَكُونُ الأَمْرُ، إِنْ شَاءَ اللهُ عَلَى نَحْوِ مَا قَالَ الشَّاعِرُ:

اِصْبِرْ عَلَى كَيْدِ الحَسُــودِ فَــإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهْ
كَالنَّــارِ تَــأْكُلُ بَعْضَهَــا إِنْ لَمْ تَجِدْ مَــا تَأْكُلُه

وعَلَيْنَــا أَنْ نَحْــرِصَ عَلَى أَخْــذِ العِبَرِ مِــنْ أَحَدَاثِ المَاضِي، فَمَسأَلَةُ كِتَابِ آياتٌ شَــيطَانِيَّةٌ، لَيسَتَ مِنَّا بِبَعِيدٍ، وكَيفَ اكتَسَــبَ الكِتَابُ شُيوعًا، ومُؤَلِّفُهُ شُــهْرةً، وذُيُوعًا عَالَمِيًّا، جَعَلَتْ مِنْهُ شَخْصًا لامِعًا، مُنَافِحًا عَنْ حُرِيَّةِ الفِكْرِ، بِزَعْمِهِم، عِنْدَمَا أَهْدَرَ بَعَضُ المُنتَمِينَ للإِسلَامِ دَمَهُ، واعتَبَرَهُ

مُرتَدًّا عَنِ الإِسْلَامِ، ورُصِدَ لِذَلِكَ مُكَافَأَةٌ مَالِيَّةٌ كَبِيرَةٌ للمُنفِّذِ، فِي الوَقْتِ الَّذِي قَلَّدَتْهُ مَلِكَةُ الإِنْجِلِيزِ، وَرَئِيسَةُ الكَنِيسَةِ فِي بَلَدِهَا، وِسَامًا رَفِيعًا، وَبَوَّأَتْهُ مَكَانَةً اِجْتِمَاعِيَّةً مَرْمُوقَةً، اِعْتِرَافًا بِفَضْلِهِ، وَشَجَاعَتِهِ فِي مُنَاوَأَةِ الإِسْلَامِ، وَأَهْلِهِ!!.

وَكَمَا قَالَ رَبُّنَا لِسَلَفِهِمْ: ﴿قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٩] وَنَعْمَلُ بِمَا وَجَّهَنَا رَبُّنَا بِهِ، قَائِلًا:

﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

والصَّمْتُ أَجْمَلُ بالفَتَى
مِنْ مَنْطِقٍ فِي غَيْرِ حِينِهْ
كُلُّ امْرِئٍ فِي نَفْسِهِ
أَعْلَى وأَشْرَفُ مِنْ قَرِينِهْ

وصَاحَبَ ذَلِكَ فِي حِينِهِ مُظَاهَرَاتٌ صَاخِبَةٌ، وفَوْضَى عَارِمَةٌ مِنْ بَعْضِ الشُّعوبِ المُسلِمَةِ، انتَهَتْ جَمِيعُهَا إِلى

إِعطَاءِ أَعدَاءِ الإِســلَامِ دَلِيلًا مَادِّيًّا عَلَى مَدَى رُعُونَةِ بَعْضِ الشُّــعوبِ المُســلِمَةِ، ومَا يَحيَوْنَهُ مِن فَوضَى فِي حَياتِهِم، تَمَثَّلــتْ فِي انفِعَــالاتٍ وقْتِيَّةٍ، مَا أَنْ تَبْــدَأَ حَتَى تَضْمَحِلَّ، وتَتَلاشَــى، فَهُم كَالَّذِي يَجنَحُ عَنِ الصَّوابِ إِلى الخَطَأ تَبَعًا لِسِيَاسَةِ القَطِيعِ!!.

مُرْتَزِقَةٌ بِالمُوَارَاةِ

وهُنَاكَ مِنَ المُسْــلِمِينَ مُحْتَالٌ (يَتوارَى) خَلْفَ إِظهَارِ مَحبَّتِه الإِســلَامَ، وَعَطْفِهِ عَلَى المُسْلِمِينَ، والحِرصِ عَلَى تَحْسِينِ أَوضَاعِ المَعِيشَةِ لِلفُقَرَاءِ مِنْهُم، فَيَدعُو إِلَى نَوْعٍ مِنْ التَّكَافُــلِ الاجتِمَاعِيِّ، ومُسَــاعَدَةِ المُحْتَاجِينَ، فيَعْمَدُ إِلَى جَمْعِ الأَمْوَالِ مِنَ المُتَطَوِّعِينَ، عَلَى شَكْلِ هِبَاتٍ، وَزَكَواتٍ، وصَدَقَاتٍ، يَستَولِي المُحتَالُ عَلَى مُعظَمِهَا فِي تَكوِينِ ثَروَةٍ لِنَفْسِــهِ، أَو رُبَّمَا دَفَعَ جُزْءًا مِنْهَا إِلى أَرْعَنَ، مُتَعَصِّبٍ، ضَيِّقِ الأُفُق، يَتَقَوَّى بِهَا لِزَعزَعَةِ أَمْنِ المُجتَمَعِ، وتَروِيعِ الآمِنِينَ، وقَتْلِ الأَبْرِيَاءِ، بِاسْــمِ الجِهَادِ، وتَحْــتَ دَعوَى الغَيْرَةِ عَلَى الدِّينِ الإِسلاَمِي!!.

وعَلَيهِ يَجِبُ عَلَى المُصَدِّقِينَ، والمُصَّدِقَاتِ مِنْ ذَوِي النِّيَّاتِ الحَسَنَةِ، تَوَخِّي الحَذَرِ، والتَّأَكُّدُ مِنْ نَوْعِ المُسْتَحِقِّينَ لِصَدَقَاتِهِــم، عِنْدَ إِخرَاجِهَا مِــنْ زَكَاةٍ وَغَيرِهَا، أَو إِعطَائِهَا

لِجَمعِيَّاتِ البِرِّ المُرَخَّص لَهَا مِن وَلِيِّ الأَمْرِ؛ لإِيصَالِهَا إِلَى مُسْتَحِقِّيهَا بِطُرُقٍ شَرْعِيَّةٍ، صَحِيحَةٍ، مُتَوازِنَةٍ.

والَّذِي (يَتوارَى) خَلْفَ المَسْكَنَةِ، وتَمْثِيلِ الضَّعْفِ، والفَاقَةِ لِلحُصُولِ عَلَى زِيَادَةٍ فِي دَخْلِهِ لامْتِلَاكِ بَعْضِ الكَمَالِيَّاتِ غَيْرِ الضَّرُورِيَّةِ، وهُوَ لَا يَقْدِرُ مَادِيًّا عَلَى تَأْمِينِهَا بِالقَدْرِ الكَافِي، مَا يَخْلُقُ فِي نَفْسِهِ نَوْعًا مِنَ الحَسْرَةِ، والأَسَى اللَّذَيْنَ يُولِّدَانِ الحِقْدَ، والحَسَدَ عِندَهُ تُجَاهَ كُلِّ مُنْعَمٍ عَلَيهِ، فَقَدْ يَدْفَعُهُ مِثْلُ هَذَا الشُّعُورِ إِلَى إِيذَاءِ الآخَرِينَ فِي أَموَالِهِم، وأَنفُسِهِم بِإِلْحَافِهِ بالسُّؤَالِ، فَهُوَ لَا يَتَوَرَّعُ، غَالِبًا عِنْدَ طُغْيَانِ شَهَوَاتِهِ لِحُبِّ التَّمَلُّكِ، عَنْ تَطْبِيقِ مَبْدَإِ: الغَايَةُ تُبَرِّرُ الوَسِيلَةَ، الَّذِي يَقُومُ عَلَى الظُّلْمِ، وحُبِّ الذَّاتِ.

فَفِي الأَثَرِ: «**حُبُّ المَالِ، والجَاهِ يُنْبِتَانِ النِّفَاقَ فِي القَلبِ، كَمَا يُنْبِتُ المَاءُ البَقْلَ**».

وجَاءَ فِي الأَثَرِ أَيْضًا: «**لَطَلَبُ المَالِ، والثَّرْوَةِ أَسْرَعُ فِي خَرَابِ دِينِ الرَّجُلِ مِنْ ذِئْبَيْنِ، ضَارِيَيْنِ، بَاتَا فِي حَظِيرَةِ غَنَمٍ، مَا زَالَا فِيهَا حَتَّى أَصْبَحَا**».

قِيلَ لأَحَدِهِـــم، وكَانَ مِمَّنْ يَتَطَلَّعُ إِلَى مَـــنْ هُوَ يَفُوقُهُ مَعِيشَـــةً، غَيْرِ قَانِعٍ بِمَا رَزَقَهُ اللهُ، التَحَقَ بِعَمَلٍ إِدَارِيٍّ لَدَى بَنْك رِبَويٍّ، وتَرَكَ إِتْمَامَ دِرَاسَـــتِهِ الجَامِعِيَّـــة، وهَو مَا زَالَ يَافِعًا: أَتَقْوَى عَلَى مُحَارَبَةِ اللهِ، ورَسُولِهِ؟!!

وَقَدْ أَجْمَـــعَ عُلَمَاءُ المُسْـــلِمِينَ عَلَى تَحْرِيـــمِ الرِّبَا فِي الجُمْلَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وَالأَحَادِيثُ فِي تَحْرِيمِهِ كَثِيرَةٌ، مَشْهُورَةٌ، مِنْهَا حَدِيثُ جَابِرٍ يَرْفَعُهُ:

«**لَعَنَ رَسُـــولُ اللهِ ﷺ. آكِلَ الرِّبَا، وَمُوكِلَـــهُ، وَكَاتِبَهُ، وَشَاهِدَيْهِ، وقَالَ: «هُمْ سَوَاءٌ»**. وَقَدْ أَجْمَعُوا أَنَّهُ مِنَ الكَبَائِرِ، الَّتِي تُوجِبُ لِصَاحِبِهَا دُخُولَ النَّارِ، مَا لَمْ يَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهِ تَوْبَةً نَصُوحًا.

وَقَالُـــوا: فِي الحَدِيـــثِ تَصْرِيحٌ بِتَحْرِيمِ كِتَابَـــةِ المُبَايَعَةِ بَيْـــنَ المُرَابِينَ، أَو الشَّـــهَادَةِ عَلَيْهَا؛ لأَنَّهُمَا نَوْعَـــانِ مِنَ الإِثْمِ

وَالعُدْوَانِ، واللهَ تعالى يقول: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

فَأَجَابَ بِشيءٍ مِنَ الحِدَّةِ: حَاجَتِي لِلمَالِ أَقْوَى، وسُلْطَانُها أَمْضَى!!.

فقِيلَ لَهُ بِرِفْقٍ: إِنَّكَ مَازِلْتَ شَابًّا، والمُستَقبَلُ أَمَامَكَ، وأَنْتَ فِي بِدَايَتِهِ، فَاغتَنِمْ فُرْصَتَكَ فِي إِتمَامِ دِرَاسَتِك، فَسَتُفَتَّحُ أَمَامَكَ آفَاقٌ جَدِيدَة، بَعْدَ تَخَرُّجِكَ، إِنْ شَاءَ اللهُ، تُغْنِيكَ عَن الكَسبِ الخَبِيثِ، خَيْرٌ مِن أَن تُغَذِّي نَفسَكَ، وأَهلَكَ بالكَسْبِ الحَرَامِ، فَـ «**كُلُّ لَحْم نبَتَ مِنَ السُّحْتِ فَالنَّارُ أَولَى بِه**» وَالسُّحْتُ: الشَّيءِ الحَرَامُ، ومَا لَا يَحِلُّ تَنَاوُلُه؛ لأَنَّه يَذْهَبُ بِدِينِ صَاحِبِهِ، وَمَرُوءَتِهِ، وبَالبَرَكَةِ. وَقَبْلَ أَنْ تَكُون كَالَّذِي يَدعُو فَلا يُسْتَجَابُ لَهُ، يَقُولُ: «**يَا رَبُّ، يَا رَبُّ، ومَأْكَلُهُ حَرَامٌ، ومَلبَسُهُ حَرَامٌ، وغُذِّيَ بِالحَرَامِ، فَأَنَّى يُستجَابُ لَهُ**»!!.

وَلَكَ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ، إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ، والمُرَادُ أُمَّتُهُ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ

زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: ١٣١]، قِيلَ: ذَلِكَ كِنَايَةً عَنْ التَّطَلُّعِ لِمَا فِي أَيْدِيهِم مِن زَخَارِفِ الدُّنْيَا، وَعَبَّرَ بِالإِعْرَاضِ عَنِ زِينَةِ الدُّنْيَا المَنْهِيِّ عَنْهَا، بِعَدَمِ مَدِّ الطَّرْفِ إِلَيْهَا، فَإِنَّ مَنْ أَعْجَبَهُ شَيءٌ أَتْبَعَهُ نَظَرَهُ.

والنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَّبْتَهَا
وإِذَا تُرَدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

وَقَالَ أَبُو العَتَاهِيَةِ:

مَا ضَرَّ مَنْ جَعَلَ التُّرَابَ مِهَادَهُ
أَلَّا يَنَامَ عَلَى الحَرِيرِ إِذَا قَنِعْ

وقَالَ آخَرُ:

النَّفْسُ تَجْزَعُ أَنْ تَكُونَ فَقِيرَةً
والفَقْرُ خَيْرٌ مِنْ غِنًى يُطْغِيهَا

وغِنَى النُّفُوسِ هُوَ الكَفَافُ فَإِنْ أَبَتْ
فَجَمِيعُ مَا فِي الأَرْضِ لَا يَكْفِيهَا

وَجَاءَ فِي الأَثَرِ عَنِ الحَسَنِ بنِ عَلِيّ، قَوْلُهُ: «**مَنْ اتَّكَلَ عَلَى حُسْنِ اخْتِيَارِ اللهِ لَهُ، لَمْ يَتَمَنَّ أَنَّهُ فِي غَيْرِ الحَالَةِ الَّتِي اخْتَارَهَا اللهُ لَهُ، وَهَذَا حَدُّ الوُقُوفِ عَلَى الرِّضَا بِمَا تَصَرَّفَ بِهِ القَضَاءُ**». أ.هـ.

فَعَلَيْكَ أَنْ تَتَحَلَّى بِالصَّبْرِ، والمُثَابَرَةِ، ولَا تَسْتَعْجِلْ رِزْقَكَ، فَلَنْ تَحُوزَ مِنَ الرِّزْقِ إِلَّا مَا قَسَمَهُ اللهُ لَكَ فِي الأَزَلِ، كَمَا نَصَّ عَلَيْهِ الحَدِيثُ المَرْفُوعُ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا اللهَ، وأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوفِيَ رِزْقَهَا، وإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَاتَّقُوا اللهَ وأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، خُذُوا مَا حَلَّ، ودَعُوا مَا حَرُمَ**»!.

وقَالَ البَارِي عَزَّ وجَلَّ قَبْلَ ذَلِكَ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ [الطلاق: ٢ – ٣].

وقِيلَ شِعْرًا:

فَفِي أَيِّ شَيءٍ تَذْهَبُ النَّفْسُ حَسْرَةً
وَقَدْ قَسَّمَ الرَّحْمَنُ رِزْقَ الخَلَائِقِ

مِثْلُ ذَلِكَ الإِنسَانُ أُصِيبَ فِي إِرَادَتِهِ بَالوَهَنِ، وغَلَبَتْ عَلَيهِ أَحْلَامُ يَقَظَتِهِ، وتَهَاوَى أَمَامَ شَهَوَاتِهِ، وأَعَاقَهُ النَّظَرُ إِلَى أَعْلَى عَنْ رُؤيَةِ وَقْعِ أَقْدَامِهِ عَلَى طَرِيقِ الوَاقِعِ الَّذِي يَحْيَاهُ، فَلَم يَسْتَطِع أَن يُمَيِّزَ بَيْنَ الحَلالِ والحَرَامِ، مِنْ حَيثُ عَاقِبَةُ الأُمورِ، كَالَّذِي يُلْهِيهِ الأَمَلُ، واللهُ يَقُولُ فِي مُحكَمِ كِتَابِهِ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

ولكِنَّهُ كانَ أُذُنًا للمُسَوِّفِينَ، المُؤَوِّلِينَ، كَأَنَّهُ اسْتَبْطَأَ الرِّزْقَ الحَلالَ، أَو هُوَ تَقَالَّهُ، وكَانَ فِي عَجَلَةٍ مِنْ أَمْرِهِ، فَأَرَادَ أَنْ يَختَصِرَ طَرِيقَهُ إِلى جَمْعِ المَالِ كَيْفَمَا اتَّفَقَ، ضَارِبًا عُرْضَ الحَائِطِ بِجَمِيعِ المَحَاذِيرِ الشَّرْعِيَّةِ، فَتَجِدُهُ يُكْثِرُ مِن التَّسْوِيفِ، ويُلْهِيهِ الأَمَلُ، عِنْدَ مُحَاوَلَتِهِ اتِّخَاذَ القَرَارِ

الأَصــوَبِ بالتَّوْبَةِ، والإِقْــلَاعِ عَنِ الذَّنْــبِ، ولِمِثْلِهِ يَقُولُ القَائِلُ:

مُــؤَمِّــلِ دُنـيَـا لِـتَـبْـقَـى لَـهُ
فَمَاتَ المُؤَمِّلُ قَبْلَ الأَمَـلْ

وبَـاتَ يُـرَوِّي أُصُــولَ الفَسِيلِ
فَعَاشَ الفَسِيلُ ومَاتَ الرَّجُلْ

وعَلَيْهِ أَنْ يَحْــرِصَ أَلَّا يَكُونَ مِمَّنْ وَصَفَهُمُ الشَّــاعِرُ بِقَوْلِهِ:

للهِ دُنْـيَـا أُنَــاسٍ دَائِبِينَ لَهَا
قَدْ ارْتَعَوْا فِي رِياضِ الغَيِّ وَالفِتَنِ

كَسَــائِمَاتِ رَتَاعٍ تَبْتَغِي سِــمَنًا
وَحَتْفُهَا لَوْ دَرَتْ ذَلِكَ السِّــمَنُ

وأَبْلَغُ مِنْهُ قَوْلُ مَنْ قَالَ:

النَّــارُ آخِــرُ دِينَــارٍ نَطَقْــتَ بِهِ
وَالهَمُّ آخِرُ هَذَا الدِّرْهَمِ الجَارِي

وَالمَرْءُ بَيْنَهُمَــا مَا لَمْ يَكُنْ وَرِعًا
مُعَذَّبُ القَلْبِ بَيْــنَ الهَمِّ وَالنَّارِ

ولَو أَنَّهُ بِبَسَــاطَةٍ شَدِيدَةٍ نَظَرَ عِنْدَ تَقييمِ مُسْتَوَى مَعِيشَتِهِ إِلَــى مَنْ هُوَ دُونَهُ مَعِيشَــةً، لَوَجَدَ أَنَّهُ فِي حَــالٍ أَفْضَلَ مِنْ كَثِيرِينَ غَيْرِهِ، ولَمَا ازْدَرَى نِعْمَةَ اللهِ عَلَيهِ ﴿... وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ...﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وعَكْسُــهُ ذُو القَنَاعَةِ والعِفَّةِ، رَاضِيًا بِمَا قَسَــمَ اللهُ لَهُ فِي الحَيَــاةِ الدُّنْيَا مِنْ أَنوَاعِ الرِّزْقِ، لِحِفْــظِ دِينِهِ، وكَرَامَتِهِ. (يَتَــوارَى) خَلْفَ التَّظَاهُرِ بِالغِنَى أَمَامَ مَــنْ لَا يَعْرِفُهُ، حَتَّى لَا يَزْدَرِيَــهُ، فَلَعَلَّهُ، واللهُ أَعْلَمُ، مِمَّــنْ ذَكَرَهُم اللهُ فِي كِتَابِهِ مَادِحًا إِيَّاهُم بِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ

ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

فَهُوَ يَعتَقِدُ جَازِمًا أَنَّ اللهَ هُو الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِين، وأَنَّ مَا قدَّرَهُ لَهُ مِنْ رِزْقٍ، يَطْرُدُهُ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا، كَمَا يَطْرُدُهُ أَجَلُهُ فِيهَا، حَتَّى يُلاقِيَهُ، فَإِيمَانُهُ بِخَالِقِهِ يُهَوِّنُ عَلَيْهِ وَقْعَ المِحَنِ، وَالمَصَائِبِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى يَمْتَحِنُ بَعْضَنَا بِبَعْضٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿... وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢٠]

مُتَمَثِّلًا بِقَولِ القَائِلِ:

هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنَّ الأُمُورَ
بِكَفِّ الإِلَهِ مَقَادِيرُهَا

فَلَيسَ بِآتِيكَ مَنْهِيُّهَا
ولَا قَاصِرٌ عَنْكَ مَأْمُورُهَا

جَاءَ فِي الأَثَرِ: «**أَشَدُّ النَّاسِ حَسْرَةً يَوْمَ القِيَامَةِ، رَجُلٌ كَسَبَ مَالًا مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ، فَدَخَلَ بِهِ النَّارَ، وَوَرِثَهُ مَن عَمِلَ فِيهِ بِطَاعَةِ اللهِ، فَدَخَلَ بِهِ الجَنَّةَ**».

والرَّجُلُ يَكْسِبُ مَالًا، عَلَيْهِ وِزْرُهُ فَيُعَاقَبُ يومَ القِيَامَةِ، ثُمَّ يَرَى غَيْرَهُ قَدْ وَرِثَ ذَلِكَ المَالَ عَنْهُ، فَعَمِلَ بِهِ بِالطَّاعَةِ، فَيُثَابُ عَلَيْهِ، فَلَا يُرَى أَغْبَنُ مِنْهُ، حَيْثُ سُعِدَ غَيْرُهُ بِمَا شَقِيَ هُوَ بِهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿... ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩].

ومِنَ النَّاسِ مَنْ (يَتَوَارَى) خَلْفَ دَعْوَى المَوَدَّةِ، وإِظْهَارِ الوَلَاءِ للبَعْضِ مُدَاهَنَةً لِيُؤَسِّسَ عَنْ طَرِيقِ المَحْسُوبِيَّةِ عِلَاقَاتٍ مَعَ مَنْ يَتَوَسَّمُ فِيهِ مَنْفَذًا، ومُنَفِّذًا لِتَحْقِيقِ مَصَالِحِهِ الخَاصَّةِ فِي وَقْتٍ قِيَاسِيٍّ، مِنْ دُونِ سَابِقِ مَعرِفَةٍ بِهِ، بَلْ بِنَوعٍ مِنَ التَّطَفُّلِ، والفُضُولِ، ومَعرِفَةِ مَا يُحِبُّ، ومَا يَكرَهُ، كَمِفْتَاحٍ لِشَخْصِيَّةِ الضَّحِيَّةِ، والمُدَاوَمَةِ عَلَى زِيَارَاتِهِ فِي أَكْثَرِ مُنَاسَبَاتِهِ العَامَّةِ، والخَاصَّةِ!!

والمُقتَــدِرُ مِنْ هَؤُلَاءِ الانتِهَازِيِّينَ، يُنفِــقُ أَمْوَالًا طَائِلَةً عَلَى إِقَامَةِ الوَلَائِمِ لِبَعضِ فَرَائِسِــهِ فِــي مَنْزِلِهِ، أَو مَزْرَعَتِهِ، وهُوَ فِي مُعْظَمِ هَذِهِ الأَحْوَالِ يُدَاهِنُ، ويَمْزِجُ الجِدَّ بِالهَزْلِ، وأَحيَانًا الحَقَّ بالبَاطِلِ، والصِّدْقَ بالكَذِبِ، ويَبذُلُ فِي سَبِيلِ تَحْقِيقِ ذَلِكَ جَهْدًا مُضَاعَفًــا، مَادِّيًّا، ومَعْنَوِيًّا، ويَتَوانَى عَن بَذْلِ أَقَلَّ مِنْهُ فِي عَمَلِ الخَيرِ!!؟.

ويُقِيمُ الوَلَائِمَ الكُبرَى للمَسْــؤُولِينَ الكِبَارِ، وَوجَهَاءِ المُجْتَمَعِ، وتَقْدِيمُ الهَدَايَا الثَّمِينَةِ، مِنْ أَهَمِّ مَا يُمَيِّزُ الانتِهَازِيَّ المُتَمَكِّنَ عَنْ غَيْرِهِ مِمَّنْ يُشَــارِكُهُ التَّوَجُّهَ نَفْسَــهِ. وهَذَا مِنْ وَسَائِلِ الحِيَلِ الكُبْرَى، للتَّأْثِيرِ فِي مُقَاوَمَةِ تَمَنُّعِ المَسْؤولِ، أَوَ تَرَدُّدِهِ فِي تَسْهِيلِ قَضَاءِ حَاجَاتِ المُحْتَالِ الفَرْدِيَّةِ، بِقَصْدٍ، أَوْ بِحُسْنِ نِيَّةٍ.

يُقَالُ عَنْ أَحَدِ الانْتِهَازِيينَ: إِنَّهُ أَحْدَثَ شَرْخَينِ كَبِيرَينِ فِي جِدَارِ مَجْلِسِهِ الكَبِيرِ؛ لِتَمْكِينِ الضَّيْفِ الضَّحِيَّةِ الوصُولَ إِلَى مَقْعَدِهِ الوَثِيرِ فِي رَأْسِ المَجْلِسِ بِسَيَّارَتِهِ الخَاصَّةِ، دُونَ

عَنَاءٍ، والعَوْدَةِ بِهِ بِكُلِّ سُهُولَةٍ، وَيُسْرٍ، مِنْ فَوْقِ فُرُشٍ، مُزَخْرَفَةٍ، مُبَطَّنَةٍ، إِمْعَانًا فِي تَكْرِيمِهِ، كَمَا يُتَوَهَّمُ!!؟

أَلَمْ يَقْرَأْ المُحْتَالُ قَوْلَ اللهِ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾ [الروم: ٣٩].

قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الآيَةِ: «مَنْ أَعْطَى هَدِيَّةً يُرِيدُ أَنْ يَرُدَّ النَّاسُ عَلَيْهِ أَكْثَرَ مِمَّا أَهْدَى لَهُم، فَهَذَا لَا ثَوَابَ لَهُ عِنْدَ اللهِ، إِنَّمَا الثَّوَابُ عِنْدَ اللهِ فِي الزَّكَاةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾ [الروم: ٣٩].

وقَالَ الضَّحَّاكُ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ [المدثر: ٦]: «لَا تُعْطِي العَطَاءَ تُرِيدُ أَكْثَرَ مِنْهُ».

وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ مِنْ تَلْبِيَةِ المَسؤولِ الوَاعِي، الدَّعْوَةَ، لِمِثْلِ هَذِهِ الوَلَائِمِ مِنْ شَخْصٍ لَمْ يَسْبِقْ لَهُمَا

التَّزَاورُ مِنْ قَبْلُ، أَلَا يَشْتَمُّ مِنْ هَذَا الاحْتِفَاءِ المُفْرِطِ، رَائِحَةُ التَّزَلُّفِ، والرِّيَاءِ، وأَنَّ وَرَاءَ الأَكْمَةِ مَا وَرَاءَهَا؟!!.

أَلَمْ يَسْمَعْ بِالْقَوْلِ الشَّائِعِ: «كُلَّمَا تَعَاظَمَتِ الهَدِيَّةُ، تَعَاظَمَ مَعَهَا الشَّكُّ»؟

وتَجِدُ مِثْلَ هَذَا الانْتِهَازِيِّ (المُتَوارِي) خَلْفَ هَذَا الكَرَمِ المُصْطَنَعِ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ ذَكَاءً، وفِطْنَةً، فَهُوَ يَسْتَثْمِرُهُ لِإِشْهَارِ نَفْسِهِ بِأَنَّ لَهُ صِلَةً بِذَلِكَ المَسْؤولِ، فَيَدْعُو أَكْبَرَ عَدَدٍ مُمْكِنٍ مِنْ وجَهَاءِ البَلَدِ، مِنَ المُتْرَفِينَ، ذَوِي المُيولِ المَادِّيَّةِ، والغَاوِينَ مِثْله، لِمُشَارَكَتِهِ التَّرحِيبِ بِالضَّيفِ، فَيَتَدَافَعُونَ إِلَى مَكَانِهِ بِمَعَارِيضِهِمْ لِيُسَلِّمُوهَا إِلَى المَسْؤُولِ مُبَاشَرَةً.

ورُبَّمَا استَطَاعَ إِشْرَاكَ مُعْظَمِ أَفْرَادِ المُجْتَمَعِ بِأَسْرِهِ فِي مَعْرِفَةِ خَبَرِ الوَلِيمَةِ، بِتَدبِيرِ مَنْ يَلتَقِطُ لَهُ الصُّوَرَ، وَهُوَ بِجَانِبِ المَسْؤولِ الوَدِيعِ، وهو يَبتَسِم فِي وَجْهِهِ، ونَشرِهَا فِي الصُّحُفِ المَحَلِّيَّةِ، والأَجنَبِيَّةِ!!

وكُلُّ هَذَا وغَيْرُهُ مِنَ المَظَاهِرِ المُتكَلَّفَةِ، لَهُ دَلالَةٌ مُهِمَّةٌ عِنْـدَ النَّفْعِيِّينَ، والوصُولِيِّـينَ، أَمثَاله، فَيَحْسِـبُونَ لَهُ كَبِيرِ حِسَابٍ بَيْنَهُم عِنْدَ تَعَارُضِ المَصَالِحِ بَيْنَهُمُ!!

ومِنَ المُؤْسِـفِ أَنَّ مِثْلَ هَذَا النَّهْـجِ، يُدْرِجُهُ البَعْضُ فِي مَنْظُومَةِ المُجَامَلَةِ، أَو المُـدَارَاةِ المَطلُوبَةِ بَينَ الرَّاعِي، والرَّعِيَّةِ، وبَيْنَ المُسْلِمِ وأَخِيهِ المُسْلِمِ، تَطْيِيبًا لِخَاطِرِهِ!!

والبَعْـضُ يَمتَدِحُ ذَكَاءَ الفَاعِلِ فَيُصنِّفُـهُ تَحْتَ مَفْهُومِ القَوْلِ السَّائِرِ: فُلانٌ يَعْرِفُ مِنْ أَيْنَ تُؤْكَلُ الكَتِفُ!!

نَعَم! هُـوَ كَمَا قَالَ، لَوْ أَنَّـهُ يَقومُ بِتَمْييزِ مَـا يَأْكُلُهُ مِنَ الكَتِفِ، أَمِنْ حَلال هُوَ؟

والَّذِينَ (يَتَوَارَوْنَ) خَلْفَ إِظهَارِ الحِرْصِ عَلَى مَصَالِحِ أَفْرَادِ المُجْتَمعِ، يَتَّخِذُونَ الشَّـكَّ، والظَّنَّ السَّيِّئَ، والرِّيبَةَ، مُقَدِّمَاتٍ مُلْزِمَةً لَهُمْ عِنْدَ تَعَامُلِهِم مَعَ الآخَرِينَ، عَلَى مَفهُومِ مَنْ قَالَ: «أَنَا أَشُكُّ، إِذًا أَنَا مَوْجُودٌ». ويَفْهَمُونَ مِنْ قَوْلِ اللهِ

تَعَالَى: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢] أَنَّ فِي الظَّنِّ مَا لَيْسَ إِثْمًا، ويَتْرُكُونَ صَدْرَ الآيَةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ [الحجرات: ١٢].

قِيلَ: أُمِرُوا بِاجْتِنَابِ الكَثِيرِ مِنْهُ؛ حَتَّى لَا يُصَادِفُوا البَعْضَ الَّذِي فِيهِ إِثْمٌ.

بَيْنَمَا جَاءَ فِي الأَثَرِ: «**إِنَّ اللهَ حَرَّمَ مِنَ المُسْلِمِ دَمَهُ، وَمَالَهُ، وأَنْ يُظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ**». وَقِيلَ: «**إِنَّ حُسْنَ الظَّنِ مِنْ حُسْنِ العِبَادَةِ**».

مِثْلُ هَؤُلَاءِ عِنْدَ تَقَلُّدِهِم مَصَالِحَ المُسلِمِينَ، يَكُونُونَ السَّبَبَ المُبَاشِرَ فِي تَأْخِيرِ إِنْجَازِ مُعَامَلَاتِ أَكْثَرِ المُرَاجِعِينَ؛ لافتِقَارِهِم للمُرُونَةِ، وحُسْنِ الظَّنِّ، فَيعُدّونَ كُلَّ صَاحِبِ مَصْلَحَةٍ مُحْتَالًا، فَهُم يَحْتَاجُونَ مَعَهُ - كَمَا يَظُنُّونَ - إِلَى وَقْتٍ كَافٍ لِلوُقُوفِ عَلَى حَقِيقَةِ نَوَايَاهُ، وهُمْ يَعْلَمُونَ، نَظَرِيًّا، أَنَّ الشَّارِعَ لَمْ يَأْمُرْ بِشَقِّ القُلُوبِ لِمَعرِفَةِ حَقِيقَةِ نَوَايَا أَصْحَابِهَا، وأَنَّ العَيْنَ لَا تَرَى السَّرِيرَةَ، فَهَلَّا طَبَّقُوا ذَلِكَ عَمَلِيًّا؟!!

قَتَلَ مُسْــلِمٌ رَجُلًا بَعْــدَ أَنْ قَالَ لَهُ: إِنِّي مُسْــلِمٌ، وجَاءَ لِيَسْتَغْفِرَ لَهُ الرَّسُولُ ﷺ، مُدَّعِيًا أَنَّ مَا قَالَهُ المَقْتُولُ إِنَّمَا كَانَ خَوْفًا مِنَ السِّلَاحِ، والقَتْلِ، فَقَالَ لَهُ ﷺ: «**أَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَمْ لَا**»؟. قَالَ: لَا! فَلَمْ يَسْتَغْفِر لَهُ.

وجَاءَ فِي الأَثَرِ: «**لَا يَزَالُ المَسْروقُ مِنْهُ فِي تُهْمَةِ مَنْ هُوَ بَرِيءٌ، حَتَّى يَكُونَ أَعْظَمَ جُرْمًا مِن السَّارِقِ**».

وَهَذَا النَّوعُ مِنَ المُشَــكِّكِينَ، يَكْثُرُ - واللهُ أَعْلَمُ - بَيْنَ أَهْلِ العِلْمِ، مِن قُضَاةٍ، وساسَــةٍ، واقتِصَادِيِّينَ، ويُسَــمُّونَهُ: حَذَرًا، آخِذِينَ بِقَوْلِ مَنْ قَالَ:

لَا يَكُــنْ ظَنُّــكَ إِلَّا سَــــــيِّئًا

إِنَّ سُــوءَ الظَّنِّ مِنْ أَقْوَى الفِطَنْ

مَــا رَمَى الإِنْسَــانَ فِــي مَهْلَكَةٍ

غَيْرُ حُسْنِ الظَّنِّ والفِعْلِ الحَسَنْ

مُتَذَرِّعِينَ بالحِرْصِ عَلَى حُقُوقِ الآخَرِينَ، ومَصَالِحِهِمْ، واتِّخَاذِ الحَيْطَةِ لِلتَّقْلِيلِ مِنَ الأَخْطَاءِ، وَهِيَ كَلِمَةُ حَقٍّ فِي بَعْضِ القَضَايَا، والأَحْوَالِ الخَاصَّةِ، ذَاتِ القَرَائِنِ الدَّالَّةِ عَلَى التَّرَدُّدِ، أَو الكَذِبِ، مِنَ المُتَّهَمِ عِنْدَهُمُ، أُرِيدَ بِهَا بَاطِلٌ فِي البَعْضِ الآخَرِ، عِنْدَ المُرتَابِينَ، والخَرَّاصِينَ، ومَرضَى القُلُوبِ، لِتَحْقِيقِ نَوَايَاهُم، ومُرَادِهُم، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦].

أَمَّا الَّذِينَ (يَتَوَارَوْنَ) خَلْفَ حَاجَتِهِم إِلَى المَالِ، للوفَاءِ بِمُتَطَلَّبَاتِ الحَيَاةِ الأُسَرِيَّةِ، والتَّغَلُّبِ عَلَى الضُّغُوطِ المَادِيَّةِ، فَيَسْتَدِينُونَ لأَجَلٍ، وعِنْدَ حُلُولِهِ يَتَبَاطَؤُونَ فِي الوَفَاءِ وَأَدَاءِ مَا عَلَيهِم مِنْ حُقُوقٍ مَالِيَّةٍ لِلآخَرِينَ، وهُمْ مَلِيئُونَ، ويُمَاطِلُونَ، «ومَطْلُ الغَنِيِّ ظُلْمٌ». التَّسْوِيفُ، والوعُودُ الكَاذِبَةُ، مِنْ أَبْرَزِ أَسَالِيبِهِم، أَمَلًا فِي أَن يَسْأَمَ الدَّائِنُ، وَيَكِلَّ عَنِ المُطَالَبَةِ بِحَقِّهِ، مَا قَدْ يَضطَرُّهُ إِلَى التَّنَازُلِ عَنْ بَعْضِ حَقِّهِ للحُصُولِ عَلَى المُتَبَقِّي، فَهُمْ يُمَاطِلُونَهُ مُمَاطَلَةً، ويَدْفَعُونَهُ مُدَافَعَةً،

ويَنْثُــرُونَ للدَّائِنِ مِنَ الأَعْــذَارِ نَثْرًا، ويُمنُّونَــهُ مِنَ الأَمَانِي أَحْسَــنَهَا، ويَعِدُونَهُ مِنَ الوعُودِ أَقْرَبَهَــا، والمَطْلُ مِنْ غَيْرِ عُسْرٍ، أَوْ عُذْرٍ، آفَةُ الجُودِ، وخَارِمٌ لِلمُرُوءَةِ.

قَالَ أَعْرَابِيٌّ: وَعْدُ الكَرِيمِ نَقْدٌ، وتَعْجِيلٌ، وَوَعْدُ اللَّئِيمِ مَطْلٌ، وَتَعْلِيلٌ!!

وهُنَاكَ مِنَ المُسْــلِمِينَ مَن (يَتَوارَى) خَلْفَ وَجْهَيْنِ، مُخْتَلِفَيْنِ:

«يَأتِي هَؤلَاءِ بِوَجْهٍ، وهَؤلَاءِ بِوَجْهٍ، «**فَهُوَ مِن شَرِّ النَّاسِ**» كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ، دَافِعُه إِلَى ذَلِكَ الإِفسَــادُ، والحَسَدُ، وهَدَفُهُ الصَّيْدُ فِي المَاءِ العَكِــرِ، والإِيقَاعُ بَينَ النَّاسِ، بِبَثِّ العَدَاوَةِ، والبَغضَاءِ بَينَهُم، حَسَداً مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ المَرِيضَةِ.

فَهُــوَ (يَتَــوَارَى) خَلْفَ دَعــوَى النُّصْــحِ، والمَحَبَّةِ لِضَحِيَّتِهِ،ويَعمَــل بِمَفْهُومِ التَّقِيَّةِ، وغَالِبــاً مَا يَكُونُ فِي قَلْبِهِ مَرَضُ النِّفَاقِ، وفِي طَبْعِهِ جُبْنٌ عَنِ اتِّخَاذِ مَوقِفٍ واضِحٍ مِنَ الآخَرِينَ، ويكْفِي بِهَذَا خِسَّةٌ، ودَنَاءَةٌ.

هَذَا النَّوعُ مِنَ النَّاسِ يَتَّصِفُ بِالذَّكَاءِ، ولَكِنَّهُ ذَكَاءٌ مَذمُومٌ صَاحِبُهُ، لِتَعَمُّدِهِ الكَذِبَ مَعَ أَحَدِ الفَرِيقَيْنِ، لاَ مَحَالَةَ، يَلْقَاكَ فَيَغْتَابُ عِنْدَكَ مَنْ يَرَى أَنَّكَ تَكْرَهُــهُ، ويُخَالِفُكَ إِلَيْهِ فَيَأْتِيهِ عَنْكَ بِمِثْلِهِ، فَإِذَا هُوَ قَدْ أَصَابَ عِنْدَ كُلِّ واحِد مِنْكُمَا حَاجَتَهُ، وقَدْ يَكُونُ صَنِيعُهُ صَنِيعَ المُنَافِقِ، المُدَاهِنِ.

«فَلاَ يَنْبَغِي لِذِي الوَجْهَيْنِ أَنْ يَكونَ أَميناً عِنْدَ اللهِ». بَل هُو قَدْ يَكُونُ مِمَّنْ وَصَفَهُمُ اللهُ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ:﴿ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ [النساء: ١٤٣]، فَاللهُ يُبْدِلُهُ يَومَ القِيَامَةِ بِلِسَانَيْنِ مِنْ نَارٍ، كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ.

والمُتواكِلُونَ (يَتوارَونَ) خَلفَ دَعوَى رُسُوخِ إِيمَانِهِم بِرَبِّهِم، فَيَتْرُكُونَ عَمَلَهُم بالأَسْــبَابِ فِي كَسْــبِ عَيشِــهِم، والأَخْذِ بِالمُسبِّبَاتِ، وَقَدْ عَلِمُوا «أَنَّ السَّمَاءَ لاَ تُمْطِرُ ذَهَباً، ولاَ فِضَّةً» (ولاَ رَغِيفاً نَاضِجاً)!

ذُكِرَ للنَّبِــيِّ ﷺ، رَجُلٌ بِالمَدِينَةِ بِأَنَّهُ أَطْولُ أَهْلَ المَدِينَةِ صَلاةً، فَأَتَاهُ فِي المَسْــجِدِ، فَأَخَذَ بِعَضُدِهِ، فَنَشَلَهُ نَشَلاتٍ،

وقَالَ: «**إِنَّ هَذَا أَخَذَ بالعُسْرِ، وتَرَكَ اليُسْرَ**». ثُمَّ دفَعَهُ فخَرَجَ مِن بَابِ المَسْجِدِ.

لقَد كَرِهَ لَهُ - واللهُ أَعلَمُ - انقِطَاعَهُ عَنِ العَمَلِ (بِتَوَارِيهِ) خَلْفَ الإِطَالَةِ فِي أَدَاءِ النَّوَافِلِ، وتَرْكِهِ السَّعْيَ لِكَسْبِ رِزْقِهِ، مُعتَمِداً عَلَى جَهْدِ غَيْرِهِ، أَو عَلَى مَا يَجودُ بِهِ المُحسِنُونَ عَلَيْهِ.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ [فاطر: ٤٤]، فَلَو أَرَادَ سُبْحَانَهُ لَكَفَى الإِنسَانَ مَؤونَةَ عَيْشِهِ، وإِمْدَادَهُ بِكُلِّ ما يَحتَاجُ إِليهِ مِنْ ضَرُورَاتِ العَيشِ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا مِنْ دُونِ عَناءِ العَمَلِ بِالأَسبَابِ، والأَخذِ بِالمُسَبِّبَاتِ، كَمَا يَكْفِي المُؤمِنِينَ مِن عِبَادِهِ فِي الجَنَّةِ كُلَّ مَا يَحتَاجونَ، ويَشتَهونَ، مِنْ دُونِ فِعْلٍ لِلأَسْبَابِ مِنْهُم.

والرُّكْنُ الخَامِسُ مِنْ أَرْكَانِ الإِسْلامِ، جَعَلَ اللهُ سُبْحانَهُ شَرْطَ الاسْتِطَاعَةِ مِنَ المُسْلِمِ، جَسَدِيًّا، ومَادِّيًّا سَبِيلاً رَئِيساً لأَدَائِهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗا﴾ [آل عمران: ٩٧].

وفَهِمَ كَثِيرٌ مِنَ المُفَسِّـرِينَ أَنَّ المُرَادَ بِالاسْـتِطَاعَةِ، مَعَ القُدْرَةِ الصِحِيَّةِ: المَالُ الكَافِي لَهُ، والرَّاحِلَةُ تُوصِلُهُ إِلَى البَيْتِ الحَرَامَ، وتُعِيدُهُ إِلَى أَهْلِهِ، وأَن يَترُكَ لِمَنْ يَعُولُ مَا يَكفِيهِم من المَؤونَةِ حَتَّى يَعُودَ، ومَن لاَ يَتَحقَّقُ فِيهِ ذَلِكَ الشَّـرطُ يَكُونُ مِن أَصْحَابِ الأَعذَارِ، وتَسْقُطُ عَنْهُ فَرِيضَةُ الحَجِّ.

فَلاَ يَحْسُـنُ بِالمُسْـلِمِ أَنْ (يَتوارَى) خَلْـفَ تَواكُلِهِ، ويُسمِّيهِ تَوكُّلاً عَلَى اللهِ، (لِيُوَارِي) كَسَلَهُ، وضَعْفَ إِرَادَتِهِ، ويَتْرُكَ فِعْلَ الأَسْبَابِ، فَيُصْبِحَ كالمُسَافِرِ الَّذِي زَادُهُ الخَيَالُ، فَـإِنَّ ذَلِكَ نَوْعٌ مِن الإِغْـرَاقِ فِي التَّحَايُلِ عَلَـى المُجتَمَعِ لِيَحْصُلَ عَلَى قُوتِهِ مِنْ كَدِّ العَامِلِينَ، مِنْ دونِ مُبَاشَرَةِ عَمَلٍ مِنْهُ، مَا يَزِيدُ عَدَد العَاطِلِينَ فِي المُجْتَمَعِ المُسْلِمِ.

أَخْـرَجَ البُخَارِيّ فِي صَحِيحِهِ حَدِيثاً مُرْسَـلاً عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ، قَالَ : كَانَ أَهْلُ اليَمَـنِ يَحُجُّونَ وَلاَ يَتَزَوَّدُونَ، فَإِذَا قَدِمُوا مَكَّةَ سَـأَلُوا النَّاسَ، فَأَنْـزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَتَـزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧] والشَّـارِعُ حَثَّ المُسْلِمَ

عَلَى التَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ، فِي كُلِّ شَـأْنِهِ، مَعَ فِعْلِ الأَسْـبَابِ، عَلَى قَاعِدَةِ: «**اِعْقِلْ وتوكَّلْ**». لِلَّذِي سَـأَلَ الرَّسُـولَ ﷺ: أَيَتْرُكُ دَابَّتَهُ، أَمْ يَعْقِلُهَا، إِذَا هُو أَرَادَ قَضَاءَ حَاجَتِهِ؟

وهَـذَا الَّذِي يَنْبَغِي لِلمُسْـلِمِ فِعْلُهُ فِي جَمِيعِ شُـؤُونِ حَيَاتِهِ: العَمَلُ بِالأَسْبَابِ، ثُمَّ التَّوَكُّلُ عَلَى الله مَولاَهُ.

«**والمُؤمِـنُ القَوِيُّ خَيْرٌ، وأَحَبُّ إِلَـى اللهِ مِنَ المُؤمِنِ الضَّعِيفِ، وفِي كُلٍّ خَيرٌ، فَاحْرِصْ عَلَى ما يَنفَعُكَ، واسْتَعِنْ بِاللهِ، ولاَ تَعْجَزْ، فَإِنْ أَصَابَكَ شَـيءٌ فَلاَ تَقُلْ لَو أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا، وكَذَا، ولَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ، ومَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَو تَفتَحُ عَمَلَ الشَّيطَانِ**».

والتَّفَـاوتُ بَيْنَ النَّاسِ فِي القُدُراتِ الذَّاتِيَّةِ لِلكَسْـبِ، والمَكانَةِ الاجتِمَاعِيَّةِ، وَغَيْرِهِمَا، مِنْ سُـنَنِ اللهِ فِي الكَوْنِ، قَالَ سُبحانَهُ: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٢].

وقَالَ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

فَلَو تَسَاوَى النَّاسُ فِي الفَضْلِ اجتِمَاعِيًّا، أَو كَانُوا فِي القُدُرَاتِ الذَّاتِيَّةِ، ضَعْفاً، أَو قُوَّةً، سَوَاء، لتَعَطَّلَتْ أَكْثَرُ المَصَالحِ المُشتَرَكَةِ بَينَهُم، ولأَوشَكَتْ عَجلَةُ الحَيَاةِ عَلَى التَّوَقُّفِ، وكَذَلِكَ الحَالُ فِي أُمُورِ الطَّاعَةِ، والمَعْصِيَةِ لَا يَستَوونَ، فِي الثَّوابِ، والعِقَابِ، وذَلِكَ مِنْ مَظَاهِرِ عَدْلِ اللهِ بَيْنَ خَلْقِهِ. قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٥ – ٧٦].

فالكُلُّ عَلَيهِ أَنْ يَعمَلَ، «**وكُلٌّ مُيسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**»، وِفْقَ مَا قَدَّرَهُ اللهُ لَهُ، أَو عَلَيهِ، «**رُفِعَتِ الأَقْلامُ وجَفَّتِ الصُّحُفُ**».

التَّسْوِيفُ مُعْضِلَةٌ مَعَ (المُوَارَاةِ)

ومِنْهُم المُسَــوِّفُونَ، الخَيَالِيُّونَ، المُتَرَدِّدونَ فِي اتِّخَاذِ القَرَارِ (يَتَــوَارَوْنَ) خَلْفَ دَعْوَى الحِرْصِ عَلَى مِصَالِحِهِم، والتَّرَوِّي للتَّقلِيــلِ مِنْ الأَخْطَاءِ، باتِّخَاذِ القَــرَارِ الصَّائِبِ، ولِكَسْــبِ المَزِيدِ مِنَ الوَقْتِ لِدِرَاسَــتِهِ، فَهُــم فِي أَحْلاَمِ يَقَظَتِهِــم يَمتَطُونَ صَهْوَةَ خَيَالِهِم فِــي كُلِّ اتِّجَاهٍ، ويَتَمَنَّوْنَ عَلَى اللهِ الأَمَانِي، ويُضَيِّعُونَ عَلَى أَنفُسِهِم كَثِيراً مِنْ فُرَصِ الحَيَــاةِ الكَرِيمَةِ، ذَاتِ المَرْدُودِ الإِيجَابِــيِّ، هُم فِئَةٌ تَتَطَفَّلُ عَلَى الجَمَاعَةِ، تُشَــارِكُهَا ثَمَرَةَ جُهُودِهَا، دُونَ أَن تُشَارِكَهَا غَرسَ أُصُولَهَــا، ورِعَايَةِ نُمُوِّهَا فِي الوَقتِ المُنَاسِــبِ، مَا يَخلُقُ خَللاً فِي مُقَوِّمَاتِ الأُمَّةِ الأَسَاسِيَّةِ فِي مَجَالِ التَّعَاونِ، والتَّكَاتُفِ، والإنجَازِ، ويُثَبِّطُ الهِمَمَ، قَالَ القَائِلُ:

إِنْ كُنــتَ ذَا رَأْيٍ فَكُنْ ذَا عَزِيمَةٍ
فَــإِنَّ فَسَــادَ الــرَّأْيِ أَنْ تَتَــرَدَّدَا

يُحْكَى أَنَّ رَجُلًا مِنْ أُولَئِكَ، وَجَدَ جَرَّةً مُلِئَتْ بِالعَسَلِ عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ، فَأَخَذَهَا، وعَلَّقَهَا فَوْقَ فِرَاشِهِ، ونَظَرَ إِلَيْهَا مَرَّةً، وَهُوَ مُسْتَلْقٍ، وقَدِ امْتَطَى صَهْوَةَ خَيَالِهِ المُجنَّحِ وقَالَ فِي نَفْسِهِ:

أَبِيعُ هَذِهِ الجَرَّةَ بِمَا فِيهَا، وأَشْتَرِي بِثَمَنِهَا مِنَ الضَّأْنِ اثْنَتَينِ، أَسْتَوْلِدُهُمَا، فَتُنتِجَانِ خِرَافًا كَثِيرَةً، وشِيَاهًا، أَجمَعُ مِنْ رِيْعِهَا، سَمْنًا، وَجُبْنًا، وصَوْفًا، فَأَبِيعُهُ، وأَبِيعُ أَيْضًا مِنْ كِبَاشِهَا، فَأَجْمَعُ مِنْ ذَلِكَ مَالًا وَفِيرًا، فَأَتَزَوَّجُ فَتَاةً جَمِيلَةً، ذَاتَ حَسَبٍ، ونَسَبٍ، فَأُرْزَقُ مِنْهَا غُلَامًا، أُشْرِفُ مُبَاشَرةً عَلَى تَربِيَتِهِ، التَّرْبِيَةَ الصَّالِحَةَ، وأُعَوِّدُهُ السَّمْعَ، والطَّاعَةَ لأَوَامِرِي، وتَوجِيهَاتِي، فَإِنْ تَمَرَّدَ عَلَيَّ يَوْمًا، ضَرَبْتُهُ بِهَذِهِ العَصَا، فَأَوْمَأَ بِعَصَاهُ، فَأَصَابَتِ الجَرَّةَ، فَانكَسَرَتْ، فَهُرِيقَ العَسَلُ عَلَى الأَرضِ، وهُرِيقَ مَعَهُ الحُلُمُ الجَمِيلُ.

وهَذَا النَّوْعُ مِنَ أَحلَامِ اليَقَظَةِ يَكثُرُ بَينَ المُراهِقينَ، والسُّفَهَاءِ، وخَاصَّةً الإِنَاثَ مِنْهُم، فَإِذَا بَلَغَتِ الفَتَاةُ طَورَ

النُّضْجِ، تَبْدَأُ تَرسِـــمُ لِمُســـتَقبَلِهَا خَارِطَةَ طَرِيـــق، تَبدَؤُهَا بِوضعِ مُوَاصَفَاتِ زَوجِ المُستَقبَلِ الخَلْقِيَّةِ، والخُلُقِيَّةِ، يَأْتِي عَلَى رَأْسِهَا الشَّـــكْلُ الخَارِجِيُّ، وتَوَفُّرُ المَالِ، وقَلِيلٌ مِنْهُنَّ يُدْرِجْنَ شَـــرْطَ الالتِزَامِ بِقَوَاعِدِ الشَّرْعِ، وسَلَامَةِ النَّسَبِ من العُيُوبِ، وخَوَارِمِ المُرُوءَةِ، وَمَا يَتَوَافَقُ مَعَ أَهْدَافِ الشَّارِعِ فِي إِرْشَادِهِ:

«**تَخَيَّرُوا لِنُطَفِكُم، فَإِنَّ العِرْقَ دَسَّاسٌ**» أَيْ دَخَّالٌ؛ لأَنَّهُ يَنْزِعُ فِي خَفَاءٍ ولُطْـــفٍ. وَفِي رِوَايَـــة: «**فَأَنْكِحُوا الأَكفَاءَ، وأَنْكِحُوا إِلَيهِمْ**». بمعنى: تَزَوَّجُوا مِنْ الأَكْفَاءِ، دِيْنًا، وَأَمَانَةً وَزَوِّجُوهُم نِساءَكُم قيل: عَلَى العَاقِلِ أَنْ يَتَخَيَّرَ لِنُطْفَتِهِ أَصْلًا أَصِيلًا، وعَنْصُرًا طَاهِرًا.

وفِـــي الأَثر: «**النَّاسُ مَعَادِنٌ، والعِرْقُ دَسَّـــاسٌ، وأَصْلُ السُّوءِ كَأَدَبِ السُّوءِ**».

وفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨] قِيلَ: قَضَاءٌ بِفَسَادِ الأَصْلِ عَلَى فَسَادِ الفَرْعِ.

وَتَسْتَمِرُّ الكَعُوبُ فِي وَضْعِ الشُّـــروطِ الَّتِي قَدْ تُشَكِّلُ فِي جُمْلَتِهَا، عِنْدَ التَّطْبِيـــقِ العَمَلِيِّ، عَقَبَةً فِي طَرِيقِ التَّنْفِيذِ، مَـــا يَعْنِي عِنْدَ تَكْرَارِهَا مَعَ كُلِّ مُتَقَدِّم، فَشَـــلَ مُحَاوَلَةِ إِتْمَامِ أَيِّ اقتِرَانٍ بِهَذِهِ الفَتَاةِ مُستَقبَلًا، مِنْ أَيِّ أَبنَاءِ مُجتَمَعِهَا الَّذِي تَرَبَّتْ فِيهِ؛ لأَنَّهَا اعتَمَدَتْ فِي عَمَلِيَّةِ الاخْتِيَارِ، طَرِيقَةَ القَصِّ مِنْ عَادَاتِ مُجتَمَعَاتٍ مُختَلِفَةٍ، ومُحَاوَلَةِ إِلْصَاقِهَا فِي نَسِيجِ مُجْتَمَعِهَا الأُمِّ، المُحْتَشِـــمِ، مَا أَحْدَثَ تَنَافُرًا، ونَشَـــازًا فِي مَفْهُومِ العَادَاتِ، وصِدَامًا بَيْنَ التَّقَالِيدِ، وشَكَّلَ عَوائِقَ أَمَامَ إِتْمَامِ النِّكَاحِ، وصَدَقَ الأَحْوَصُ حِينَ قَالَ:

كُـلُّ يَـرَى أَنَّ الـشَّـبَـابَ لَـهُ
فِـي كُـلِّ مَـبْـلَـغِ لَـــذَّةٍ عُـذْرُ

ويَمُرُّ قِطَارُ العُمْرِ بِهَا فِي طَرِيقٍ وَعِرَةٍ، يَكثُرُ فِيهِ الأَسَى، والأَنِيـــنُ، والتَّرَقُّبُ المُضْنِـــي، فَتَظَهَرُ مِنْ نَوَافِذِهِ تَبَاشِـــيرُ العُنُوسَـــةِ البَغِيضَةِ عَلَى قَلْبِ كُلِّ فَتَـــاةٍ، أَخْطَأَتِ الهَدَفَ، عِنْدَمَا لَمْ تُحْسِنِ اختِيَارِ الوَسِيلَةِ!

وَعَاجِزُ الرَّأْيِ مِضْيَـاعٌ لِفُرْصَتِهِ
حَتَّى إِذَا فَاتَ أَمْـرٌ عَاتَبَ القَدَرَا

بَعْدَهَا سَتَضْطَرُّ إِلَى اخْتِزَالِ أَكْثَرِ الشُّرُوطِ، الَّتِي وَضَعتهَا لِزَوْجِ المُسْـتَقْبَلِ، ورُبَّمَا تَرضَى مِنَ الغَنِيمَةِ بِالإِيَابِ، ومِن الخُطَّـابِ زَوْجًا لَهَـا مُتَصَابِياً، فَلَا يَكُونُ لَهَا (شَـنٌّ)، ولا تَكُونُ لَهُ (طَبَقَةٌ)!

وَلِسَانُ حَالِهَا يَقُولُ:

أُعَلِّـلُ نَفْسِـي بِمَـا لَا يَكُونُ
كَمَـا يَفْعَـلُ المَائِـقُ الأَحْمَقُ

وَهُنَاكَ مِنَ الفَتيَاتِ مَنْ لَا تَمْلِـكُ القُدْرَةَ عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ الغَثِّ، والسَّـمِينِ، فَتَنْسَـاقُ خَلْفَ بَرِيقِ أَحْلَامِ يَقْظَتِهَا المُلَوَّثِ، بِمَزِيجِ مَا تَسْمَعُ، وَتَرَى فِي قَنَوَاتِ البَثِّ المُبَاشَرِ، مِـنْ بَرَامِجَ مُنَوَّعَةٍ، يَعدُّها المُفَكِّـرُونَ العُقَلَاءُ، أَكْثَرَ مَزَالِقِ الفِسْقِ خُطُورَةً عَلَى الأَخْلَاقِ فِي عَصْرِنَا الحَدِيثِ.

فَيَنْطَبِــعُ أَكْثَرُهُ فِــي مُخَيِّلَتِهَا، وتَجِدُ لِأَكْثَرِ مَا تَسْــمَعُ، وَتَرَى، قَبولًا عِنْدَ نَفْسِــهَا الأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ، المُنْسَاقَةِ خَلْفَ العَاطِفَةِ البَلْهَاءِ.

فَبَدَلَ أَنْ يُقَالَ كَمَا فِي المَثَلِ المَشْهُورِ: «كُلُّ فَتَاةٍ بِأَبِيهَا مُعْجَبَةٌ» كُلُّ فَتَاةٍ بِمَا تَرَاهُ وتَسْمَعُهُ، مُعْجَبَةٌ!!

مِمَّا يَكْسِبُهَا الجُرْأَةَ الكَافِيَةَ، والقَدْرَ الوَافِرَ مِن الوَقَاحَةِ عِنْدَ مُنَاقَشَــةِ آرَائِهَا مَع ذَوِيهَا، فتعيشُ صِرَاعًا بَيْنَ وَاقِعِهَا، وعَقْلِهَــا، وبيْــنَ عَاطِفَتِهَا البَلْهَــاء، فالَّتِي تَنْسَــاقُ خَلْفَ عَاطِفَتِهَا، إِنَّمَا تَخْتَارُ مِنْ دُونِ وَعْيٍ كَافٍ، مُنْزَلَقًا إِلَى القَاعِ، فَتَكُــونُ عُرْضَةً لاحْتِمَالَيْنِ: إِمَّا أَنْ تَعِيشَ عَانِسًــا يَتَخَطَّفُهَا الحُزْنُ وَالأَسَــى مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وإِمَّا أَنْ تَجِدَ نَفْسَــهَا، مِنْ خِلَالِ ضَعْفِ مَوْقِفِ ذَوِيهَا فِي إِقْنَاعِهَا بِالقَبُولِ: قَدِ ارْتَمَتْ فِي أَحْضَانِ الرَّذِيلَةِ، أَو الُّلجُوءِ إِلَى السُّلُوكِ الشَّاذِّ مَعَ نَفْسِهَا، أَو مَع الأُخرَيَاتِ، فَتَخْسَرَ الحَيَاةَ الفَاضِلَةَ، المُطْمَئِنَّةَ.

وفِي المُجْتَمَعِ الإِسْلَامِيِّ اليَومَ مِنَ المُسْلِمِينَ مَنْ فَقَدَ الغَيْرَةَ عَلَى مَحَارِمِهِ، ويَسْتَمِيتُ فِي جَرِّ المَرْأَةِ المُسْلِمَةِ المُحَافِظَةِ، إِلَى حَقْلِ أَلْغَامٍ، شَدِيدَةِ الانْفِجَارِ، يُعْرَفُ بِالاخْتِلَاطُ بَيْنَ الجِنْسَيْنِ، لِإِنْشَاءِ عِلَاقَةِ صَدَاقَةٍ بَيْنَ الفِئَتَيْنِ، خَارِجَ حُدُودِ الشَّرْعِيَّةِ، بِحُجَّةِ تَثْبِيتِ الثِّقَةِ فِي النَّفْسِ، والاعْتِمَادِ عَلَى الذَّاتِ، ومَدِّ جُسُورِ التَّعَارُفِ، وهُمْ بِذَلِكَ إِنَّمَا يَنْصِبُونَ لَهَا فِخَاخًا لِتَجْرِيدِهَا مِنْ أَهَمِّ خَصَائِصِهَا الأُنْثَوِيَّةِ، الطَّاهِرَةِ، وأَصَالَتِهَا المُتَمَيِّزَةِ، فَيَزُولُ كُلُّ مَا لَهَا مِنْ تَفَرُّدٍ فِي التَّصْنِيفِ البَشَرِي فِي الفُرُوقِ بَيْنَ الجِنْسَيْنِ.

قَالَ جَمَاعَةٌ مِنَ العُلَمَاءِ المُعَاصِرِينَ:

«إِذَا تَمَّ فَتْحُ البَابِ لِتَسَابُقِ النِّسَاءِ عَلَى الخُرُوجِ مِنَ المَنْزِلِ، والاخْتِلَاطِ بِالرِّجَالِ الأَجَانِبِ فِي أَمَاكِنِ العَمَلِ، وَإِظْهَارِ جَمَالِهِنَّ لِكُلِّ الرِّجَالِ، فَسَتَنْشَأُ عَوَاطِفُ، وعِلَاقَاتٌ جَدِيدَةٌ بَيْنَ الرِّجَالِ، والنِّسَاءِ غَيْرَ عِلَاقَةِ الزَّوَاجِ، وعِنْدَهَا سَيَصِلُ المُجْتَمَعُ إِلَى الفَوْضَى، ومَا يُصَاحِبُهَا مِنْ ضَيَاعِ

العِفَّةِ، وانتِشَارِ الرَّذِيلَةِ، وكَثرَةِ الأَولَادِ غَيْرِ الشَّرْعِيِّينَ، وتَنكُّرِ الآبَاءِ لأَبْنَائِهِم، فَيَتَخَلَّوْنَ عَنْ وَاجِبَاتِ النَّفَقَةِ، وَالتَّرْبِيَةِ، وَالتَّعْلِيمِ، مَا يُلْقِي العِبءَ كَامِلًا عَلَى المَرْأَةِ».

وقَالُوا: «مِنْ حَقِّ المَرأَةِ أَنْ تُسهِمَ بِآرائِهَا، وعِلْمِهَا فِي الحَيَاةِ العَامَّةِ، مَعَ الالْتِزَامِ بِالضَّوَابِطِ الشَّرْعِيَّةِ، بَعِيدًا عَنِ الاخْتِلَاطِ، والتَّبَرُّجِ، والخَلْوَةِ المُحَرَّمَةِ». أ.هـ.

لَيْسَ مِنَ (المُوَارَاةِ) مَا يُبَرِّرُ مُجَاوَزَةَ الحُدُودِ وَالمِسَاسِ بِالثَّوَابِتِ

وَمِن المُلَاحَظِ أَنَّ أَكْثَرَ النِّسَاءِ العَامِلَاتِ يَحْرِصْنَ عَلَى إِبْدَاءِ زِينَتِهُنَّ إِذَا كُنَّ بَيْنَ الرِّجَالِ الأَجَانِبِ، وقَدْ نُهِينَ عَنْ فِعْلِ ذَلِكَ إِلَّا لِمَحَارِمِهِنَّ: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

ونُهِينَ عَنْ كُلِّ مَا يَلْفِتُ النَّظَرَ إِلَيْهِنَّ فِي الأَمَاكِنِ العَامَّةِ: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

فَأَصْبَحَ الهَدَفُ مِنَ الزِّينَةِ عِنْدَ أَكْثَرِهِنَّ اليَوْمَ، الأَجْنَبِيَّ، دُونَ المَحْرَمِ، وخَاصَّةً الزَّوْج الَّذِي أَصْبَحَ حَظُّهُ مِنْ زَوْجَتِهِ عِنْدَ اسْتِيقَاظِهِمَا مِنَ النَّوْمِ، الرُّؤْيَةَ المُشَوَّهَةَ، والرَّائِحَةَ الكَرِيهَةَ، والمَلَابِسَ الرَّثَّةَ، المُمْتَهَنَةَ، ووَجْهًا كَالِحًا بَعْدَ أَنْ زَالَ أَثَرُ الأَحْمَرِ، والأَخْضَرِ، والأَصْفَرِ عَنْهُ!!

يَا مَــنْ تَأَمَّــلَ جَهْــلاً أَنْ يُمَاثِلَهُ
دَعْ عَنْــكَ هَــذَا وَلاَ تَغْتَرَّ بِالأَمَلِ

لَيْسَ العَصَا كَمِثْلِ السَّيفِ تَحْسَبُهَا
وَلاَ التَّكَحُّلُ فِي العَيْنَيْنِ كَالْكَحَل

مَا يَدْفَعُ بَعْضَ الأَزْوَاجِ إِلَى اغْتِنَامِ فُرْصَةِ اسْــتِعْدَادِهَا لِلخُرُوجِ لِلْعَمَلِ، وإِبْدَالِ هَيْئَتِهَا إِلَــى هَيْئَةٍ نَظِيْفَةٍ، مُعَطَّرَةٍ، إِرْغَامَ زَوْجَتِهِ، مِنْهُنَّ عَلَى المُعَاشَرةِ!!

وأُمِرْنَ بِسَــتْرِ شُــخُوصِهِنَّ عَنِ الرَّجُلِ الأَجْنَبِي؛ لِكَي لاَ يُعْرَفْنَ فيُؤْذَيْنَ مِنْ سُــفَهَاءِ الأَحْلاَمِ، أَو مَرْضَى القُلُوبِ، وَالأَذَى اليَــوْمَ يُعْرَفُ بِالتَّحَرُّشِ الجِنْسِــي، والاغْتِصَاب، وَهُوَ نَتِيجَةٌ قَدْ تَكُــونُ طَبِيعِيَّةً، عِنْدَمَا تَخْرُجُ المَرَأَةُ مِنْ بَيْتِهَا سَــافِرَةً، وهِيَ بِكَامِــلِ زِينَتِهَا، فِي ثِيَابٍ ضَيِّقَــةٍ، أَوَ أُخْرَى تَشِــفُّ، وَتَصِفُ ما تَحْتَهَا، مُتَعَطِّرَةً، أَمَامَ جَمْعٍ مِنَ الشَّبَابِ المُرَاهِــقِ، فِي مُجْتَمَــعٍ مُحَافِظٍ، وَيُقَالُ لَهُــمْ: غُضُّوا مِنْ أَبْصَارِكُمُ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمُ!!

فَيُصْبِحُ حَالُ المَأْمُورِ مَعَ الآمِرِ كَحَالِ الَّذِي:

أَلْقَاهُ فِي الْيَمِّ مَكْتُوفـاً وَقَالَ لَهُ:

إِيَّـاكَ إِيَّـاكَ أَنْ تَبْتَـلَّ بِالْمَـاءِ

ووَجْهُ الإِنْسَـانِ مَكْمَنُ الزِّينَةِ، وَهُوَ وَسِـيلَةُ الآخَرِينَ لِلتَعَرُّفِ إِلَى صَاحِبِهِ، وبِسَـتْرِهِ يَصْعُـبُ التَّمْييزُ بَيْنَ امْرَأَةٍ، وأُخْرَى. قَالَ تَعَالَـى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩].

قَـالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «أَمَرَ اللهُ نِسَـاءَ المُؤْمِنِيـنَ إِذَا أَرَدْنَ الخُـرُوجَ مِنْ بُيُوتِهِنَّ فِي حَاجَـةٍ، أَنْ يُغَطِّينَ وجُوهَهُنَّ مِنْ فَوق رُؤوسِهِنَّ بِالجَلابِيبِ، ويُبْدِينَ عَيْناً وَاحِدَةً».

فَقَوْلُهُ تَعَالَـى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩] ذَلِكَ أَقَل مَا يَنبِّهُ الفَاسِـقَ بِأَنَّهُـنَّ عَفِيفَاتٌ، صَالِحَاتٌ، حَرَائِرُ، لَسْنَ بِإِمَاءٍ، ولاَ عَواهِرَ.

(يَتوارَى) هَــؤلَاءِ الغَاوونَ، المُخَادِعُونَ، المُغرِضُونَ، المُحَرِّضونَ المَرأَةَ عَلَى السُّفُورِ، والاخْتِلاَطِ، خَلْفَ إِظهَارِ الشَّــفَقَةِ عَلَيهَا، والرَّحمَةِ بهَا مِنَ الظُّلْمِ، والمُطَالَبَةِ بِإِعطَائِهَا حُقُوقَهَا المَزْعُومَةَ، الَّتِي مِنْ أَهَمِّهَا فِي نَظَرِهِم: تَحْرِيرُهَا مِنَ القُيودِ الاجتِمَاعِيَّةِ، والدِّينِيَّةِ، لتُكَيِّفَ نَفْسَهَا بحَسَبِ رَغَبَاتِهَا الذَّاتِيَّةِ، والتَّمَرُّدِ عَلَى قِوَامَةِ وَلِــيِّ أَمْرِهَا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِطَبِيعَةِ عِلاقَتِهَا بِالأَجنَبِي عَنْهَا، وتَرْكُهَا تَمْلِكُ زِمَامَ أَمْرِهَا فِي كُلِّ مَا تَرَاهُ ضَرُورِيًّا لِحَيَاتِهَا، لِتُصْبِحَ جَدِيرَةً بالمُجتَمَعِ الحَضَارِيِّ المَادِّيِّ المُنْفَلِتِ، وأنْ تُمَارِسَ حَقَّهَا المُعَلَّقَ، كَمَا يَزْعُمُونَ!!

وهَذَا لِيَتَمَشَّــى مَعَ إِبَاحِيَّةِ المُجْتَمَعَــاتِ ذَاتِ النُّفُوذِ الأَقْــوَى، الَّتِي لاَ تُقِيمُ وَزْناً لِحُدُودِ اللهِ، فِي أَيٍّ مِنَ الأَدْيَانِ السَّمَاوِيَّةِ، ولاَ لأَكْثَرِ عَادَاتِ الشُّــعُوبِ الأُخْرَى احْتِراماً، فَاكْتَسَحَتْ بِوَسَــائِلِهَا المُخْتَلِفَةِ حُرُمَاتِ الآخَرِينَ، تَحْتَ غِطَاءِ حَضَارِي أَسْــموهُ: العَوْلَمَةَ، الَّتِي تَرْتَكِزُ عَلَى نَشْــرِ العُلُومِ، والثَّقَافَــةِ، وأكْثَرُهَا المُبْتَذَلَةُ، بَيْنَ الشُّــعُوبِ، مِنْ

خِلالِ بَثِّ ثَقَافَةِ الصُّوَرِ غَيْرِ المُحْتَشِمَةِ، ومَا تَنْشُرُهُ الأَجْهِزَةُ المَرْئِيَّةُ مِنْ مُسَلْسَلاَتٍ، وأَفْلاَمٍ تَحْكِي مُعْظَمُهَا عَادَاتِهِم، وتَقَالِيدهُمْ الشَّاذَّةَ، وتَقُومُ بِعَمَلِيَّةِ تَسْطِيحٍ إِعْلاَمِيَّةٍ: سَمْعِيَّةٍ، وبَصَرِيَّةٍ، إِنَّهَا ثَقَافَةُ الاخْتِرَاقِ بَعْدَ أَنْ وَطَّدُوا قَبْلَ ذَلِكَ ثَقَافَةَ المُسْتَعْمِرِ البَغِيضِ فِي الشُّعُوبِ المُسْلِمَةِ، خَاصَّةً والمُسْتَضْعَفَةِ، مِنْ إِضْعَافِ شُعُورِ الغَيْرَةِ عَلَى المَحَارِمِ، وفَرَضُوا عَلَيْهِم التَّبَعِيَّةَ البَلْهَاءَ لَهُم!!

بَلْ هُنَاكَ مَنْ تَمَادَى فِي غَيِّهِ، وطَالَبَ بِمُسَاوَاتِهَا بِالرَّجُلِ، فِي جَمِيعِ الأَنْشِطَةِ الاجتِمَاعِيَّةِ المَعْمُولِ بِهَا فِي المُجتمعِ، وهُو لَعَمْرِي ضَرْبٌ مِنَ السَّفَاهَةِ، خَارِجٌ عَنْ نِطَاقِ العَقْلِ السَّلِيمِ، ومُخَالِفٌ للفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦] خِلْقَةً، واسْتَطَاعَةً، ولأَمْرِ اللهِ القَائِلِ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٢].

نَزَلَــتْ هَذِهِ الآيَــةُ فِي بَعْضِ النِّسَــاءِ اللَّائِــي طَالَبْنَ بِمُسَاوَاتِهِنَّ بِالرِّجَالِ فِي فَضْلِ الجِهَادِ، وَمَضَاعَفَةِ المِيرَاثَ، وَقُلْنَ: نَحْنُ أَحَــقُّ، وأَحْوَجُ مِنَ الرِّجَالِ، لأَنَّا ضُعَفَاءُ، وَهُمُ أَقْوَى، وَأَقْدَرُ عَلَى طَلَبِ المَعَاشِ.

وعَمَليًّــا كَيْفَ يُمْكِنُ تَفَــادِي الانْفِجَــارِ المُدَمِّرِ عِنْدَ الجَمْعِ بَيْنَ وَقُودٍ قَابِلٍ للاشْــتِعَالِ، وبَيْنَ مَصْدَرٍ مِنْ مَصَادِرِ إِشْــعَالِهِ، مَا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ الوَقُودُ، وذَلِكَ المَصْدَرُ يَمُرُّ كُلٌّ مِنْهُمَا مُسْتَقِلًّا فِي وَسِيلَةٍ تَعْزِلُهُ بِإِحْكَامٍ عَنِ الآخَرَ!!؟

ويَجَبُ أَلَّا نُبَالِغَ فِي دَعْوَى أَنَّ العِفَّةَ، والثِّقَةَ المُتَبَادِلَةَ بَيْنَ النَّوْعَيْنِ كَافِيتَانِ لِمُقَاوَمَةِ الانْحِرَافِ فِي السُّلُوكِ عِنْدَ الاخْتِلَاطِ، ومَنْعَ تَأْثِيرِ الرَّغْبَةِ الغَرِيزِيَّةِ سَــلْبًا، عَلَى الطَّرَفَيْنِ، فَهُنَاكَ جَانِبُ النَّفْسِ الأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ، وَكَيْدُ الشَّــيْطَانِ يَدْفَعَانِ إِلَى الإِغْوَاءِ، فِي لَحَظَاتِ الضَّعْفِ، عِنْدَ سَطْوَةِ الشَّــهْوَةِ الغَرِيزِيَّةِ، وَغَيْرِهَا مِنَ العَوَامِلِ السَــلْبِيَّةِ المُؤَثِّرَةِ الأُخْرَى عَلَى سُــلُوكِ الإِنْسَانِ، مُجْتَمِعَةً، أَو مُتَفَرِّقَةً، فَهِيَ مزَالِقُ إِلَى الرَّذَائِلِ، وقَدْ قِيلَ:

إِنَّ الـهِـلَالَ إِذَا رَأَيْــتَ نُمُوَّهُ
أَيْقَنْتَ أَنْ سَــيَكُونُ بَــدْرًا كَامِلا

ولا مَعْصُــومٌ إِلَّا مَــنْ عَصَمَهُ اللهُ، وخَشــيَ الرَّحْمَنَ بِالغَيْبِ، واتَّقَى اللهَ، وقَلِيلٌ مَا هُمْ!!

وتَحْتَ عُنْوَان: رَفْضِ الرَّقَابَةِ، كَتَبَتْ مُثَقَّفَةٌ مُتَمَكِّنَةٌ فِي إِحدَى المَجَلَّاتِ، تَقُولُ: «تَبْدُو الرَّقَابَةُ حَاجِزًا يَسُــدُّ مَنَافِذَ الحُرِّيَّةِ، وُجْهَةُ النَظَرِ هَذِهِ تَبْدُو مِثَاليَّــةً جِدًّا حِينَ تَتَوَقَّعُ أَنْ يَحِلَّ الاعْتِمَــادُ عَلَى الضَّمِيرِ، والأَخْــلَاقِ، مَحَلَّ الرِّقَابَةِ، يَكُونُ الانْضِبَاطُ آتِيًــا مِنْ دَاخِلِ الــذَّاتِ، وَلَيْسَ مَفْرُوضًا عَلَيْهَا مِنَ الخَارِجِ، فَهُوَ أَفْضَلُ أَنْوَاعِ السُّلُوكِ الأَخْلَاقِي، غَيْرَ أَنَّ هَذَا الانْضِبَاطَ، مَهْمَا بُذِلَ مِنْ جَهْدٍ فِي تَرْبِيَتِه فِي نُفُوسِ النَّــاسِ، لَا يُمْكِنُ الاعْتِمَادُ عَلَيْهِ وَحْدَهُ، فَالطَّبِيعَةُ البَشَــرِيَّةُ لَا تَتَّبِــعُ خَطَّ الخَيْــرَ المُوْجُود فِي دَاخِلِهَــا وَحْدَهُ، بَلْ هِيَ مُعَرَّضَةٌ لأَنْ تَنْحَرِفَ وَرَاءَ الشُّــرُورِ الكَامِنَةِ فِي طَبِيعَةِ البَشَرِ،

وغِيابِ الضَّبْطِ الخَارِجِيِّ المُتَمَثِّلِ فِي الرِّقَابَةِ، يُتِيحُ نَوْعًا مِنَ الحُرِّيَةِ المُطْلَقَةِ الَّتِي تُغْرِي البَعْضَ بِالانْفِلاتِ، فَتكُونُ وَسِيلَةً لِخَلْقِ مَنَافِذَ لِلشَرِّ، وَتُصْبِحُ وَسِيلَةً لِإِشْبَاعِ المَطَامِعِ، وإِرضَاءِ الغَرَائِزِ، مِنْ دُونِ أَيِّ اعْتِبَارٍ لِمَا قَد يَنْتُجُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ إِسَاءَةٍ للصَّالِحِ العَامِّ، وَعَلَيْهِ فَإِنَّ تَرْكَ الرِّقَابَةِ، والمُحَاسَبَةِ، والاكْتِفَاءَ بِتَنْمِيَةِ الرَّقَابَةِ الذَّاتِيَّةِ، والشُّعُورَ بِالمَسْؤولِيَّةِ، هُو مَنْظُورٌ مِثَاليٌّ، لَا يُمْكِنُ الوثُوقُ بِهِ، والاتِّكَالُ عَلَيهِ. أ. هـ. (بِتَصَرُّفٍ)

وصَدَقَ اللهُ تَعَالَى القَائِلُ عَنْ نَبِيِّهِ يُوسُف، عَلَيه السَّلامُ، عِنْدمَا أَرَادَتِ امْرَأَةُ العَزِيزِ إِغْوَاءَه: ﴿... وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

مَا قَدْ يَصِفُ مُمَاثِلَة الفِطْرة البَشَرِيَّةِ غَرِيزِيًّا، وتَأْثِيرِهَا عِنْدَ بَنِي البَشَرِ كَافَّةً مُتَشَابِهَةٌ، إِلَا مَنْ كَانَ لَهُ مِنَ العِصْمَةِ الإِلَهِيَّةِ حَظٌّ ونَصِيبٌ.!!

قَالَ الرَّسُولُ ﷺ لأَصْحَابِهِ:

«**أَيُّ شَيْءٍ خَيْرٌ لِلنِّسَاءِ؟**». فَلَمْ يَدْرُوا مَا يَقُولُونَ، فَرَجَعَ عَلِيٌّ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِلَى فَاطِمَةَ، بِنْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَخْبَرَهَا، فَقَالَتْ: أَنْ لَا يَرَاهُنَّ الرِّجَالُ، وَلَا يَرِينَهُمْ.

فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**إِنَّهَا بِضْعَةٌ مِنِّي**».

كَتَبَتْ إِحْدَى المُعَاصَرَاتِ، وَهِيَ مُتَخَصِّصَةٌ فِي شُؤُونِ الأُسْرَةِ، وتَحمِلُ مُؤَهِّلًا عِلْمِيًّا، عَالِيًا:

«كَثِيرٌ مِنَ النِّسَاءِ يَعْتَقِدْنَ أَنَّ التَّفْكِيرَ العَصْرِيَّ يَعْنِي امْرَأَةً قَوِيَّةً تَقِفُ نِدًّا لِلرَّجُلِ، هَذَا الكَلَامُ بِمَاذَا أَفَادَنَا؟ مَلَلْنَا مِنَ الكَلَامِ غَيْرِ الوَاقِعِي الَّذِي يُتْعِبُ المَرْأَةَ، ويُخْرِبُ بَيتَهَا، قُولِي لِنَفْسِكِ: مَرْحَبًا بِالأُنُوثَةِ، ودَعِي الرَّجُلَ يَقُومُ بِمَا يَجِبُ أَنْ يَقُومَ بِهِ مِنْ أُمُورٍ تَخُصُّ الرِّجَالَ، وأَقْلِعِي عَنْ تَرْدَادِ جُمَلٍ ضَيَّعَتِ الرُّجُولَةَ، مِثْلَمَا ضَيَّعَتِ الأُنُوثَةَ؛ لِأَنَّ المَرْأَةَ هِيَ المَسْؤولَةُ عَنْ جَعْلِ الرَّجُلِ لَا يَعْمَلُ، فَنَحْنُ النِّسَاءَ نَتَحَمَّلُ

مَسْؤولِيَّةَ التَّغْييرِ الَّذِي طَرَأَ عَلَى الرَّجُلِ، والنَّتِيجَةُ أَنَّنَا نَقُومُ بِأُمُورٍ كَانَتْ مِنْ اخْتِصَاصِهِ، فَنُصَابُ بِالتَّعَبِ.

فَمُنْذُ أَنْ بَدَأَتِ المَرْأَةُ تُطَالِبُ بِالمُسَاوَاةِ، دَخَلَتْ فِي حَالَةِ خَيْبَةِ أَمَلٍ، والسَّبَبُ أَنَّ الرَّجُلِ يَشْعُرُ بِأَنَّهُ لَيْسَ رَجُلاً، وتَرَكَ لَهَا حَمْلَ الهَمِّ كُلِّهِ، فَهِيَ تَلْهَثُ فِي العَمَلِ حتَّى تُسْهِمَ فِي مِيزَانِيَّةِ البَيتِ، وهِيَ فِي الوَقْتِ ذَاتِه تَلْهَثُ لِأَجْلِ القِيَامِ بِأَعْبَاءِ البَيْتِ، وهُمُومِ العِيَالِ، ظَنًّا مِنْهَا أَنَّ ذَلِكَ سَيَجْعَلُهَا تَقِفُ مَعَهُ بِنِدِّيَّةٍ، وعَلَى قَدَمِ المُسَاوَاةِ، فَتَبَيَّنَتْ أَنَّهَا قَامَتْ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَبَقِيَ هُوَ مُسَيْطِرًا!!.

الرَّجُلُ اسْتَفَادَ مِنْ حُرِيَّةِ المَرْأَةِ، بِأَنْ أَصْبَحَ المَجَالُ مَفْتُوحًا أَمَامَهُ لِمَزِيدٍ مِنَ الكَسَلِ، وقِلَّةِ المَسْؤُولِيَّةِ!!.

وانْتَهَتِ الخَبِيرَةُ فِي مَقَالِهَا بِقَوْلِهَا: «هُنَاكَ أَمْرٌ خَطِيرٌ حَصَلَ بِسَبَبِ المُسَاوَاةِ، فَمَفْهُومُ المُسَاوَاةِ يَعْنِي بِالنِّسْبَةِ إِلَى المَرْأَةِ التَّسَاوِي فِي الحُقُوقِ، والحَمِيمِيَّة، لَكِنَّهُ عِنْدَ الرَّجُلِ أَدَّى إِلَى الابْتِعَادِ، فَهُوَ لَمْ يَعُدْ يُطِيقُ أَنْ يَكُونَ إِلَى جَانِبِ

امْرَأَةٍ خَطَفَتْ مِنْهُ دَوْرَهُ كَرَجُلٍ، وجَعَلَتْ وُجُودَهُ يَتَضَاءَلُ، فَهُوَ يَشْعُرُ بِأَنَّهَا تَسْخَرُ مِنْهُ، وَلِكَي يَنْتَقِمُ، ويُعَاقِبَهَا جَعَلَهَا تَلْهَثُ وَرَاءَهُ». أ.هـ.

وَمِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، ومُهِمَّةٍ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ المُرَاقِبِينَ يَرْبِطُونَ بَيْنَ حُصُولِ كَثِيرٍ مِنَ النِّسَاءِ اليَوْمَ وَظَائِفَ فِي الدَّوْلَةِ، وَبَيْنَ تَفَشِّي البَطَالَةِ بَيْنَ الرِّجَالِ، فَلَوْ أُعْطِيَ الرِّجَالُ نِسْبَةَ تِسْعِينَ فِي المِئَةِ مِنَ الوَظَائِفِ المُتَاحَةِ، لِكَوْنِ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤] وَالبَاقِي يُخَصَّصُ لِلنِّسَاءِ لِيَعْمَلْنَ فِي مَجَالِ التَّمْرِيضِ، وَتَعْلِيمِ بَنَاتِ جِنْسِهِنَّ: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤] ولَعَمِلْنَ عَلَى تَرْسِيخِ أَنْوَاعِ التَّرْبِيَةِ السَّلِيمَةِ فِي نُفُوسِ أَبْنَائِهِنَّ، حِينَ يَجِدْنَ الوَقْتَ الكَافِي لِذَلِكَ.

وَهُنَّ مَكْفُولَاتٌ مِنَ الرِّجَالِ، بِمَا وَجَّهَ بِهِ الشَّارِعُ، فَلَوْ فُعِّلَ مَبْدَأُ (القِوَامَةِ) بِدَعْمٍ مِنْ قِبَلِ وَلِيِّ أَمْرِ المُسْلِمِينَ، بِقُوَّةٍ، وَتَصْمِيمٍ، بِأَنْ يُلْزِمَ كُلَّ ذي صِلَةِ قَرَابَةٍ بِالمَرْأَةِ، رِعَايَتَهَا،

وَالنَّفَقَةَ عَلَيْهَا، بَدْءًا بِالأَبِ وفُرُوعِـهِ، وانْتِهَاءً بِالْعَصَبَةِ مِنْ الذُّكُورِ، بحَسَبِ قُرْبِ المُتكَفِّلِ مِنْهُمُ بِمَكْفُولَتِهِ، وَمَنْ لَيْسَ لَهَـا كَافِلٌ بَعْدَ اللـهِ، كَفَلَهَا وَلِيُّ أَمْرِ المُسْـلِمِينَ، مِنْ بَيْتِ مَالِهِم، كَفَالَةً تَحْفَظُ عَلَيْهَا كَرَامَتَهَا، وَوَضَعَ نِظَامًا يَنُصُّ عَلَى مُعَاقَبَةِ المُتَقَاعِسِينَ.

فَتَفْعِيـلُ مَبْدَأ (القِوَامَـةَ) بِحَزْمٍ، وَإِصْرَارٍ يُقَلِّلُ نِسْـبَةَ العَاطِلِينَ بَيْـنَ الرِّجَالِ، وَيُحَمِّلُ أَكْثَرَهُم مَسْـؤُولِيَّةَ رِعَايَةِ أُسَـرِهِم، ويُحَقِّقُ مَفْهُومَ (القِوَامَةَ) لِلرَّجُـلِ فِي المُجْتَمَعِ المُسْـلِمِ تَطْبِيقًا عَمَلِيًّا، ولَقَلَّتْ أَنْوَاعُ المَظَالِمِ عَلَى النِّسَاءِ مِنْ الرِّجَالِ. ولأَصْبَحَ لِلرِّجَالِ أَهَمِيَّةٌ عِنْدَ النِّسَـاءِ، يَشْعُرْنَ تُجَاهَهُ بِالتَّقْدِيرِ، والحَاجَةِ إِلَيْهِ، فَقَدْ أَلْزَمَهُ الشَّـارِعُ الإِنْفَاقَ عَلَيْهِنَّ، وَلَوْ كَانَـتْ إِحْدَاهُنَّ ذَاتَ غِنَى: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطـلاق: ٧]. أَبًـا كَانَ، أَوْ أَخًـا، أَوْ زَوْجًا، وَمَنْ لَهُ صِلَةُ رَحِمٍ بِهَـا، حَتَّى إِذَا انْقَطَعَتْ

بِهَا السُّــبُلُ مِنْ كُلِّ هَؤُلَاءِ أُنْفِقَ عَلَيْهَا حَقًّا مَشْرُوعًا مِنْ بَيْتِ مَالِ المُسْلِمِينَ.

فَمِنْ أَهَمِّ أَسْــبَابِ الخِــلَافِ بَيْنَ الزَّوْجَيْــنِ، وَأَفْرَادِ الأُسْــرَةِ الوَاحِدَةِ، فِي الغَالِبِ، مَادِيَّةٌ، فَــإِنْ وَجَدَتْ بَعْضُ النِّسَاءِ مَوْرِدًا مَالِيًّا مُسْتَقِلًّا تَمَرَّدْنَ عَلَى مَحَارِمِهِنَّ، وَأَقْدَمَتْ إِحْدَاهُنَّ عَلَى مَا لَا تُحْمَدُ عُقْبَاهُ، نَتِيجَةَ القَرَارَاتِ المُتَسَرِّعَةِ، الَّتِي قَدْ تَنْدَمُ عَلَيْهَا، وَتَكُونُ سَــبَبًا فِي إِحْدَاثِ اضْطِرَابَاتٍ بَيْنَ أَفْرَادِ الأُسْــرَةِ، وَإِذَا اسْتَحْوَذَتْ عَلَى تَرْبِيَةِ الأَطْفَالِ، أَو إِدَارَةِ شُؤونِ حَيَاتِهَا اسْتِقْلَالًا، فَإِنَّه مَعَ كُلِّ مُنَاسَبَةٍ تُرَتِّبُ لَهَا يَظْهَرُ خَلَلٌ بَيِّنٌ فِي الإِعْدَادِ، والنَّتَائِجِ، مِن نَوْعِ الإِسْــرَافِ، والتَّبْذِيرِ فِيمَا لَا مُبَرِّرَ لَهُ عِنْدَ العُقَلَاءِ، ولَا ضَرُورَةَ، سِــوَى التَّقْلِيدِ، والمُنَافَسَــةِ لِلْأُخْرَيَاتِ، بِدَافِعِ الغَيْرَةِ، والشُّــعُورِ بِالنَّقْصِ، أَحْيَانًا، وَقَدْ قِيلَ: «مَا رَأَيْتَ تَبْذِيرًا إِلَّا وَإِلَى جَانِبِهِ حَقٌّ مُضَيَّعٌ».

قَالَ أَحَدُ عُقَلَاءِ عُلَمَاءِ النَّفْسِ الغَرْبِيِّينَ:

«المَــرْأَةُ فِي العَصْرِ الحَاضِرِ فِــي طَرِيقِهَا إِلَى الزَّوَالِ؛ لِأَنَّهَا تُغْلِقُ الأَبْــوَابَ أَمَامَ المَزَايَا العَدِيدَةِ الَّتِــي تَتَمَيَّزُ بِهَا عَلَى الرَّجُلِ، وتفتَحُ بَدَلًا مِن ذَلِكَ أَبْوَابًا أُخْرَى تَسِيرُ عَبْرَهَا إِلَى دُرُوبِ الرِّجَالِ. ونَتَحَــدَّثُ طَوِيلًا فِي الأَخْلَاقِ، وَعَنِ الأَخْلَاقِ، ومَعَ ذَلِكَ تَنتَشِرِ الخَطِيئَةُ بِصُورَةٍ مُفْزِعَةٍ، تَخترِقُ حَوَاجِزَ البُيُوتِ الَّتِي كَانَتْ آمِنَةً، تَسْتَغِلُّ التُكنُولُوجِيَا الحَدِيثَةَ لِتَصْنَعَ مِنْ الخِيَانَةِ قَانُونًا جَدِيدًا، يَحكُمُ العِلَاقَاتِ الزَّوْجِيَّةِ، ويَقضِي عَلَيهَا بِالفَشَلِ، أَو بِتَنشِئَةِ جِيلٍ جَدِيدٍ مُمَزَّقٍ، يَسْمَعُ كَثِيرًا عَن الأَخْلَاقِ، ولَا يَرَاهَا، فَنَوَافِذُ الاشْــتِهَاءِ مُشْــرَعَةٌ يُمْكِنُ الدُّخُولُ إِلَيْهَا عَبْرَ صُورَةٍ كَاذِبَةٍ، أَو كَلِمَاتٍ مَعْسُــولَةٍ لَا تَبْحَثُ إِلا عَنْ أَجْسَادٍ عَطْشَى، أَو آذَانٍ مُحَافِظَةٍ لِتَدَنِّسُهَا، وَهِيَ نَوَافِذُ تَتَّسِعُ كُلَّ يَوْمٍ، تَبْحَثُ عَنْ وَافِدٍ جَدِيدٍ، يَعْتَقِدُ أَنَّهُ فِي طَرِيقِهِ إِلَى السَّعَادَةِ، لِيَكْتَشِفَ فِي النِّهَايَةِ أَنَّهُ عُضْوٌ جَدِيدٌ فِــي نَادِي الجَحِيمِ، فَهَلْ نُفَكِّرُ جَمِيعًــا كَيْفَ يُمْكِنُ إِغْلَاقُ هَذِهِ النَّوَافِذَ؟!!» أ.هـ.

تَقُولُ المُثَقَّفَةُ الكُويتِيَّةُ، غَنِيمَةُ الفَهَد: «نِلْنَا كُلَّ شَـيْءٍ، أَصْبَحْنَا كَالرِّجَالِ تَمَامًا، نَسُـوقُ السَّـيَّارَةُ، نُسَافِرُ لِلْخَارِجِ وَحْدَنَا، وَصَلْنَا إِلَى المَنَاصِبِ القِيَادِيَّةِ، واخْتَلَطْنَا بِالرِّجَالِ، وَأَثْلَجَتْ صُدُورَنَا اِنْتِصَارَاتُنَا النِّسَـائِيَّةُ عَلَى الرِّجَالِ، أَقُولُ لَكُمُ: إِنَّكُمْ يَا رِجَال، لَسْتُمْ رِجَالًا كَمَا يُقَالُ عَنْكُمْ، وَلَيْسَتْ لَدَيكُمْ أَيُّ مَعْنًى صَحِيحٍ لِغَيْرَةٍ.

مَا أَجْمَـلَ الأُنُوثَةَ، وَمَـا أَجْمَلَ المَـرْأَةَ الَّتِي تَحْتَمِي بِالرَّجُلِ، وَيُشْـعِرُهَا الرَّجُـلُ بِقُوَّتِهِ، وَيَحْرِمُهَا مِنَ السَّـفَر وَحْدَهَـا، وَيَطْلُبُ مِنْهَا أَنْ تَجْلِسَ بِالْبَيْـتِ، تُرَبِّي أَطْفَالَهَا، وَتُشْرِفُ عَلَى مَمْلَكَتِهَا.

نَعَمْ! أَقُولُهَا بَعْدَ تَجْرُبَةٍ، أُرِيدُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَى أُنُوثَتِي الَّتِي فَقَدْتُهَا، أُرِيدُ أَنْ أُصْبِحَ كَالسُّـعُودِيَّاتِ، ذَاتِ عَزِيمَةٍ، وَقُوَّةٍ، أَحْتَمِي بِزَوْجِي، وَأَخِي، وَأَبِي، وَابْنِي، وأَسْـتَعِيدُ شَيْئًا مِنْ أُنُوثَتِي الَّتِي فَقَدْتُهَا». (بتصرف).

فَلَو أَنَّ وَلِـيَّ الأَمْرِ فَرَضَ أَقْصَـى العُقُوبَاتِ لِكُلِّ مَنْ فَرَّطَ، أَوْ قَصَّرَ فِي وَاجِبَاتِهِ الزَّوْجِيَّةِ، أَوْ حُقُوقِ كُلِّ مَنْ يُسْأَلُ عَنْهُ مِنْ أَفْرَادِ أُسْرَتِهِ، أَو عَصَبَتِهِ، لَقَامَ الكَثِيرُ مِنْهُمُ بِوَاجِبَاتِهِمْ تُجَاهَ أُسَـرِهِمُ، وأَغْنَوا نِسَـاءَهُم عَنِ الحَاجَةِ، والسُّـؤَالِ، ولتَفَرَّغَتِ المَرْأَةُ لِبَيْتِهَـا، وَتَرْبِيَةِ أَبْنَائِهَا، وَحَفِظَتْ كَرَامَتَهَا، وَعَفَافَهَا فِي بَيْتِهَا، مَصُونَةً مِنْ كُلِّ عَارِضٍ يَعْرِضُ لَهَا.

جَـاءَ فِي الأَثَـرِ: «**مَنْ يَزَعُ السُّـلْطَانُ أَكْثَـرُ مِمَّنْ يَزَعُ القُرْآنُ**». قِيلَ مَعْنَاهُ: أَنَّ مَنْ يَكُفَّ عَنِ ارْتِكَابِ العَظَائِمِ مَخَافَةَ السُّلْطَانِ، أَكْثَرُ مِمَّنْ تَكُفُّهُ مَخَافَةُ القُرْآنِ، واللهُ تَعَالَى!!».

فَالمُغْرِضُـونَ، مِنْ الرُّوَيْبِضَةِ: السُّـفَهَاءُ، وَالفُسَّـاقُ، وَالتَّافِهُـونَ، نَسَـجُوا بِادِّعَاءَاتِهِـم المَغْلُوطَةِ ثَوبًـا نَاعِمَ المَلْمَسِ، أَسْـمَوْهُ حُقُوقَ الإِنْسَـانِ، سَـتَرُوا بِهِ سَوْءَاتِ أَهْدَافِهِم الحَقِيقِيَّةِ فِي إِفْسَـادِ المُجْتَمَعَاتِ المُسْـلِمَةِ، وَمَا كَانُوا لِيَسْـتَطِيعُوا فِعْلَ مِثلَ ذَلِكَ لَوْلَا ضَعْفُ الوَازِعِ الدِّينِيِّ لَدَى أَكْثَرِ أَفْرَادِ الجِنسَينِ، أَمَامَ المُغْرِيَاتِ المَادِّيَّةِ، وَرُكُونُهُمَا

إِلَى الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزُخْرُفِهَا، وَمَتَاعِهَا، والتَّسْوِيفِ عَنِ اتِّخَاذِ القَرَارِ المُنَاسِبِ، فِي الوَقْتِ المُنَاسِبِ، وتَنفِيذِ بُنُودِهِ بِكُلِّ حَزْمٍ، وِفقَ التَّوجِيهِ الشَّرْعِيِّ فِي الإِسْلَامِ.

وَلَمَّا كَانَتِ المَرْأَةُ تُشَكِّلُ فِي تَكْوِينِهَا الفِطْرِيِّ، الجَانَبَ الأَضْعَفَ فِي تَرْكِيبَةَ المُجْتَمَعِ، كَانَ الوصُولُ إِلَى إِغْوَائِهَا أَسْهَلَ، وَأَيْسَرَ، فِي تَصْدِيقِ مَا يَبُثُّونَهُ مِنْ أَوْهَامٍ (فَيَتَوَارَونَ) خَلْفَ المُطَالَبَةَ بِحُقُوقِهَا المُغتَصِبَةِ، كَمَا يَزْعُمُونَ؛ لِإِرْضَائِهَا، وَالإِمْعَانِ فِي إِغْوَائِهَا.

وَلَقَدْ تَمَكَّنَ بَعْضُ ضُعَفَاءِ النُّفُوسِ، المَادِّيُّونَ مِنْ تَمْوِينِ إِنْشَاءِ قَنَوَاتٍ فَضَائِيَّةٍ، بِأَجْهِزَةٍ مُتَقَدِّمَةٍ مُطَوَّرَةٍ تَبُثُّ عَلَى مَدَارِ السَّاعَةِ، مُعْظَمَ صُوَرِ الانْحطَاطِ الخُلُقِي، والرَّذِيلَةِ، فِي قَالَبِ مُسَلْسَلَاتٍ، وَأَفْلَامٍ هَابِطَةٍ، وَنَدَوَاتٍ لموضُوعَاتٍ إِبَاحِيَّةٍ، مُنَوَّعَةٍ، وَمُغْرِضَةٍ، وَإِجْرَاءِ مُقَابَلَاتٍ مَعَ نَوْعٍ مِنَ النَّاسِ فَقَدَ أَكْثَرُهُم حَيَاءَهُ، وَغَيْرَتَهُ، يُزَيِّنُونَ

لِلمُشَاهِدِ فِعْلَ الرَّذَائِلَ، وَقَوْلِهَا، وَيُقَلِّلُونَ مِن خَوْفِهِ، وَتَرَدُّدِهِ عَنْ فِعْلِهَا.

ولَمَّا كَانَتْ تِلْكَ الوَسَائِلُ الفَضَائِيَّةُ فِي مَقْدُورِهَا، عِلْمِيًّا، الوصُولَ إِلَى أَيِّ مَكَانٍ عَلَى الأَرْضِ مُبَاشَرَةً، بِوَاسِطَةِ الأَقْمَارِ الصِّنَاعِيَّةِ، مُتَخَطِّيَةً الحَوَاجِزَ، والقَوَانِينَ، أَصْبَحَ مِنَ الصَّعْبِ حَتَّى عَلَى المَسؤولِينَ، الغَيُورِينَ، فِي الدُّوَلِ الرَّافِضَةِ لِكَثِيرٍ مِمَّا يُبَثُّ، التَّحَكُّمُ فِي وقْتِ بَثِّهَا، أَو اختِيارِ مَا تَرَاهُ مُنَاسِبًا لمُجتَمَعاتِهَا، إِلَّا ضِمْنَ نِطَاقٍ ضَيِّقٍ جِدًّا، فَأَصْبَحَ الأَمْرَ فِي حُكْمِ المَفْرُوضِ عَلَى الجَمِيعِ، مِنْ فِئَةِ المُفْسِدِينَ فِي الأَرضِ، سَخَّرَتْ ثَرَوَاتِهَا المَادِيَّةَ الكَبِيرَةَ، ذَاتِ المَصَادِرِ المَشْبُوهَةِ، لِغَرَضِ إِشَاعَةِ الفَاحِشَةِ، والإِفسَادِ فِي الأَرضِ، تَحْتَ سِتَارِ التَّرْوِيحِ عَنْ النَّفْسِ، وإِشْغَالِ السُّفَهَاء مِنْ الشَّبَابِ، والصَّبَايَا عَنْ التَّفْكِيرِ فِي أُمُورٍ أُخْرَى!!.

فَأَيْنَ هُمْ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

والبَرَامِجُ الَّتِي تَبُثُّهَا مُعْظَمُ تِلكَ القَنَوَاتِ المُغْرِضَةِ مِنْ أَفْلَامٍ، ومُسَلسَلَاتٍ، تَجمَعُ فِي مُعْظَمِهَا بَيْنَ الخَطِيئَةِ، والابْتِذَالِ، والرَّذِيلَةِ، والعَبَثِ، وإِثَارَةِ الفِتْنَةِ الَّتِي وَصَفَهَا اللهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]. كَأَنَّهَا أَنْشِئَتْ لإِفسَادِ الذَّوْقِ العَام، وتَشْوِيهِ الذَّاكِرَةِ، فَلَا تُقَدِّمُ إِلَّا البَذَاءَاتِ، وثَقَافَةِ العُرِيِّ!!.

قَالَ أَحَدُ الغَيُورِينَ: «ثَمَّ نُصُوصُ كَثِيرةٌ فِي الكِتَابِ، والسُّنَّةِ تَأْمُرُ بالسَّتْرِ، والعَفَافِ، وتَعُدُّ العُرِيَّ مِن إِلقَاءِ الشَّيْطَانِ، وفِتْنَتِهِ للجِنْسَيْنِ مَعًا، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وقَــدَ التبَسَ الأَمْرُ عِنْدَ بَعْضَ النَّاسِ، فَظَنُّوا أَنَّ السِّــتْرَ مَعْنَاهُ إِخْفَاءُ شَــيْءٍ مَعِيبٍ عَنْ عُيُــونِ الآخَرِينَ، ودَاخَلَهُم شَــيْءٌ مِنَ الازْدِرَاءِ، أَو التَّحْقِيرِ، أَو الاسْتِخْفَافِ، فَالعَيْبَ لَيْــسَ فِي أَصْلِ الخِلْقَةِ الرَّبَّانِيَّةِ، قَــالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

وقَــالَ العَزِيزِ الحَكِيــمِ: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧].

وإِنَّمَا العَيْبُ التَّكَشُّفِ ذَاتُهُ، فَحِكْمَةُ الخَالِقِ تَتَجَلَّى فِي جَمَالِ الخَلْقِ، وإِبْدَاعِهِ، وتَنَاسُقِهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [التغابن: ٣].

وكُلُّ إِنْسَانٍ هُوَ جَمِيلٌ مِن وَجْهٍ مَا، والمَرْأَةُ خَاصَّةً فِيهَا الجَمَالُ، والجَاذِبِيَّةُ، والإِغْرَاءُ، وهَذَا سِــرُّ وجُوبِ صَوْنِهَا، وحِفْظِهَا، وَسَتْرِهَا عَن العُيُونِ المُتَطَفِّلَةِ، وعَنْ فُضُولِ النَّظَرِ، أَو الاسْــتِمْتَاعِ المُحَــرَّمِ، وَذَكَرَ اللهُ تَعَالَى مَرْيَمَ بِاسْــمِهَا، مُتَحَدِّثًا عَنْ إِحْصَانِهَا، وهُوَ مَا يَعْنِي حِفْظَهَا لِجَسَــدِهَا كُلِّهِ، ولِعَقْلِهَا، وقَلْبِهَا». أ.هـ.

ومِـــن كِتَـــابِ، نَوَافِذَ الاشـــتِهَاءِ، قَـــالَ مُؤَلِّفُـــهُ: «إِنَّ تَكنُولُوجِيَا الاتِّصَالَاتِ، ومُستَجِدَّاتِهَا المُتَتَابِعَةِ قَدْ أَفْرَزَتْ، وأَرْخَتْ ظِلَالَهَا السِـــلْبِيَّةَ عَلَى المُجتَمَعَـــاتِ، فَقَدْ أَتَاحَتْ لِفِئَاتِ الشَّـــبَابِ دُخُولَ عَوَالِمَ أُخـــرَى مَحْجُوبَةً فِي الثَّقَافَةِ العَرَبِيَّةِ، مِثلَ: الفَضَائِيَّاتِ، والإِنترنِت، فَهُمْ يُشَاهِدُونَ عَلَيْهَا الأَغَانِي، والأَفلَامَ الإِبَاحِيَّةَ، الأَمْرَ الَّذِي هَيَّأَ لَهُم، وشَجَّعَهُم عَلَى الخُرُوجِ عَنْ كُلِّ قِيَمِ المُجتَمَعِ المُحَافِظِ، مُتَصَوِّرِينَ، بِتَأْثِيرِ مَا يَرَونَهُ، أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ أَصْبَحَ سَهْلًا، ومُتَاحًا، ومُبَاحًا، فَانطَلَقَتْ قُطْعَانُهُم تُهَاجِمُ الفَتَيَاتِ فِي الشَّارِعِ، تَحَرُّشًا، أَو اغْتِصَابًا، فَنَوافِذُ الاشْـــتِهَاءِ مُشْـــرَعَةٌ أبوابُهَا بِلَا رَقِيبٍ، ولَا حَسِيبٍ، فَالمُجتَمَعُ يَتَعَرَّضُ إِلَى غَزْوٍ تُكنُولُوجِيٍّ فِي ظَاهِرَةٍ رُبَّمَا لَمْ تَتَكَرَّر فِي التَّارِيـــخِ، ولَن تَتَكَرَّر، وهِيَ: «أَنَّ التَّقَدُّمَ العِلْمِيَّ جَلَسَ فِي رِكَابِهِ تَأَخُّرٌ أَخْلَاقِيٌّ» أ.هـ (بِتَصَرُّف).

والمُمَثِّلُونَ فِي السِّـــينِمَا، والمَسرَحِ، يَعدّونَ أَنفُسَهُم، ويُظْهِرُهُـــم المُخرِجُـــونَ لأَعمَالِهِـــم، بِأَنَّهُـــم مُصْلِحُونَ

اجتِمَاعِيُّونَ، حَتَّى إنَّ أَحَدَهُمْ قَالَ مُتَهَكِّمًا عَلَى مُطَالِبِيهِمْ بالاسْتِقَامَةِ، ومُبَرِّرًا مَا يَجْرِي فِي الوَاقِعِ: «بَحَثْنَا عَنْ إِمَامٍ عَادِلٍ، فَمَا وَجَدْنَا غَيْرَ عَادِلٍ إِمَامٍ!».

فَهُمْ (يَتَوارَوْنَ) خَلْفَ دَعْوَى البَحْثِ عَنْ حُلُولٍ لِمشْكِلاتِ المُجْتَمَعِ عَنْ طَرِيقِ إِثَارَةِ، وتَشْخِيصِ المُشْكِلاتِ الاجْتِمَاعِيَّةِ، وتَجْسِيدِهَا بِعَمَلٍ يَقْرُبُ مِنْ الوَاقِعِ، بَحْثًا عَنْ سُبُلِ العِلَاجِ، لِيُبِيحُوا لأَنْفُسِهِم أَنْوَاعًا مِنَ المُتْعَةِ المُحَرَّمَةِ، المُبَرَّرَةِ، بِزَعمِهِم، كالقُبْلَةِ، والمُضَاجَعَةِ، والضَّمِّ، عِنْدَمَا تَقَمَّصُوا أَدْوَارَ الَّذِينَ وَقَعَتْ لَهُم تِلْكَ المُشْكِلاتُ الاجْتِمَاعِيَّةُ، وقَدْ أَكَّدَتْ إِحْدَاهُنَّ فِي لِقَاءٍ مَعَهَا، أَنْ لَا حَيَاءَ فِي التَّمْثِيلِ!!.

أَلَا يُعدّ تَمَادِيهِم فِي الفِسْقِ، والمُجُونِ إِشَاعَةً للفَاحِشَةِ، وتَوسِيعًا لِنطَاقِ الإِفْسَادِ فِي الأَرضِ يَسْتَوجِبُ العُقُوبَة الرَّادِعَةَ؟!.

أَصْبَحَتِ المَرأَةُ عِندَ أُولَئِكَ طُعْمًا مِنَ الفَسِيخِ المُنْتِنِ، يَصْطَادُ بِهِ اللَئِيمُ، وفَاقِدُ الحَيَاءِ، والمُروءَةِ، مِنْ مُستَنقَعِ الرَّذِيلَةِ، ومُستَنْقَعِ الفِسْقِ، والفُجُورِ، سُفَهَاءَ المُسْلِمِينَ، وجَعَلَتَهُمْ مِنَ الجِنْسَيْنِ!!.

وَلَكِنْ يَبْقَى فِي البَعْضِ مِنْ المُشَاهِدِينَ تَعَقُّلٌ، وبَصِيرَةٌ، فَلَا يَغْتَرُّ بِمَا يُشَاهِدُ مِنَ الصُورِ المُنَمَّقَةِ، الَّتِي تُبَثُّ مِنْ خِلَالِ الوَسَائِلِ المَرْئِيَّةِ، فَيَبْحَثُ عَنِ الأَصْلِ، مَأْخُوذًا بِجَمَالِهِ، ورشَاقَتِهِ (المُتَوارِي) عَنْهُ، ويَتَجَاهَلُ القَرِيبَ مِنْهُ المُتَعَفِّفَ، وَيَزْهَدُ فِيهِ بَعْدَ أَنْ يُقَارِنَ بَيْنَهُ وبَيْنَ مَا رَأَى مِنْ أَشْكَالٍ مُصْطَنَعَةٍ، مُحَنَّطَةٍ، وبَيْنَ مَحَارِمِهِ، بَلْ يَزْدَادُ إِعْجَابُهُ، وَاحتِرَامُهُ لِزَوْجِهِ، فَيَحْرِصُ، وَيَحْمَدُ اللهَ عَلَى تَوْفِيقِهِ لَهُ الاقْتِرَانَ بِإِحْدَى الحَافِظَاتِ فُروجَهُنَّ، وَأَنَّهُ هُوَ مِنَ الحَافِظِينَ لِفُرُوجِهِم، مِمَّا يُقَوِّمُ أَخْلَاقَهُ، ويُقَوِّي قَنَاعَتَهُ، وَثِقَتَهُ بِمَحَارِمِهِ، ويُرَسِّخُ مَحَبَّتَهُ لَهُمُ، وَيَحْمَدُ اللهَ عَلَى نِعْمَةِ السِّتْرِ، والعَفَافِ فِي نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ، وَهُوَ يَعْتَقِدُ أَنَّ الرَّاعِيَ إِذَا

أَهمَلَ مَاشِـــيَتَهُ فِي المَرْعَى، فَضَلَّـــتْ طَرِيقَهَا إِلَى مِرَاحِهَا، فَلَيْسَ عَلَى الذِّئَابِ إِذَا تَخَطَّفَتْ نِعَاجَهُ مِنْ حَرَجٍ!!.

وَصَدَقَ فَاروقُ هَذِهِ الأُمَّةِ حِينَ قَالَ: «إِنَّمَا النِّسَاءُ لَحْمٌ عَلَى وَضَمٍ، إِلَّا مَا ذُبَّ عَنْهُ».

فَهُنَّ مِنَ الضَّعْفِ، وقِلَّةِ القُدْرَةِ عَلَى الامْتِنَاعِ، كَاللَّحْمِ المُشْـــتَهَى مِنَ الجَمِيعِ، المَتْرُوكِ عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ العَامِّ، فَإِنَّهُ لَا يَمتَنِعُ بِنَفْسِـــهِ مِن أَحَدٍ أَرَادَهُ، إِلَّا أَنْ يَحْمِيَهُ صَاحِبُهُ، وَيدفَـــعُ دُونَهُ الطَّامِعِيـــنَ. وَجاء فـــي الحديث الصحيح: «**كلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسؤولٌ عَنْ رعيتِه**».

التَّشْخِيصُ والتَّقْوِيمُ

وَالحُرِيَّــةُ المُطْلَقَةُ الَّتِي يَتَجَاوَزُ بِهَــا أَصْحَابُهَا حُدُودَ المَأْلُوفِ مِنَ السُّــنَنِ وَالعَادَاتِ، والتَّقَالِيــد، تَدْفَعُهُم حِينَ يُخَاطِبُــونَ، أَو يَصِفُــونَ غَيْرَهُمْ إِلَى الفُحْــشِ فِي القَوْلِ، والفِعْلِ، وَإِلَى التَّحَرُّرِ مِمَّا يَفْرِضُهُ الذَّوْقُ السَّلِيمُ، النَّقِيُّ عَلَى ذَوِي المُرُوءَةِ، وَمُعْظَم مَا نَرَاهُ اليَومَ، ومَا سَــنَرَاهُ مُسْتَقبَلًا، لِوَاقِعِ بَعضِ رِجَالِ، وَنِسَــاءِ المُسْــلِمِينَ، مِــنِ انْحِلالٍ فِي الأَخلَاقِ، وتَنكُّرٍ لِبَعْــضِ تَعَالِيمِ الدِّينِ الحَنِيفِ، وَضوابِطِ المُروءَةِ، إِنَّمَا كَانَ مِن أَسْبَابِهِ الرَّئِيسَةِ، واللهُ أَعْلَمُ، مَا يَلِي:

ضَعْفُ الــوَازِعِ الدِّينِيِّ عِنْدَ الطَّرَفَيــنِ، لِقَلَّةِ التَّدَبُّرِ فِي الأَحكَامِ الشَّــرْعِيَّةِ، وضَحَالَــةِ التَّفَقُّهِ فِي الدِّيــنِ، مَعَ قِلَّةِ الاعْتِبَارِ لِلذَّوْقِ العَامِّ، وطُغْيَانِ المَادِّيَّاتِ فِي الحَيَاةِ، وكَثْرَةِ الاهْتِمَامِ بالمَظَاهِرِ الزَّائِفَةِ، وَاتِّبَاعِ سِيَاسَــةِ القَطِيعِ، والوَلَعِ بالتَّقْلِيدِ الأَعْمَى لكُلِّ مَــا هُوَ غَرِيبٌ، مُحْدَثٌ، حَتَّى أَصْبَحَ

البَعْضُ مِنْهُمُ كالإسْــفِنْجِ يَمْتَصُّ كُلَ سَــائِلٍ، دُونَ التَّفْرِيقِ بَيْنَ الطَّاهِرِ، وَالنَّجِــسِ، والنَّافِعِ، والضَّارِّ، وَذَلِكَ نَاتِجٌ عَنْ تَبَعِيَّةِ الضَّعِيفِ لِلقَــوِيِّ، المُغَايِرِ لِدِينِهِ، وأَخْلَاقِهِ، وَإِعجَابِهِ بِمَا يَصْــدُرُ عَنْهُ مِنْ جَدِيدٍ، يَعتَبِرُهُ الآخَرُ الضَّعِيفُ حَضَارَةً، وَتَقَدُّمًا!!.

ثَانِيًا: افتِقَارُ أَكْثَرِ الأُسَــرِ المُسْلِمَةِ إِلَى القُدوَةِ الحَسَنَةِ، والمُوَجِّــهِ الحَكِيمِ، الغَيُــورِ بَينَهَــا، والمُرَاقِبِ الحَصِيفَ لِتَصَرُّفَاتِ أَبْنَائِهَا، دُونَ سِــنِّ البُلُوغِ خَاصَّــةً، وَمَا يَلِيهِ فِي عُمْرِ المُرَاهَقَةِ، لِئَلَّا يتلَقَّفَهُ أَصحَابُ السُّــوءِ فِي تِلْكَ السِّنِّ الحَرِجَةِ مِنَ العُمْرِ، مِنْ زَمِيلٍ، أَو صَدِيقٍ، مِمَّنْ تَلَوَّثَ فِكْرُهُ بِمَفَاهِيــمَ خَاطِئَةٍ عَنِ الحُرِّيَّةِ، دُونَ الأَخْــذِ بضَوَابِطِهَا الَّتِي تَحْمِي حُقُوقَ الجَمِيعِ، وَتَمْنَعُ التَّعَدِّيَ عَلَى الآخَرِينَ.

ثَالِثًا: ضَعْفُ شَخْصِيَّةِ الرَّجُلِ المُسْلِمِ بَيْنَ أَفْرَادِ أُسْرَتِهِ، وخَاصَّةً زَوجَتِهِ، وأَبْنَائِهِ، أَغرَاهُــم بالتَّمَرُّدِ، وعِصْيَانِ أَكْثَرِ أَوامِرِهِ، وَالخُروجِ عَنْ طَاعَتِهِ، وَيَزْدَادُ الأَمْرُ سُــوءًا إِذَا فُقِدَ

التَّعَاونُ بَيــنَ الوَالِدَيْنِ فِي التَّوجِيهِ، وعَمِــلَ أَحَدُهُمَا عَلَى إِخْفَاءِ أَخْطَــاءِ الأَبْنَاءِ عَن الآخَرِ، فَتَقَــعُ نَتَائِجُ الإِزْدِوَاجِيَّةِ المُؤَثِّرَةِ فِي التَّرْبِيَةِ، وَالتَّوْجِيهِ، سَلْبًا عَلَى سُلُوكِهِم مُسْتَقبَلًا.

رَابِعًا: هُنَاكَ نَــوْعٌ مِنَ الرِّجَالِ تَبَلَّدَ شُــعُورُهُ بِالغَيْرَةِ عَلَى مَحَارِمِــهِ، يَنْظُرُ إِلَى كُلِّ مَــا دُونَ وقُوعِ الفَاحِشَــةِ المُبَيِّنَةِ مِنْ بَعْضِ أَهْلِهِ، عَلَى أَنَّهُ أَمْرٌ هَيِّنٌ لَا يَســتَوجِبُ الخَشيَةَ، أَو اتِّخَاذَ الحَيْطَةِ، أَو إنزَالَ العِقَابِ الرَّادِعِ، تَجِدْهُ يَتَتَبَّعُ الرُّخَصَ، لِتَبرِيرِ أَفْعَالِهِم،وَيُغْدِقُ عَلَيْهِمُ المَالَ دُونَ مُحَاسَبَةٍ، أَو مَعْرِفَةِ مَخَارِجِهِ، (مُتَوَارِيًا) خَلْفَ دَعْوَى وجُودِ الثِّقَةِ عِنْدَهُ فِي الجَمِيعِ.

سَأَلَ أَحَدُهُم شَاعِرًا، ومُفَكِّرًا، وربَّمَا مُنَظِّرًا عَرَبِيًّا مُهِمًّا لِلحَدَاثِيِّينَ، عَنْ طَبِيعَةِ عِلَاقَتِــهِ بِزَوجَتِهِ؟. فَقَالَ: إِنَّهُ مَا زَالَ يُحِبُّهَا، لَكِنَّهُ لَا يَغَارُ عَلَيْهَا إِطْلَاقًا!!.

وَقَالَ: لَا أُومِنُ بالغَيْرَةِ بَيْنَ العَاشِقَيْنِ، ولَا أَغْضَبُ مِنْ أَيِّ رَجُلٍ يُغَازِلُ حَبِيبَتِي، فَهُوَ يَكتَشِــفُ، رُبَّمَا بَعْضَ المَزَايَا الجَمَالِيَّةَ فِيهَا، الَّتِي لَمْ أَكْتَشِفْهَا أَنَا مِنْ قَبْلُ!!!.

وَيَرَى أَنَّ الزَّواجَ عِبَارَةٌ عَنْ مُؤَسَّسَةٍ ضِدَّ الحُبِّ، وضِدَّ الإِنْسَـانِ، وهِيَ كَمَا يَرَى: أَسْوَأُ مُؤسَّسَةٍ في العَالَمِ العَرَبِيِّ، يَجِبُ هَدْمُهَا!!.

وقَالَ: دُونَ تَهدِيـمِ كُلِّ مُعتَقَدَاتِ الشَّـرْقِ البَالِيَةِ، لا يُمْكِنُ الخُروجُ إِلَى أُفُقٍ جَدِيدٍ!!!.

وقَالَ: إِنَّـهُ يرْفُضُ فِكْـرَةَ الأُبُوَّةِ؛ لأَنَّهَا مُسـتَمَدَّةٌ مِنَ السُّلْطَةِ، وَهُوَ رَجُلٌ ضِدَّ السُّلْطَةِ، ولَا يُمَارِسُهَا عَلَى أَبْنَائِهِ، إِنَّمَا عَلَى نَفْسِهِ فَقَط. أ.هـ. (الهُرَاءُ).

وسُـبْحَانَ رَبِّيَ القَائِلِ: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

دَوْرُ (المُوَارَاةِ)
فِي إِعَادَةِ الانْسِجَامِ بَيْنَ المُتَنَافِرِينَ

وأَمَّا عَنْ ظَاهِرَةِ كَثْرَةِ وُقُوعِ الطَّلَاقِ فِي بَعْضِ المُجتَمَعَاتِ الإِسلامِيَّةِ، فَهِيَ نَتِيجَةٌ مُتَوَقَّعَةٌ وَسَطَ هَذَا الرُّكَامِ مِنَ التَّنَاقُضَاتِ الَّتِي يَعِيشُهَا أَفْرادُهَا، ذُكُورًا، وإِنَاثًا مَعَ التَّوَسُّعِ الهَائِلِ فِي وَسَائِلِ الاتِّصَالَاتِ المُختَلِفَةِ، والمتنوعة والمُسْتَهْدِفَةِ، الَّتِي اختَصَرَتِ المَسَافَاتِ الشَّاسِعَةَ بَيْنَ الشُّعُوبِ، وجَعَلَتْ مِنْ عَالَمِهِم قَرْيَةً صَغِيرَةً يَتَبَادَلُ أَهلُهَا الأَفكَارَ، والعَادَاتِ بِاختِلافِ مَشَارِبِهَا، مِنْ دُونِ لِقَاءٍ مُبَاشِرٍ بَيْنَهُم، مَا أَفْقَدَ مِصْدَاقِيَّةَ القَوْلِ، والفِعْلِ المُبَاشِرَيْنِ، وشَكَّلَ مَزِيجاً غَيْرَ مُتَجَانِسٍ، ولاَ مُتَكَافِئٍ بَيْنَ كَثِيرٍ مِنَ العَادَاتِ، والأَعْرَافِ، وأَوْجَدَ مِسَاحَةً ضَبَابِيَّةً تَحُولُ دُونَ الوُصُولِ إِلَى مَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ الوَاقِعِ عِنْدَ الطَّرَفَيْنِ، قَدْ يَسْتَغِلُّهَا الأَشْرَارُ فِي إِخْفَاءِ الحَقِيقَةِ، فَأَكْثَرُ الزِّيجَاتِ الَّتِي تَتِمُّ بَيْنَهُم يَكونُ

فِي الغَالِبِ، مَصِيرَهَا الفَشَـــلُ، أَوْ أَنْ يَعِيشَ الزَّوجَانِ حَياةً مُتَوتِّرَةً، مُمِلَّةً، غَيْرَ مُســـتَقِرَّةٍ، تَنتَهِي بِالتَّعْلِيقِ، أَو بِالطَّلاقِ، أَحياناً كَثيرةً!!.

والإِنْسَـــانُ بِنَوْعَيْـــهِ، مَا لَمْ يَحْتَسِـــبْ صَبْـــرَهُ عِنْدَ رَبِّهِ حَسَـــنَاتٍ، يَمَلُّ التَّكرَارَ فِي أَوقَاتٍ مُتقَارِبَةٍ لِكُلِّ مَا لَهُ عِلاقَةٌ بِغَرَائِزِهِ الفِطْرِيَّةِ، وحَاجَاتِـــهِ الضَّرُورِيَّةِ مِن مَأْكَلٍ، ومَلْبَسٍ، ومُعَاشَرَةٍ.

فَالزَّوجَانِ، مِنَ الطَّبَعِيِّ أَنْ يُمْضِيَا أَكْثَرَ أَوقَاتِهِمَا مَعاً، لاَ يَفْتَرِقَانِ حَتَّى يَعُودا ثَانِيَةً إِلَى بَعْضِهِمَا، فَتُصْبِحُ رُؤْيَةُ أَحَدِهِمَا لِلآخَرِ أَمْراً مُعْتَادا عِندَهُمَا ذَاتُ رَتَابَةٍ، تَتَكَرَّرُ كُلَّ يَوْم.

هَذَا النَّمَطُ مِنَ العِلاقَةِ بَينَ الزَّوجَينِ يَكُونُ مُسْتَسَـــاغاً، ومَرْغُوبـــاً بِهِ مِنْهُمَا فِي بِدَايَةِ حَيَاتِهِمَـــا الزَّوجِيَّةِ، ولَكِنْ مَعَ مُرُورِ الزَّمَنِ، يَتولَّدُ المَلَلُ، وتَنْشَأُ السَّآمَةُ، ويَظْهَرُ شَيْءٌ مِنَ الفُتُورِ فِي العِلاقَةِ بَينَهُمَا، فِي كَثِيرٍ مِنْ أَوجُهِ حَيَاتِهِمَا، وتَقِلُّ الرَّغْبَةُ فِـــي الحَمِيمِيَّةِ بَينَهُمَا، إلاَّ مَا كَانَ تَحْتَ تَأْثِيرِ الغَرِيزَةِ

المُلِحِّ فِـــي أَوقَاتٍ مُتَبَاعِدَةٍ، وبِصُورَةٍ آلِيَّةٍ رَتِيبَة، سَـــبَبُهُ فِي الغَالِبِ: المُلاَزَمَةُ الطَّوِيلَةُ فِي المُعَاشَرَةِ.

فِي مِثْـــلِ هَذِهِ الحَالاتِ تَبْرُزُ بِقُـــوَّةٍ الرَّغبَةُ عِندَهُمَا فِي تَبْدِيلِ بَعْضِ أَنْمَاطِ عَيْشِـــهِمَا مَعاً، لِلتَّقلِيلِ مِن حِدَّةِ المَلَلِ، تَلاَفِياً لِمَا قَدْ يُصِيبُ كَيَانَ الأُسْـــرَةِ مِـــنَ تَصَدُّعٍ. فَمَا الحَلُّ المُنَاسِبُ؟.

(المُـــوَارَاةُ) قَدْ تَكُونُ غَالِبـــاً مِنَ الحُلُولِ المُنَاسِـــبَةِ، لِلتَّقْلِيلِ مِنْ حِدَّةِ الشُّـــعُورِ بِالرَّتَابَةِ، وذَلِـــكَ بِأَنْ (يتوارَى) الزَّوْجَانِ، أَحَدُهُمَا عَـــنِ الآخَرِ لِيَوْمٍ، أَو لأَيَّـــامٍ، تَطُولُ أَو تَقْصُرُ، حَتَّى ولَو كَانَ ذَلِكَ فِي المَنْزِلِ نَفْسِـــهِ الَّذِي يَعِيشَانِ فِيـــهِ، وإِنْ كَانَ خَارِجَهُ يَكُونُ أَفْضَلَ كَزِيَارَةِ أَحَدِهِمَا لأَهْلِهِ، أَو أَحَدِ الأَقَارِبِ، مُنفَرِداً عَنِ الآخَرِ.

أَو أَنْ (يَتوارَيَـــا) مَعـــاً، وَقْتاً يُحدِّدَانِهِ وفـــقَ حَاجتِهِمَا للتَّجدِيـــدِ، خَارِجَ مَنزِلِهِمَا، يتَخَفَّفَانِ مِنْ أَكثَرِ مَا اعتَادَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْمَاطِ العَيْشِ اليَومِيِّ فِي مَنزِلِهِمَا، وأَنْ يَتَجَنَّبَا إِثَارَةَ أَيِّ

مِنَ النِّقَاطِ السَّاخِنَةِ بَيْنَهُمَا، الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تُعَكِّرَ صَفوَهُمَا، ويَتَنَاوَلاَنِ فِي حَدِيثِهِمَا مَا يَجْذِبُ أَحَدَهُمَا إِلَى الآخَرِ، مِنْ مُدَاعَبَاتٍ حَمِيمَةٍ بَيْنَهُمَا، والتَّلْمِيحُ بِذِكْرَيَاتٍ جَمِيلَةٍ لَهُمَا، وتَطَلُّعَاتٍ شَاعِرِيَّةٍ بَيْنَهُمَا للمُسْتَقبَلِ.

فَالنُّفُوسُ تَمَلُّ، والقُلُوبُ تَكِلُّ مِنْ طُولِ مُلازَمَةِ النَّوْعِ الوَاحِدِ، حَتَّى إنْ كَانَ مُحَبَّباً إِلَيْهَا، أَو نَافِعاً لَهَا، وقَد يَصِلُ بِهَا الأَمْرُ إِلَى النُّفُورِ، كَوَسِيلَةٍ لِلخُرُوجِ مِنَ الضِّيقِ غَيْرَ الإِرَادِيِّ، وقَدْ جَاءَ فِي الأَثَرِ:

«أَجِمُّوا هَذِهِ القُلُوبَ، فَإِنَّهَا تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الأَبْدَانِ»!!.

فَنَسَبَ المَلَلَ لِلقُلُوبِ، قِيَاساً عَلَى الأَبْدَانِ، وأَمَرَ بِإِرَاحَتِهِمَا بَيْنَ وَقْتٍ وآخَرَ. ولَعَلَّ أَوضَحَ مِثَالٍ عَلَى ذَلِكَ، زَوْجُ المَرْأَةِ الجَمِيلَةِ عِنْدَمَا يَمَلُّ مُعَاشَرَتَهَا، ويُعَاشِرُ مَنْ دُونَهَا جَمَالاً، وأُنُوثَةً مِنْ السَّاقِطَاتِ، سِفَاحاً، فَإِنَّهُ رُبَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ رَغْبَةً فِي التَّجْدِيدِ، وفِرَاراً مِنَ الرَّتَابَةِ.

فَفِي إِحدَى الدُّولِ الأسْــكُنْدِنَافِيَّةِ، العلْمَانِيَّةِ، أَوْجَدُوا جَمْعِيَّاتٍ لِتبَادُلِ الأَزْوَاجِ، والزَّوْجَاتِ، مــدّةً يُتَّفَقَ عَلَيْهَا، تَقلِيلاً مِنْ حِدَّةِ المَلَلِ الَّذِي انْتَشَــرَ بَيْــنَ الزَّوجَينِ، مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ المَلَــلَ لا يَقْتَصِرُ عَلَى الأُسَــرِ المُلتزِمَةِ بِالْحُدُودِ الشَّرعِيَّةِ، والمُحَافِظَةِ عَلَى عِلاقَاتِهَا الاجتِمَاعِيَّةِ، بَل يَشْمَلُ الأُسَرَ الإِبَاحِيَّةَ، غَيْرَ المُتَدَيِّنَةِ أَيْضاً.

وَفِي الغَرْبِ تتبَادَلُ بَعْضُ الأُسَرِ سُكْنَى المَنَازِلِ، وتَبَادُلَ الأَزْوَاجِ، فِي مَنْطَقَتَيْنِ، أو بَلَدَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ، يَسْكُنُ الزَّوْجُ مَعَ زَوْجَةِ غَيْرِهِ، والزَّوْجَةُ مَعَ زَوْجِ غَيْرِهَا، بِمُوافَقَةِ الطَّرَفَيْنِ، مُدَّةً مَحْدُدَةً، يَعُودُ الزَّوْجَانِ بَعْدَهَا لِبَعْضِهِمَا، كُلُّ هَذَا هُرُوباً مِنَ السَّآمَةِ، والمَلَلِ. وَقَدْ انْتَشَرَتْ بَيْنَهُمُ بُنُوكُ (النُّطَفِ) لِيَسْهُل عَلَى الرَّاغِبَاتِ في الإِنْجَابِ دُونَ ارْتِبَاطٍ رَسْمِيٍّ!!.

وَمِنْهُنَّ مِنْ تَسْــتَأْجِرُ رَجُلاً، تُعَاشِــرُهُ مُقَابِل مَبْلَغٍ مِنَ المَالِ، كَمَا يَفْعَلُ الزُّنَاةُ مِنَ الرِّجَالِ مَعَ البَغَايَا مِنَ النِّسَــاءِ، لِقَضَاءِ الوَطَرِ!!.

والمُشَــرِّعُ الإِســلاَمِيُّ الحَكِيمُ، وَضَعَ حَــلاًّ عَمَلِيًّا، بِضَوابِطَ شَــرْعِيَّةٍ، تَحُدُّ مِنْ وقُوعِ مِثْل هَــذِهِ الفَواحِشَ مِنَ المُسْــلِمِ الَّذِي يَجْنَحُ لتَوسِيعِ دَائِرَةِ الاسْــتِمْتَاعِ فِي حَيَاتِهِ الخَاصَّةِ، والتَّخفِيــفِ مِنْ وَطأَةِ المَلَلِ عِنــدَهُ، بِأَنْ أَبَاحَ لَهُ الزَّوَاجَ بأَكْثَرَ مِنْ واحِدةٍ فِي وَقتٍ واحِدٍ، بِشُروطٍ، وضَوابِطَ وضَعَهَــا لَهُ، تَحْفَــظُ حُقُوقَهُمَا، مَا يُقَلِّلُ مِــنْ تَأْثِيرِ عَامِلَيِ المَلَلِ، والرَّتَابَةِ فِي حَيَاتِهِ اليَومِيَّةِ، اللَّذَيْنِ يَعتَذِرُ بِهِمَا بَعضُ الرِّجَــالِ فِي تَرْكِ بُيُوتِهِم، والبُعْدِ عَــنْ زَوجَاتِهِم، أَو طَلَبِ المُتْعَةِ المُحَرَّمَةِ خَارِجَهُ، إِذَا وجَدوا أَنْفُسَــهُم يَتَنَقَّلونَ بَينَ فَتْرَةٍ وأُخرَى بَيْنَ أَكثَرَ مِنْ زَوجَةٍ شَرعِيَّةٍ، بِلاَ حَرَجٍ.

وَقَدْ تَضْمَنُ الزَّوجَةُ مِنْهُنَّ حَقَّهَا فِي المَبِيتِ، والرِّعَايَةِ وِفقَ قِسمَةٍ شَــرعِيَّةٍ عَادِلَةٍ، وتَجدُ لِنَفسِــهَا فُرْصَةً لتَجَدِيدِ رغْبَتَهَا فِي الاجتِمَاعِ بِزَوجِهَا، وتُلَمِّمُ أُنْسَــهَا بِهِ بَعْدَ غِيَابِ يَوْمَيْنِ، أَو ثَلاَثَــةٍ، فَتَقْضِي بِذَلِكَ عَلَى قَــدْرٍ كَبِيرٍ مِنْ حِدَّةِ المَلَلِ فِي حَيَاتِهَا الزَّوْجِيَّةِ.

وفِي نِظَامِ تَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ لِرَجُلٍ وَاحِدٍ، فِي وَقتٍ وَاحِدٍ، مَا يَمنَحُ لِعَدَدٍ كَبِيرٍ مِـنَ العَوَانِسِ، وَالأَرَامِلِ، وَالمُطَلَّقَاتِ، السَّـاعِيَاتِ إِلَى إِعْفَافِ أَنْفُسِهِنَّ، وصِيَانَةِ أَعْرَاضِهِنَّ مِنْ أَنْ تُدَنَّسَ، والفُرْصَةَ السَّـانِحَةَ، إِذَا تَقَـدَّمَ لِخِطْبَتِهِنَّ مُتَزَوِّجٌ، يرْضَيْنَ دِينَهُ، وَخُلُقَهُ، أَنْ يَقْبَلْنَ بِهِ.

وَالقِـرَانُ بَيْـنَ رَجُـلٍ وَامْرَأَةٍ، مِـنْ أَكْثَـرِ العِلَاقَاتِ الاجتِمَاعِيَّـةِ غُمُوضًا، وَجَهَالَةً، وَتَعْقِيـدًا، مِنْ حَيثُ التَّنَبُّؤُ بِنَتَائِجِهِ سَلَفًا، وَيَصْعُبُ، بَلْ يَسْـتَحِيلُ الحُكْمُ عَلَيهِ مُسْبَقًا بِالتَّوْفِيقِ، أَو بِالفَشَـلِ، ولَا يُوجَدُ مُؤَشِّرٌ، إِيجَابِيٌّ، أَو سَلْبِيٌّ يَدُلُّ عَلَى وقُوعِ أَيٍّ مِنَ الاحتِمَالَيْنِ دُونَ الآخَرِ قَبْلَ خَوْضِ الزَّوْجَينِ التَّجْرُبَةَ الفِعْلِيَّةَ مَعًا عَلَى أَرْضِ الوَاقِعِ!!.

وَالعِلَاقَـةُ بَينَ الرَّجُلِ والمَرْأَةِ، فِي حَالِ قَرَّرَا الاقتِرَانَ، تَمُـرُّ بحَالَتَيْنِ: مَا قَبْـلَ البِنَاءِ، أَو مَا يُعْـرَفُ بِفَترَةِ الخِطْبَةِ، والثَّانِيَةُ مَا بَعْدَ البِنَاءِ، وتُعـرَفُ بِالدُّخُولِ، فَقَد يَتَوافَقَانِ فِي أَكثَـرِ المُيُولِ، والرَّغَبَاتِ، وهُمَا مُتَغَايـرَانِ، صِلَةً، وَقَرَابَةً، ونَشأَةً، فَيَتَّفِقَانِ.

وقَد يَختَلِفَانِ، وهُمَا مُتَشَـابِهَانِ نَسَبًا، وجِوَارًا، وَبِيئَةً، فَيَتَنَافَرَانِ.

فَمِنْ سُـنَنِ اللهِ فِي بَنِي آدَمَ أَنْ جَعَلهُم شُعُوبًا، وَقَبَائِلَ لِيَتَعَارَفُـوا، وَ مِـنْ أَقْوَى وَسَـائِلِ التَّعَارُفِ بَيْـنَ النَّاسِ، المُصَاهَـرَةُ، النِّكَاحُ، وَالإِنْـكَاحُ، فَيَعْـرِفُ بَعْضُهُم بَعْضًا بِنَسَبِهِ، فَيُقَالُ:

فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، مِـنَ القَبِيلَةِ الفُلَانِيَّةِ، فَلَـوْ اقْتَصَرَ كُلُّ فَرْدٍ فِي النِّكَاحِ عَلَى شَـقِيقَتِهِ، مَثَلًا، كَمَا كَانَ الأَمرُ فِي بِدَايَةِ البَشَـرِيَّةِ، لَمَّا تَحَقَّقَ ذَلِكَ التَّنوُّعُ، والانتِشَـارُ، وَالتَّعَارُفُ، ولمَـا تَحَقَّقَ مَعْنَـى وَمَفْهُومُ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، وَلأَصْبَحَتْ كُلُّ فِئَةٍ مُنْغَلِقَةً عَلَى نَفْسِهَا، فِي دَائِرَةٍ ضَيِّقَةٍ، واللهُ أَعلَمُ.

وَهُنَاكَ فِي بِدَايَـةِ العِلَاقَةِ الزَّوجِيَّةِ مَا أُسَـمِّيهِ مَجَازًا: عُنْقُ الزُّجَاجَةِ، تَشـبِيهًا لَهَا فِي صُعُوبَةِ اجْتِيَازِهِ، وَمَدْخَلِهِ،

مِنْ دُونِ أَجْزَاءِ الزُّجَاجَةِ الأُخْـرَى، مِنْ حَيثُ قِلَّةُ الفُرَصِ المُتَاحَةِ لِلزَّوْجَيْنِ فِي التَّعَارُفِ، وتَحْدِيدِ الرَّغَبَاتِ، وَيَغْلِبُ عَلَيْهِمَا الحَيَاءُ، فَهُمَا يُرَكِّزَانِ فَقَطْ عَلَى مَفهُوم: أَكُونُ، أَو لَا أَكُونُ، وتَكَادُ تَخْتَفِي الشَّـفَافِيَّةُ عَنْ حَقِيقَةِ الشُّعُورِ المُتَبَادَلِ بَيْنَهُمَا، وَيَطْغَى التَّصَنُّعُ، قَولًا وَفِعْلًا بَيْنَهُمَا.

إِذَا اسـتَطَاعَ الزَّوجَانِ اجتِيَازَهُ بِرِضَا، وتَفَاهُمٍ، وقَنَاعَةٍ، وصَـلاَ فِي الغَالِبِ إِلَى بَـرِّ الأَمَانِ فِـي عِلَاقَتِهِمَا بِبَعْضٍ، كَالوصُولِ إِلَى بَطْنِ الزُّجَاجَةِ بَعْـدَ اجْتِيَازِ عُنُقَهَا، وَإِذَا كَانَ حَجْـمُ أَحْلَامِهِمَا مَعًا، أَو أَحَدِهِمَا، أَكبَرَ مِنَ المَسْـمُوحِ بِهِ عَقْلًا، أَو عُرْفًا، تَفْكِيرًا، وسُـلُوكًا، تَعَـذَّرَ عَلَيْهِمَا اجتِيَازُهُ بِيُسْرٍ، وسُهُولَةٍ، وإِذَا أَصَرَّا عَلَى الاجتِيَازِ، فَسَيَجِدَانِ، غَالِبًا مَا يُكَدِّرُ عَلَيْهِمَا صَفْوَ حَيَاتِهِمَا الزَّوْجِيَّةِ، مُستَقبَلًا.

وقَبْلَ ذَلِكَ، وبَعْدَهُ، أَن يُوَفِّقَهُمَـا اللهُ، وَيَجْمَعَ بَيْنَهُمَا عَلَى خَيْر، «**فَـالأَرواحُ جُنُودٌ مُجَنَّدٌ، مَا تَعَارَفَ مِنهَا اِئتَلَفَ، ومَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ**».

وقَد يَكُونُ مِن أَسبَابِ فَشَلِ اسْــتِمْرَارِ نَجَاحِ الزَّواجِ، إِطَالَةُ زَمَنِ الخِطبَةِ بَيْــنَ الطَّرَفَيْنِ أَكثَرَ مِنَ اللَّازِمِ، فَإِذَا وَقَعَ خِلَالَهَا اتِّصَــالٌ بَيْنَهُمَا مُبَاشِــرٌ، أَو غَيْرُ مُبَاشِــرٍ، أَكْثَرَ مِمَّا يَنْبَغِي، فَإِنَّ ذَلِكَ يُضْعِفُ مِنَ الرَّغبَةِ الغَرِيزِيَّةِ عِنْدَ الطَّرَفَينِ، أَو أَحَدِهِمَــا، فِي تَعْجِيلِ إِتْمَامِهِ، ويُقَلِّلُ مِــنْ حِدَّةِ الرَّغْبَةِ، وشَــهْوَةِ التَّطَلُّعِ لاكْتِشَــافِ مَا يَجهَلُهُ أَحَدُهُمَــا مِنْ طِبَاعِ الآخَرِ، عَمَلِيًّا!!.

والزَّمَنُ لَا يَترُكُهُمَا عَلَى حَالٍ وَاحِدَةٍ، فَقَد يُوَلِّدُ مُرورُهُ بَيْنَهُمَا نَوْعًا مِنَ الرَّتَابَةِ، والمَلَلِ لَدَى الزَّوجَةِ خَاصَّةً، يَدفَعُهَا إِلَى التَّفكِيرِ فِي البَحْثِ عَنْ فُرْصَةِ عَمَلٍ خَارِجَ بَيْتِهَا أُسْــوَةً بِالزَّوْجِ، وَذَلِكَ إِنْ تَحَقَّقَ فَسَتَنْعَكِسُ آثَارُهُ فِي أَكْثَرِ الأَحْيَانِ سَلْبًا عَلَى حَيَاتِهِمَا الزَّوجِيَّةِ، بِظُهُورِ بَعْضِ جَوانِبِ التَّقْصِيرِ فِي أَدَاءِ بَعْضِ الوَاجِبَاتِ، أَو الحُقُوقِ مِنَ الزَّوجَةِ لِزَوجِهَا، وإِذَا كَانَت قد أَنْجَبَتْ فَإِنَّ المُشــكِلَةَ تَتَضَاعَفُ، والتَّقْصِيرُ يُصْبِحُ ظَاهِــرًا فِي حَقِّ الأَبْنَاءِ مِن حَيثُ الرِّعَايَةِ السَّــلِيمَةِ،

فَلَا تَسْتَطِيعُ أُخرَى تَعْوِيضُهُم مَا قَدْ يَفقِدَانِهُ مِنْ حَنَانِ الأُمِّ الصَّالِحَةِ، وحِرصِهَا، وتَوجِيهِ الأَبِ ومُرَاقَبَتِهِ، إِذَا غَابَا مَعًا فِي وَقتٍ وَاحِدٍ.

وهَذَا النَّوعُ مِنَ (التَّوارِي) يُوجِدُ نَوعًا مِنَ التَّوَتُّرِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، ولَا يُقَدِّمُ حَلًّا لِلتَّقلِيلِ مِنَ السَّآمَةِ بَيْنَهُمَا؛ لأَنَّ الزَّوجَةَ سَتَضْطَرُّ إِلَى أَنْ تَقْضِيَ أَكثَرَ مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ بَعيدَةً عَنْ أُسْرَتِهَا، وعِندَمَا تَعُودُ إِلَى بَيْتِهَا تَعودُ مُنْهَكَةً، مُتعَبَةً، تَحْتَاجُ إِلَى وَقْتٍ لِلرَّاحَةِ لاستِعَادَةِ نَشَاطَهَا، وبَعْضَ حَيَوِيَّتِهَا، فَتُقَسِّمُ الجُزءَ المُتبَقِّيَ مِنَ النَّهَارِ، وشَطْرًا مَحْدُودًا مِنَ اللَّيْلِ بَيْنَ مَسْؤُولِيَّاتِ بَيْتِهَا، وحُقُوقِ زَوجِهَا، وكَثِيرًا مَا تَطغَى مَسؤُولِيَّةُ البَيْتِ، وَالأَوْلَادِ عَلَى حُقُوقِ الزَّوجِ!!.

ولَا يَختَلِفُ اثنَانِ عَلَى أَنَّ التَّربِيَةَ المُتَوَازِيَةَ للذُّرِيَّةِ تُكَوِّنُ جِيلًا مِنَ الأَبنَاءِ مُتَوَازِنًا يَتَمَتَّعُ - مُعْظَمُهُمُ - بِصِحَّةٍ نَفْسِيَّةٍ سَوِيَّةٍ.

ولا يَخْتَلِــفُ اثنَانِ عَلَى أَهَمِيَّــةِ دَورِ الأُمِّ الصَّالِحَةِ فِي النَّشْأَةِ الأُولَى لِلطِّفْلِ مُنذُ سَــاعَةِ وِلَادَتِهِ الأُولَى إِلَى بُلُوغِهِ السَّــنَواتِ الأُولَى مِن عُمُرِهِ، ثُمَّ يَأْتِــي دَوْرُ الأَبِ تَدرِيجِيًّا فِي المُشَارَكَةِ، كَمَا وَضَّحَهُ الحَدِيثُ الصَّحِيحُ: «**كُلُّ مَولُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَواهُ يُهَوِدَانِهِ، أَو يُنصِّرَانِهِ، أَو يُمجِّسَانِهِ، كَمثْلِ البَهِيمَةُ تُنتَجُ البَهِيمَةُ، هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ؟**».

يَهتَدِي الوَلِيدُ بِفطْرَتِهِ الَّتِي جُبِلَ عَلَيْهَا إِلَى تَوْحِيدِ اللهِ، مَا لَمْ يَصْرِفْهُ صَــارِفٌ، كَمَا يَهتَدِي إِلَى ثَــدْيِ أُمِّهِ، بِهِدَايَةِ المَوْلَى لَهُ القَائِلِ جَــلَّ فِي عُلَاه: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، مُنْذُ اللَّحَظَاتِ الأُولَى لِوِلَادَتِــهِ، حَقِيقَةٌ لَا يُنكِرُهَا ذُو بَصِيرَةٍ، وبَعْدَ ذَلِكَ يَأْتِي دَوْرُ التَّرْبِيَةِ، والتَّوْجِيهِ:

ويَنشَــــأُ نَاشِــــئُ الفِتْيَانِ فِينَا
عَلَــى مَــا كانَ عَــوَّدَهُ أَبُوهُ

فَلَو عَمَدَتْ الحُكوماتُ الإِسلَامِيَّةُ المُقتَدِرَةُ مَالِيًّا إِلَى إِعفَــاءِ ذَاتِ الوَلَدِ مِنَ العَمَلِ خَارِجَ بَيْتِ الأُسْــرَةِ، وإِجرَاءِ

مَا يَكْفِيهِنَّ مِن رَوَاتِبَ شَـهْرِيَةٍ، مِن بَيتِ مَالِ المُسـلِمينَ، عَلَى أَن يَتَفَرَّغْنَ لِتَربِيَةِ أَولَادِهِنَّ، عَلَى أَسَـاسِ أَنَّهُم الثَّروَةُ الحَقِيقِيَّةُ للأُمَّةِ، ومُسْـتَقْبَلِهَا، والقِيَامِ بِوَاجِبَاتِ أَزواجِهِنَّ، لَوَفَّرَتِ الكَثِيرَ، الكَثِيرَ مِنَ الجَهْدِ، والمَالِ الَّذِي تُنفِقُهُ عَلَى المَصَحَّاتِ، ودُورِ الرِّعَايَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ، ومَا تُنفِقُهُ عَلَى إِيوَاءِ المُشَرَّدِينَ، وإِنشَاءِ السُّجُونِ، وقُوَاتِ الأَمنِ، ومَرَافِقَ كَثِيرَةٍ أُخـرَى تُقِيمُهَا لِمُرَاقَبَةِ، وتَقوِيمِ سُـلُوكِ أَصحَابِ الجُنَحِ، والشَّـاذِّينَ، ومُكَافَحَةِ أَنواعَ الفَسَـادِ، الَّتِي غَالِبًا مَا تَصْدُرُ عَمَّـنْ فَقَدَ الرِّعَايَةَ، والتَّوجِيهَ السَّـلِيمَيْنِ فِي تَنْشِـئَتِهِ، إِنَّهَا مَسؤولِيَّةٌ عُظمَى تَقَعُ عَلَى عَاتِقِ صَاحِبِ الوِلَايَةِ العُظْمَى.

وحِمَايَةُ الأَموالِ، والأَعْرَاضِ، والدِّمَاءِ ثَوَابِتُ لَا يَنَالُ مِنْهَا، غَالِبًا، إِلَّا كُلُّ مُنْحَرْفٍ عَاشَ ظُرُوفًا مَعِيشِـيَّةً، مُزْرِيَةً قَامَتْ عَلَى أَنقَاضِ أُسْـرَة لَمْ تُوَفَّقْ فِي تَرْبِيَةِ أَبْنَائِهَا أُصُولَ التَّربِيَةِ الإِسْلَامِيَّةِ الحَقَّةِ، واللهُ أَعْلَمُ.

وإِصلاَحُ ذَاتِ البَيْــنِ إِذَا (تَوَارَى) الوِفَاقُ عَنَ الطَّرَفَيْنِ، ما يهدد أواصر القربى، مِنَ الأُمُورِ الَّتِي رَغَّبَ إِلَيهَا الشَّــارِعُ، وَحَثَّ عَلَيْهَا، قَالَ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ [النســاء: ٣٥]، وقَــالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النســاء: ١٢٨]، بَــلِ اعتبَرَهَا أَفْضَلَ مِن دَرَجَةِ نَافِلَةِ الصِّيَامِ، والصَّلاةِ، والصَّدَقَةِ.

قَالَ ﷺ لأَصحَابِــهِ: «**أَلَا أُخبِرُكُم بِأَفضَــلِ مِن دَرَجَةِ الصِّيَامِ، والصَّــلاةِ، والصَّدَقَةِ، قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُــولَ اللهِ. قَالَ: إِصلاَحُ ذَاتِ البَينِ، وإِفْسَادُ ذَاتِ البَينِ الحَالِقَةُ**».

وفِي رِوَايَة: «**وإِيَّاكُــمُ والبِغْضَةَ فَإِنَّهَا هِــيَ الحَالِقَةُ**». والبِغْضَةُ: شِدَّةُ البُغْضِ.

ونَفَى الشَّــارِعُ صِفَةَ الكَذِبِ عَمَّنْ يُنَمِّي خَيْرًا مِن أَحِدَ المُتَخَاصِمَيْنِ إِلَى صَاحِبِهِ، أَو يُبْلِغُهُ قَوْلًا جَمِيلًا عَنْهُ، وإِنْ لَمْ

يَكُنْ سَمِعَهُ مِنْهُ، ولَا كَانَ أَذِنَ لَهُ فِيهِ، لَا يُرِيدُ بِهِ إِلَا الإِصلَاحَ، فَيَجِبُ أَن يُفَعَّلَ مَجْهُودُهُم مَادِّيًّا، ومَعْنَويًّا، رَسْميًّا، وشَعْبيًّا، ليُؤَدُّوا فِي المَجتَمَعِ دَورًا رِيَادِيًّا فَعَّالًا فِي إِرجَاعِ المِيَاهِ إِلَى مَجَارِيهَا، والأَمْــرِ إِلَى نِصَابِهِ بَيْــنَ المُخْتَصَمِيْنِ، وخَاصَّةً الأَزوَاجَ بَعدَ أَن يَنْضَمَّ إِلَى أَعضَائِهَا، الحَكَمَانِ اللَّذَانِ جَاءَ ذِكرُهُمَا فِي القُرآنِ الكَرِيمِ، وإِن تَحَرَّجَ الزَّوجَانِ مِن إِفشَاءِ سِــرِّهِمَا، يُمْكِنُ لَهُمَا أَن يَسْتَشِيرَا ذَا دِرَايَةٍ، وَمَعْرِفَةٍ بِبَوَاطِنِ الأُمُورِ، مُؤْتَمَنًا، كَمَاَ فَعَلَ الرَّسُولُ ﷺ، حِينَ اسْتَشَارَ عَليّاً، وأُسَامَةَ بنَ زَيد وغَيْرِهمَا، بَعدَ حَادِثَةِ الإِفكِ، فِي أَمْرِ زَوْجِهِ.

وعِلِى الرِّجُــلِ أَلاَّ يَتعَجَّلَ الطَّــلَاقَ، حَمِيَّةً، ومُجَاراةً للمَرأَةِ ذَاتِ الطَّبِيعَةِ العَاطِفِيَّةِ المُنْدَفِعَةِ، المُتَعَجِّلَةِ فِي اتِّخَاذِ القَرارِ، خَاصَّةً إِذَا كَانَ بيْنَهُمَا ذُرِيَّةٌ، بَلْ عَلَيهِ أَنْ يُسَــارِعَ إِلَى مُغَادَرَةِ مَكَانِ النِّزَاعِ، (مُتَوَارِيًا) حتى تَهْدَأَ النُّفُوسُ، ويُرَاجِع كُلٌّ مِنْهُمَا نَفْسَهُ.

المُتَوارِي يَحْذَرُ، وَيَحْتَاطُ

والحَيْطَةُ، وأَخْذُ الحَذَرِ، وبَعْضُ الظَّنِّ، واللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، ولَمْ يَقُلْ سُبْحَانَهُ: اِجْتَنِبُوا كُلَّ الظَّنِّ، فِي مَسائِلَ الحَلاَلِ، والحَرَامِ، والشَّرَفِ، والمُرُوءَةِ، والكَرَامَةِ، أُمُورٌ مَطْلُوبَةٌ، يَستَعِينُ بِهَا الرَّجُلُ الكَيِّسُ عَلى اتِّخَاذِ القَرَارِ المُنَاسِبِ، فِي الوَقتِ المُنَاسِبِ، ولَو لَم يَكُنْ سُوءٌ قَدْ وَقَعَ، ولَكِنْ عَلَى رَأْيِ القَائِلِ:

عَرَفْتُ الشَّرَّ لاَ لِلشَّرِّ، لَكِنْ لِتَوَقِّيهِ
وَمَنْ لاَ يَعْرِفُ الشَّرَّ يَوْمًا قَدْ يَقَعْ فِيهِ

وقالَ حُذَيْفَةُ بنُ اليَمَانِ: كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، عَنِ الخَيْرِ، وكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ؛ مَخَافَةَ أَنْ يدُرِكَنِي.

أَمَلُ المُتَوارِي يَغْلِبُ يأْسَهُ

وتَجِدُ مِنَ النَّاسِ مَن (يَتَوارَى) خَلْفَ ادِّعَاءِ الصَّلاحِ لنَفْسِهِ، ويَبْخَسُ الآخَرينَ حَظَّهُم مِنْهُ، ويُغْلِقُ مَنَافذَ الأَمَلِ، وحُسْنَ الرَّجَاءِ، أَمَامَ المُذنِبِينَ، والمَولَى، جَلَّ وعَلاَ يَقُولُ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

فَهُوَ فِي المَحَافِلِ خَطِيبًا مُفَوَّهًا، صَوتُهُ يُجَلْجِلُ، يُوَبِّخُ، وَيَتَوَعَّدُ، ويَشْكو طُغيَانَ الفَسَادِ، وَيَتوجَّعُ مِمَّا وَصَلَ إِلَيهِ حَالُ المجْتَمَعِ فِي بَعْضِ جَوَانِبِهِ، وكَانَ مِنَ الأَولَى أَنْ يُحْسِنَ الظَّنَّ بِأَخِيهِ المُسلِمِ، ولَا يُزَكِّي نَفْسَهُ، واللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

بَلْ يَجْعَلُ مَا يَقُولُهُ نَوْعًا مِنَ التَّذكِيرِ، بِعِبَارَاتٍ لَطِيفَةٍ، تُرَغِّبُ المُسْتَمِعَ، وتُشَجِّعَ العَاصِي عَلَى الاسْتِقَامَةِ، لَا تَهْدِيدًا، وَوَعِيدًا: صَبَّحَكُم، ومَسَّاكُمُ.!!

وليَحْذَرْ مِنْ أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ قَالَ عَنْهُ الرَّسُولُ ﷺ: «**إِذَا قَالَ الرَّجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ، فَهُوَ، أَهلَكُهُم**».

أو يَكُونَ مِمَّنْ وَصَفَهُ القَائِلُ:

يعِيبُ السُّمَّ فِي الأَفْعَى
وكُلُّ السُّمِّ فِي فِيهِ

وقَد قَالَ رَبُّهُ، عَزَّ وجَلَّ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥].

والغَضَبُ يَغتَالُ العُقُولَ، فالإِنسَانُ مِنَّا إِذَا غَضِبَ فَإِنَّهُ يَجْمَعُ الشَّرَّ كُلَّهُ، فَمَنْ أَطَاعَ غَضَبَهُ أَضَاعَ أَدَبَهُ.

والغَضَبُ مِنَ الشَّـيطَانِ، ليَدْفَـعَ صَاحِبَهُ إِلَى ارتِكَابِ حَمَاقَاتٍ فِي حَـقِّ الآخَرِ قَد تُؤَدِي بِهِ إِلَـى مَا يُغْضِبُ اللهَ عَلَيهِ، وكَمَا قَالَ الهَادي ﷺ: «**لَيْسَ الشَّـدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِندَ الغضب**».

والغَضَبُ لَا يَمْلِكُ الإِنسَـانُ دَفْعَهُ ابتِدَاءً، ولا يَتَأَتَّى لَهُ التَّحكُّمُ فِي سَـوْرَتِهِ؛ لأَنَّهُ أَمْرٌ طَبَعِيٌّ لَا يَـزَالُ مِنَ الجِبلَّةِ، يتفَاعَلُ عِنْدَ غَلَيَانِ القَلْبِ ليَحْصُلَ عَنهُ التَّشَفِّي للصَّدْرِ، كَمَا يَقُولُ بَعْضُهُم.

ولَكِنْ يَبْقَى عَلَى الإِنسَانِ مُحَاوَلَةُ التَّخْفِيفِ مِنْ وَطْأَتِهِ، بِاجتِنَابِ أَسبَابِهِ أَصْلًا، وإِذَا تَلَبَّسَـهُ فَعَلَيهِ العَمَلُ بِمَا أَرْشَدَ الشَّارِعُ الحَكيمُ إِليهِ:

الجُلُوسُ مِنَ القِيَـامِ، أَو الاضْطِجَاعُ مِنَ الجُلُوسِ، أَو السُّـكُوتُ عَنِ الكَلَامِ، أَو الخُروجُ مِنَ المَكانِ، أَو المُبَادَرَةُ إِلَى الوَضُوءِ، ويَأْتِي فِي مُقَدِّمَةِ كُلِّ ذَلِكَ: استِحضَارُ مَا جَاءَ مِنَ الهَدْيِ فِي كَظْمِ الغَيْظِ، والتَّرغِيبِ فِي الصَّفْحِ، والغُفرَانِ،

كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى، مُشِيدًا بِالفَاعِلِ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشورى: ٣٧].

وقال جَل وعلا: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

والكِبْرُ مِن أَعْظَمِ مَا يَنْشَأُ عَنْهُ الغَضَبُ؛ لِكَونِهِ يَقَعُ عِنْدَ مُخَالَفَةِ أَمْرٍ يُرِيدُهُ المُتَكَبِّر، فالَّذِي يَتَواضَعُ تَذْهَبُ عَنْهُ سَطوَةُ النَّفْسِ الأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ، وَيَتَمكَّنُ مِنَ أَنْ يَسْلَمَ مِنْ شَرِّهِ، ويَنْتَهِي عَنْ فِعْلِ مَا يَأْمُرُهُ بِهِ الغَضَبُ، فَقَدَ يَؤولُ الأَمْرُ إِلَى القَطِيعَةِ، وأَمَّا أَثَرُهُ فِي اللِسَانِ فانْطِلَاقُهُ بالشَّتْمِ، والفُحْشِ مِنَ الكَلَامِ، الَّذِي يَسْتَحِي مِنْهُ العَاقِلُ، ويَنْدَمُ قَائِلُهُ عِنْدَ سُكُوتِ الغَضَبِ.

وأَثَرُهُ فِي الفِعْلِ، الضَّرْبُ، أَو القَتْلُ، وقد يُمَزِّقُ الغَاضِبُ ثَوبَ نَفْسِهِ، ويَلْطُمُ وجْهَهُ، ورُبَّمَا يُصْرَعُ، أَو يُغمَى عَلَيْهِ، أَو يَعْتَدي بالضَّرْبِ عَلى مَن لَيْسَ لَهُ فِي غَضَبِهِ دَخَلٌ، وهَذِهِ وغَيْرُهَا مَفَاسِدُ، فَمِن الحِكْمَةِ، واسْتجْلابِ المَصْلَحَةِ فِي دَرْءِ المَفْسَدَةِ، استحْضَارُ الغَاضِبِ مَفْهُومَ

التَّوحِيدِ الحَقِيقِيِّ، وَهُــوَ أَنَّ الفَاعِلَ الحَقِيقِيَّ هُوَ اللهُ وكُلُّ فَاعِلٍ غَيْرُهُ آلَةٌ لَهُ سُبْحَانهُ، فَلَو شَاءَ اللهُ لَم يُمَكِّنْ غَيْرُهُ مِنْهُ، فَغَضَبُهُ وَالحَالَةُ هَذِهِ غَضبٌ مِنْ مَشِــيئَةِ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ، وذَلِكَ خِلَافُ العُبُودِيَّةِ الَّسلِيمَةِ.

اسْــتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِــيِّ ﷺ: أَحَدُهُمَا كَانَ مُغْضَبًا، فَقَالَ ﷺ: «**إِنِّي لأَعْلَمُ كَلمَةً لَو قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، لَو قَالَ: أَعُوذُ بِاللهِ مِن الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ**».

لأَنَّهُ إِذَا تَوجَّهَ إِلَى اللهِ فِي حَالَةِ الغَضَبِ، واسْــتَعَاذَ بِهِ مِنَ الشَّيطَانِ، أَمْكَنَهُ استحْضَارُ مَا ذُكِرَ مِن مَفْهُومِ العُبُودِيَّةِ.

ومِنَ النَّاسِ مَن (يَتَوَارَى) عَن صِلَةِ مَحَارِمِهِ، أَو أَقَارِبِهِ، أَو مَعَارِفِهِ، بِدَعوى الانشِغَال بِطَلَبِ الرِّزْقِ، وضِيق الوَقْتِ، وهِيَ دَعوَى، فَإِذَا حَاوَلَ مُعَالَجَةَ أَسْــبَابِها الحَقيقيَّةِ، ونَظَّمَ وقتَهُ، وأُولوِيَّاتِ واجِبَاتِهِ، تَبْطُلُ حُجَّتُهُ، فَـ «إِنَّ حُسْنَ العَهْدَ مِنَ الإِيمَان» يَزيدُ فِي دَرَجَاتِهِ نَحْوَ الكَمَالِ، والنَّبيّ ﷺ أَمَرَ بِالصَّلاةِ، والصَّدَقَةِ، والعَفَافِ، والصِّلَةِ.

وَيَبْلُغُ الأَمْرُ سُوءًا إِذَا تَعَلَّقَ بِالمَحَارِمِ الأَقْرَبِينَ، وَيَأْتِي فِي المُقَدِّمَةِ الوَالِدَانِ، فَــإِنْ قَطَعَ وَصْلَهُمَا، أَو صَدَرَ عنهُ ما يتَأَذَّيَانِ مِن قَوْلٍ، أَو فِعْلٍ، يُسَمَّى فِعْلُهُ: عُقُوقًا، ويُصَنَّفُ مِنْ بَيْنِ أَكْبَرِ الكَبَائِرِ، فَقَد اســتعَاذَتِ الرَّحِمُ برَبِّهَا مِنَ القَطِيعَة، فَأعاذَهَا، حَتَّى قَــالَ لَهَا: «**أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَن قَطَعَكِ؟**». **قَالَتْ: بَلَى، يَا رَبِّ. قَالَ: فَهُوَ لَكِ**».

وقَد قَضَى اللهُ سُــبْحَانَهُ، وَأَوصَى بِالإحسَــانِ إِلَى الوَالدَيْنِ حَتَّى إِن كَانَا مُشْرِكَيْنِ، وعَدَّهُمَا الرَّسُولُ الكَرِيمُ مِنْ أَحَقِّ النَّاسِ بِحُسْنِ الصُّحْبَةِ، والرِّعَايَةِ، والتَّقْدِيرِ فَلِلأُمِّ، ثَلاثَةُ أَضعَافِ مَا لِلأَبِ مِنْ الرِّعَايَةِ وخَاصَّةً عِنْدَ حَاجَتْهِمَا إِلَيْهَا، فِي كِبَرِ سِنٍّ، أَو مَرَضٍ، فَالبِرُّ بِهِمَا مِن أَسْبَابِ إِجَابَةِ الدُّعَــاءِ، كَمَا وَقَعَ لأَحَدِ أَصحَابِ الغَــارِ، الَّذِينَ أَطْبَقَتْ عَلَى فَمِ غَارِهِم صَخْرَةٌ، فَتَوسَّلَ كُلٌّ مِنْهُم بِعَمَلٍ صَالِحٍ قَامَ بِهِ، فَذَكَرَ أَحَدُهُم بِــرَّهُ بِوَالِدَيْهِ، عِندَمَا أَحْضَرَ لَهُمَا غَبُوقًا، ووجَدَهُمَا قــد نَامَا، وَقَفَ عَلَى رَأْسَــيْهِمَا حَامِلًا الإِنَاءَ،

حَتَّى أَفَاقَا؛ لئَلَّا يُكَدِّرَ عَلَيْهِمَا نَومَهُمَا، فَانفَجَرَتْ عَنْهُم الصَّخرَةُ قَلِيلًا.

فَـ«**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وأَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**».

وقَالَ النَّبيُّ ﷺ لِمَنْ سَأَلَهُ عَن عَمَلٍ يُدْخِلُهُ الجَنَّةَ: «**تَعْبُدُ اللهَ لَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وتُقيمُ الصَّلاةَ، وتُؤْتِي الزَّكاةَ، وتَصِلُ الرَّحِمَ**»، والعَاقُّ لِوَالِدَيْهِ، أَو لأَحَدِهِمَا، أَحَدُ الثَّلاثَةِ الَّذِينَ لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِم يومَ القيامَة.

ولَا يَنْقَطِعُ بِرُّ الوَالِدَينِ حَتَّى بَعْدَ وفَاتِهِمَا، فَإِنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي سَلَمَةَ سَأَلَ الرَّسُولَ ﷺ، إِنْ كَانَ لأَبَوَيْهِ بَعْدَ وفَاتِهِمَا مَا يُبِرُّهُمَا بِهِ؟.

قَالَ لَهُ: «**الصَّلَاةُ عَلَيْهِمَا، والاسْتِغْفَارُ لَهُمَا، وإِنْفَاذُ عَهْدِهِمَا، وصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لَا تُوصَلُ إِلَّا بِهِمَا، وإِكْرَامِ صَدِيقِهِمَا**».

وقَالَ رَجُلٌ للنَّبِيِّ ﷺ: جِئْــتُ لأُبَايعُكَ عَلَى الهِجْرَةِ، وَتَرَكْتُ أَبَوَيَّ يَبْكِيَانِ، قَالَ ﷺ: «**فَارْجِعْ إِلَيْهِمَا فَأَضْحِكْهِمَا كَمَا أَبْكَيْتَهُمَا**». وأَبَى أَنْ يُبَايعَهُ.!!

التَّكَلُّفُ لَيْسَ مَعْنِيًّا فِي (التَوَارِي)

والتَّكَلُّفُ سِمَةٌ (يَتَوَارَى) خَلْفَهَا مَنْ فَقَدَ الثِّقَةَ بِنَفْسِهِ، وبِمَا يَصْدُرُ عَنْهُ مِنْ أَفْعَالٍ، وَقَرَارَاتٍ، فَقَدَ القُدْرَةَ عَلَى مُوَاجَهَةِ نَفْسِهِ بحَقِيقَةِ أَمْرِهَا، ووَاقِعِهِ الَّذِي يَحْيَاهُ، يَغْلِبُ عَلَى تَفْكِيرِهِ الظَّنُّ السَّيِّئُ، وتَجْتَاحُهُ الشُّكُوكُ فِي كُلِّ مَا حَوْلَهُ، فَتَرَاهُ عِنْدَ مُحَاوَلَتِهِ إِنْجَازَ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ حَيَاتِهِ المَادِّيَّةِ، يُبَالِغُ فِي إِعْدَادِهِ، وتَحْضِيرِه، والتَّحْضِيرِ لَهُ، ويُكْثِرُ مِنْ تَزْوِيرِهِ، وَقَدْ يَجُرُّهُ ذَلِكَ إِلَى نَوْعٍ مِنَ التَّبْذِيرِ، والإِسْرَافِ، المَنْهِيِّ عَنْهُمَا، فَيَصْنَعُ مِنَ الطَّعَامِ مَا يَزِيدُ عَنْ حَاجَتِهِ، وحَاجَةِ الأَضْيَافِ، ويَمْلكُ مِنَ المَلْبُوسِ، والكَمَالِيَّاتِ أَكْثَرَ مِمَّا يَحْتَاجُ، ويَتَكَلَّفُ مِنْ الكَلَامِ مَا لَا فَائِدَةَ فِي أَكْثَرِهِ، ويُطِيلُ فِي الاعْتِذَارِ عَنْ التَّقْصِيرِ عَمَّا قدَّمَهُ لِزُوَّارِهِ مِن أَنْوَاعِ المَأْكُولَاتِ، والمَشْرُوبَاتِ، عَلَى كَثْرَتِهَا، وتَنَوُّعِهَا، وَيَنْصَبُّ اهْتِمَامُهُ، غَالِبًا عَلَى الشَّكْلِيَّاتِ، والمَظَاهِرِ، دُونَ

المَضْمُونِ، تَحَاشِـيًا لأَقَلِّ انْتِقَادٍ، كَأَنَّهُ فِي سَـاحَةِ قِتَال مَعَ عَدُوٍّ، أَو قَدْ ضَمِنَ لِنَفْسِـهِ العِصْمَةَ مِنْ الوقُوعِ فِي الخَطَأِ، يُكَلِّفُ نَفْسَـهُ مَا لَا تُطِيقُ، تَحْتَ ضَغْطِ الشُّعُورُ بِعَدَمِ الثِّقَةِ، والخَوْفِ مِـنَ النَّاسِ، ومَـا يَقُولُونَ، ورَبُّـهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

فَكَمْ مِـنَ الوَقْتِ، والجَهْدِ أضَاعَ بِـلَا فَائِدَةٍ، وَكَمْ مِنَ الفُرَصِ ضَيَّعَ، لَو اسـتَغَلَّهَا لَعَادَ ذَلِكَ عَلَيْـهِ بالنَّفْعِ غَالِبًا، ولَو اطمَـأَنَّ، وعَالَجَ الأُمُورَ بِواقِعيَّةٍ ضِمْـنَ قُدُرَاتِهِ الذَّاتِيَّةِ الحَقِيقِيَّةِ، لَوَجَدَ مِـنْ ذَلِكَ رَاحَةَ البَالِ، وسَـكِينَةَ النَّفْسِ، ووافَقَ مَا جَاءَ فِي الأَثَرِ عَنْ جَابِرِ بنِ عَبْدِاللهِ:

«إِنَّ هَـــذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ، ولَا تُبَغِّضْ إِلَى نَفْسِـــكَ عِبَادَةَ اللهِ، فَـــإِنَّ المُنْبَتَّ لَا أَرْضًـــا قَطَعَ، ولَا ظَهْرًا أَبْقَى».

هَذَا فِـــي أُمُورِ العِبَادَةِ، ويُقَاسُ عَلَيْـــهِ أَمْرُ المَعَاشِ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَرَادَ بِهِ وَجْهَ اللهِ، والتَّقَرُّبَ إِلَيْهِ، كَانَ لَـــهُ مِنَ الأَجْرِ فِي الآخِرَةِ بِقَـــدْرِ إِخْلَاصِهِ فِي النِّيَّةِ فِيهِ، واللهُ أَعْلَم.